الولايات المتحدة

طليعة الانحطاط

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٨ م

دار الكتاب

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

دمشق ـ سوريا جانب وكالة الأنباء "سانا "

ص . ب ٣١٦٦١ هاتف ٢١١٣٠٠٣ ـ ٢١٢٣٧٥٣

موافقة وزارة الاعلام تحت رقم / ٤١٩٧١ / تاريخ ٧ / ٣ / ١٩٩٨ م .

روجيه غارودي

الولايات المتحدة

طليعة الانحطاط

كيف نحضر للقرن الحادي والعشرين

نقله إلى العربية

مروان حموي

دار الكتاب

الولايات المتحدة الأميركية
طليعة
الانحطاط

كتب سيمون وايل :

نعرف جيداً أن أمركة أوروبا بعد الحرب ، تشكل خطراً بالغا . ونعرف جيداً ، ما سنفقده لو تحققت هـذه الأمركة . فأمركة أوروبا ستقود بلا شك ، إلى أمركة الكرة الأرضية كلها .. وستفقد الإنسانية ماضيها .

سيمون وايل

١٩٠٩ ـ ١٩٤٣

سيمون وايل فيلسوف بدأ عاملاً في مصنع ، ثم انضم للجنرال ديغول في لنـدن عـام ١٩٤٣ . معـروف بشكل خاص بكتابه :

" La Pesanteur et La grace "

المقدمة

البطالة والطرد من العمل في بلادنا ، والجوع في ثلاثة أرباع العالم ، والهجرة كممرّ من عـالم الجـوع إلى عالم البطالة ..

لقد بدأنا باغتيال أطفالنا الصغار ، ونهيئ للقرن الحادي والعشرين انتحـاراً كونيـاً ، فيمـا إذا استـسلمنا للانحرافات الحالية في السياسة الدولية .

ونتساءل : أهناك سياق واحد للأحداث نستطيع من خلاله فهم عصرنا ؟

أعني ، أهناك رابطة داخلية وعميقة تجمع بين كل المشكلات الدولية التي تـستدعي التـدخل العـسكري ، وتبرر دور صندوق النقد الدولي ، والبنك الدولي ، والدور الأوروبي كما رسمته معاهدة مايستريخ ، ومنظمـة التجارة الدولية " الجات القديمة " ، وعودة النظام الرأسمالي إلـى بلـدان أوروبـا الـشرقية ، والأصـوليات الإسلامية والمسيحية واليهودية ، ومشكلاتنا الراهنة : البطالة والتسريح ، والهجرة ، والعنف ، والمخدرات ؟

كيف نستطيع الإمساك بوحدة هذه المشكلات وفهم معناها ؟

وقبل كل شيء : كيف نستطيع أن نضع برنامجا متماسكا للخروج منها ؟

هذا هو موضوع كتابنا .

الولايات المتحدة طليعة الانحطاط

الفصل الأول

ما هي الرؤية التركيبية التي تبرز في نهاية القرن العشرين ، والتي يمكن أن نكونّها من مجموعة أحـداث تبدو ظاهريا منفصلة بعضها عن البعض الآخر ؟

ما هي المشكلات الكبرى التي تبرز لتشكل مستقبلنا القريب ؟

هل نحن متجهون إلى حرب عالمية ثالثة ، انما من نموذج جديد ؟ ذلك أن ما سمي حتـى الآن بـالحربين العالميتين لم يكن في حقيقة الأمر إلاّ حربين أوروبيتين ، لا عالميتين ، ولم تسّم الحـرب الأولـى عالميـة إلاّ لأن الدولتين المتحالفتين إنكلترا وفرنسا ضمتا إلى جيوشهما " فرق الملونين " التـي تـشكلت مـن مـواطني مستعمراتهما : من الجنود السنغاليين ، حتى جنود الشمال الأفريقي ، بالنسبة لفرنسا ، وجنود ممتلكـات التـاج البريطاني الممتدة من كندا حتى استراليا ، بالنسبة لبريطانيا.

وجرى الأمر نفسه في الحرب العالمية الثانية ، التي انفجرت أيضا بسبب صراع أوروبـي - أوروبـي ، مع فارق أن الحلفاء الغربيين ، أشركوا في هذه الحرب الشعوب التي كانت خاضعة لهم . فإنزال البروفـانس مثلا ، ضم ٧٠ % من عناصره ، جنوداً مغاربة ، (ونسبة قتلى المغاربة إلى نـسبة القتلـى الآخـرين أعلـى بكثير) . وكان الهدف : تحرير فرنسا . وجرت الحرب الأمريكية - اليابانية في نفس الـسياق ، إذ لـم تكـن حربا بين حضارتين ، إنما بين خصمين يطوران نفس النظام الصناعي ، وقد اختصما بهـدف الـسيطرة علـى المحيط الهادي ، وعلى غزو الأسواق . ولم تتداخل الحربان عسكريا أبدا ، فقـد تخيّـل هتلـر - كـي يبعـد الولايات المتحدة إلى أقصى زمن ممكن ، عن النزاع الأوروبي - أن يجعل من اليابـانيين " آريـي شـرف " كي يحقق بعد ذلك محور برلين - روما - طوكيو .

يعتقد هانتجتون في إطار ما يسميه " بالحرب الحضارية " أن الحرب الثالثة إذا ما انفجرت ، سـتكون مـن نوع جديد،

إذ لن تكون نتيجة تنافس الأوروبيين ، فيما بينهم ، بل مجابهة بين حضارتين : حضارة المركز (الغـرب) وحضارة المحيط (بلدان الاستعمار القديم) .

كما يعطي لهذين الطرفين مفهوما دينيا : وهو الصدام بين حضارة " يهودية مـسيحية " وبـين حـضارة " إسلامية كونفوشية " . ولئن طرحت المشكلة بشكل سيئ ، إلا أنها مـشكلة حقيقيـة : فبعـد انهيـار الاتحـاد السوفيتي ، واستبدال " الشيطان السوفيتي " ، " بالشيطان الإسلامي " " وحلفائه المحتملين ممـن نطلـق علـيهم اسم العالم الثالث ، ثم تدمير العراق " كي يكون مثالا للآخرين " ، نتسائل هل ستحقق الولايات المتحدة حلمهـا في بسط نظامها الخادع " للسوق الحرة " على العالم كله ؟ وبمعنى ما - وهو ما شرحته فـي كتـابي " نحـو حرب دينية " - سيكون تصادما حضاريا : إن وحدانية السوق ستضطر أن تحطم كل أولئـك الـذين يريـدون

الاحتفاظ بنظام آخر من القيم ، غير القيم التجارية ، والذين يدافعون عن هويتهم ، وبالإضافة إلى ذلك عن معنى الحياة .

إن النقطة الحساسة في حدود الامبراطورية الأميريكية " وهي ما كانت تسمى في زمن الإمبراطورية الرومانية قبل أن يمحوها البرابرة " بعتبات الإمبراطورية " ، هي " الخليج العربي" لأنه محاط بأحواض البترول الأغزر في العالم ، وسيبقى لعشرات السنين " عصب التنمية الغربية ". فوق هذه العتبات ، تحقق لوحدانية السوق أحدث نصر ، إذ جرى تدمير العراق ، عبر حرب خاضتها الولايات المتحدة بتأثير جماعتي ضغط في الولايات المتحدة دفعتاها لفتح نار المعركة ، وقد حددهما ألين بيريفيت في جريدة الفيفارو / عدد ٥ تشرين الأول ١٩٩٠ / بأنهما :

١ ـ اللوبي اليهودي . ٢ ـ لوبي رجال الأعمال .

وفوق هذه النقطة الحساسة من حدود الامبراطورية الجديدة لا تتوقف إسرائيل عن لعب الدور الذي رسمه لها مؤسسها الروحي تيدور هرتزل ، وهو أن تكون " حصنا متقدما " .

للحضارة الغربية ضد " بربرية الشرق " .

أما البرنامج الأكثر دقة لدور إسرائيل فقد ظهر جليا في شباط ١٩٨٢ " أي قبل غزو لبنان بقليل " ، في مجلة كيفونيم التي تصدرها المنظمة الصهيونية العالمية : وهو تفتيت كل الدول المجاورة من النيل حتى الفرات ، وهي الطريقة الأفضل التي تستجيب لأطماع الهيمنة العالمية للولايات المتحدة ، في الموضع الأكبر حساسية على حدود امبراطوريتها .

كما فرضت على الشعب العراقي إجراءات حرمان مميت ، من خلال الحظر الذي يستمر في القضاء على الأطفال في محاولة لسرقة حتى مستقبل هذا البلد. واليوم يرصد هدف جديد ، ربما كان أكثر أهمية من الهدف السابق : إيران ، التي لم يستطع العراق أن يهزمها ، رغم الدعم المالي السخي ، والسلاح الوفير ، اللذين قدمتهما الولايات المتحدة وأتباعها .

لقد جرى تحديد الهدف الجديد في مؤتمر شرم الشيخ عام ١٩٩٦ ، وكانت الحكومة الإسرائيلية هي التي حددت الهدف : " محاربة الإرهاب " و " التدخل الإنساني " . هذان هما الإدعاءان الجديدان المتكاملان للإستعمار الجديد . وحدد شمعون بيريز ، ودون أن يمتلك أدنى دليل ، إيران بأنها " مركز الإرهاب " الدولي.

ومن المتفق عليه أن كلمة الإرهاب ، تشمل كل أشكال مقاومة الشعوب دفاعا عن استقلالها ، مع استبعاد كل أشكال الإرهاب التي تمارسها الولايات المتحدة التي تهدد استقلال هذه الشعوب . وعلى سبيل المثال ، يزعمون أن مقتل جندي إسرائيلي في الجزء المحتل من جنوب لبنان ، بمعنى أن يُقتل محتل من قبل المقاوم، كما حدث في الماضي في فرنسا أيام الاحتلال النازي ، هو عمل إرهابي . أما مذبحة المدنيين في قانا ،

والقصف الإسرائيلي الذي وصل حدود مدينة بيروت فهو " دفاع مشروع " ، تماما كما هو " مشروع " تصفية النازيين لأربعين من رجال المقاومة في شاتوبريان انتقاما لمقتل ضابط ألماني في باريس .

وعندما سقطت طائرة أمريكية فوق أولمبياد أتلانتا ، وقبل إجراء أي تحقيق ، وجهت أصابع الاتهـام إلـى إيران . ورغم ضغط وكالة المخابرات المركزية ، على وسائل الاعلام ، لم يثبت من خلال المعاينة الميدانيـة أي دليل على صدق هذا الادعاء .

من السهولة بمكان أن نورد العديد من الأمثلة لاختلاق المزاعم المتصلة " بالمعركة ضد الإرهـاب " أو " التدخل الانساني " و " الدفاع عن حقوق الإنسان " ، لتبرير الاعتداءات المباشرة على الدول المتهمة ، ووضـع العراقيل في وجه التعامل التجاري معها . لقد تذرعوا بـ " تيان آن مين " لكبح نمو العلاقات الاقتصادية مـع الصين ، ولكن مقتل ألفي لبناني مدني في مذبحة قادها آريل شارون عام ١٩٨٢ ، لم تكـن كافيـة للحـد مـن الدعم الأمريكي لإسرائيل بالسلاح والمال ، باعتبارها رأس حربة لوضع اليد على كل بترول الشرق الأوسط.

وإنه لأمر ذو مغزى أن الحاخامات الأكبر تطرفا والأكثر شوفينية إنما تلقاهم فـي الولايـات المتحـدة ، حيث تعيش الجماعة اليهودية الأكثر أهمية في العالم ، بل إنها أكثر أهمية حتى من المجتمع الإسرائيلي نفـسه . أما المحاربون القوميون الأكثر تعصبا فهم الحاخامات الذين تربوا في المـدارس التلموديـة التـي أسـسها الحزب القومي الديني برئاسة الحاخام الأمريكي " زفي يهودا كوك " (١٨٩١ ـ ١٩٨٢) والتي كانت مبادئهـا الرئيسية كما يلي :

" يتابع ا عمله للخلاص عبر المعجزة التالية : وضع كل هذه الأراضي تحت الـسيادة اليهوديـة . كـل الأرض التوراتية اليهودية مقدسة ، إنه تكليف إلهي : حماية الأرض وإلحاقها ، وبناء أكبر عـدد ممكـن مـن المستوطنات اليهودية فيها .. وكل تسوية إقليمية إنما تؤخر زمن الخلاص ".

أما المجموعة الثانية من الحاخامات الأمريكان والمعروفة باسم لوبافيتش والتي تـستوحي أفكارهـا مـن حاخام بروكلين العجوز ، اليعازر مزراحي ، ، فتعلم أتباعها بكل صراحة ، أنه يحرم على الـشعب اليهـودي أن يتخلى عن أصغر كسرة من أرض إسرائيل الكبرى إلى العرب ، وكذلك يحرم التفاوض معهم حـول هـذا الأمر .

تمثل إيران العقبة الرئيسية في هذا المشروع ، وخاصة أنها تقيم علاقات طبيعيـة مـع باكـستان والهنـد والصين وروسيا ، وحديثا مع تركيا ، التي تسير في طريق العودة إلى الإسلام . وتتابع إيران مـسيرتها علـى الرغم من التعليمات الأمريكية بفرض حصار عليها .

وتشكل إيران مركزا محتملا لاعادة تجميع أجزاء كبيرة من الجزيرة الآسيوية الأوروبيـة فـي مواجهـة أطماع حلف الأطلسي . ويمكن في ضوء هذه الحقيقة ، تفسير الجهود التي تبـذل فـي إطـار الاسـتراتيجية الامريكية تجاه العالم ، لتأمين كل الامكانيات لتطوير السلاح النووي الاسرائيلي ، رغم رفـض إسـرائيل لاي رقابة دولية على نشاطها النووي .

إن نقطة الضعف الاسرائيلية في هذه الامبراطورية ، هي فقدانها للـروح ، ونعنـي بـذلك فقـدانها لاي مشروع تعاوني من أجل مستقبل الإنسان إلا تنمية إنتاجها واستهلاكها من خلال تفوقها بالسلاح .

هذا هو السبب الذي اضطر معه هانتجتون لان يقنع حقيقة أفكاره بتعارض مزعوم بين الحضارة اليهويـة ـ المسيحية و " التواطؤ الاسلامي ـ الكونفوشيوسي " (وهو الوريث لأقدم الحضارات في العالم مـن نجلـة إلى سورية إلى الصين) . وقد اعتبر المؤرخ توينبي أن النطاقين السوري والآسيوي المركزي همـا مركـز الحضارة ، فقال : " في سورية ، أخذت المسيحية شكلها الذي انتشرت من خلاله في العـالم الهلنـستي كلـه ، وفيما بين النهرين ، تشكلت النسطورية ، ومذهب الطبيعة الواحدة ، وفي الحجاز ، جنـوب سـورية ، ظهـر الإسلام في مكة ، وفي الحدود الشرقية لشمال الجزيرة العربية ، ولد المذهب الشيعي " .

إنه تحديد غريب للقطبية في العلاقات الدولية ، باسم " العولمة " الاستعمارية للاقتصاد ، ضـد الهويـات الثقافية أو الدينية ، لكل الحضارات الأخرى .

وينشأ عن هذا الأمر ، بغية مقاومة هذا التوحيد للشكل بلا روح ، ضرورة قيام اتحاد أوروبي ـ آسـيوي مع أمريكا التي سماها مستعمروها القدماء باللاتينية ، بغية إفشال محاولات الولايات المتحـدة للقـضاء علـى بذور المقاومة سواء في الميادين العسكرية والاقتصادية ، أو الدينية والثقافية ، والتي يمكن أن تنمو فـي كـل القارات . إن محاولتها تفتيت مراكز المقاومة التي لا تقهر ، تظهر الآن جلية في الكرة الأرضية كلها . كمـا تشجع في نفس الوقت الصراعات الاقليمية ، فتحرض كوريا الجنوبية ضد كوريا الـشمالية ، وتـايوان ضـد الصين ، والهند ضد الباكستان ، وكذلك البوسنة ضد الصرب، لتبرير تدخلها العسكري على ما كـان يعـرف بالحدود بين الإمبراطوريتين العثمانية والنمساوية . وفي أمريكا اللاتينية تغذى الخلافات بـين كوبـا والبلـدان الأخرى في أمريكا الجنوبية ، أو بدقة أكثر من واجهة المحيط الهادئ " تشيلي " إلى واجهـة الأطلـسي لـشبه القارة الأمريكية الجنوبية .

وتعتبر " خطة السلام " المزعومة في فلسطين النموذج الأكثر تعبيرا عن المناورات الأمريكيـة ، فهـذه الخطة لا تقدم للفلسطينيين إلا غبار ما كان يتمتع به المواطنون السود في التنظيمات الإدراية ، في ظـل نظـام التمييز العنصري في اتحاد جنوب أفريقيا " البانتوستان " ويمثل أقل من ٦ % من الأرض الفلـسطينية محاطـا بطرق تصل المستعمرات الاسرائيلية بحماية الجيش الاسرائيلي . وقد شارك حزب العمل في هـذا التفتيـت ، الذي اخترعه بيغن تحت اسم الحكم الذاتي ، والذي تابع خلفاؤه من الليكود ، الذين تـسلموا الـسلطة اليـوم ، تنفيذه بسعي حثيث . إن هدف الحزبين ، إلحاق فلسطين عن طريق زرع نصف مليـون يهـودي مـستوطن ، والاستيلاء على الأرض والماء .

وقد بدا هذا التحدي مجزيا للمعتدين ، لانه لم ينجح في تقسيم الفلسطينيين فحسب ، بل أيـضا فـي انقـسام العالم العربي بكاملة ، حول الموقف الواجب اتخاذه حيال هذه المناورات التقسيمية الكبرى .

ويعبر التناقض الرئيسي في العالم المعاصر ، عن نفسه بمنتهى الجلاء في خلق الانقسامات إلى أقصى حد. والخبث الاكبر فيما يسمى الدفاع عن " الديمقراطية " وعن حقوق الإنسان ، يمكن اكتشافه في حالة الجزائر الآن : فالتناقض كان واضحا جدا ، إذ اتخذ النظام " الديمقراطي الحر" اتجاها متناقضا تماما مع كل مبادئ هذا النظام ، فقد قبل بوقف العملية الانتخابية " الحرة " وساند الانقلاب العسكري بهدف مقاومة أصولية جبهة الانقاذ الإسلامية .

وهناك ، وكما يجري في فلسطين ، كانت المشكلة الدينية هي التي دفعت لتحتل المرتبة الاولى . ويتطلب الامر النضال ضد الحملة العالمية التي تشن باسم ديانة لا يجرؤ أحد على تسميتها : وحدانية السوق ، والتي تصطدم عندما يتطلب الامر، مع ديانات محددة ، مثل إسلام أورو - آسيا وأفريقيا ، أو مثل الحركات الاهوتية التحريرية في أمريكا.

لو أن الإسلام ، بدل أن يتمترس خلف ماضيه ، استعاد المفهوم القرآني حول وحدانية الاديان ، منذ أن نفخ ا روحه في آدم ، مع " شريعة " تشكل قاسما مشتركا لكل أشكال الايمان والحكمة ، على مستوى العالم كله ، وبكلمة أخرى ، لو جمع بين أصالة القرآن في فقه التحرير ، مع أصالة رسالة يسوع ، بعد قرون من لاهوتيات الهيمنة ، لاطمأنت هذه الجبهة العالمية إلى انتصارها على عالم بلا روح تسوده وحدانية السوق . هذا هو مدى اتساع الدراما التي تلعب على مستوى الكوكب الارضي ، في كل المستويات : الثقافة والايمان، وكذلك السياسة والاقتصاد .

وقد ظهرت محاولات لحشد الناس : ففي عام ١٩٩١ ، عقد في الخرطوم مؤتمر شعبي اسلامي عربي ، بناء على دعوة من السودان وإيران .

إشارة أخرى كاشفة : ففي مؤتمر سيتل ، عام ١٩٩٥ ، حيث أملت الولايات المتحدة أوامرها بقبول أهدافها في " سوق عالمية " ، انسحب القادة الآسيويون الرئيسيون بسبعة المطالب الأمريكية ، حتى ان رئيس وزراء ماليزيا وهي احدى الدول المؤسسة لمنظمة " آسيان " ، قد رفض أن يتابع أعمال المؤتمر تعبيرا عن احتجاجه على سياسة التدخل الامريكي . أما كلينتون الذي عبر عن خيبة أمله من الموقف الاوروبي ، فقد أبدى رغبة في أن يتوجه بأنظاره نحو المحيط الهادي .

في عام ١٩٨٢ ، بنت الصين مركزا للأبحاث النووية في أصفهان ، في محاولة لوضع عقبة في وجه حرب وقائية ضد إيران ، على غرار تدمير اسرائيل ، في ظل سلام تام ، مفاعل تموز النووي في العراق ، في الوقت الذي كانت تبني هي سرا ، ترسانتها النووية ، إلى أن كشفت اعترافات الفيزيائي الاسرائيلي ، مردخاي فعنونو ، في جريدة لندن صاندي تايمز ، في ٥ تشرين الاول عام ١٩٨٦ ، عن خطورة هذه الترسانة القادرة على محو كل المدن وصولا إلى السد العالي في مصر .

وتضم المجموعة النووية الاسرائيلية ، إضافة إلى مفاعل بلوتونيوم في ديدمونة ، مركز البرمجة النووية في مورك " حيث يوجد فيه مفاعل أمريكي تجريبي " ، وحقل اختبار صواريخ بالميكي ، ومعمل تجميع في يوديفات وقواعد تحزين الاسلحة النووية التكتيكية في كفار وزاخريا ، وايلابون .

وما زال فعنونو، منذ ذلك الحين ، في السجون الاسرائيلية ، بينما تستنكر الحكومة التجارب النووية في الصين ، والهند ، وباكستان ، وكازاخستان التي ورثت جزءا من السلاح النووي السوفيتي .

ويكشف التحالف الحالي ، بين الليكود والاصوليين الدينيين ، في أعقاب انتخابات ١٩٩٦ ، بشكل أكثر وضوحا من أي وقت مضى ، الدور الذي تحضر اسرائيل نفسها له وهو تفجير حرب عالمية جديدة .

وربما تكون الصدمة أكثر وحشية لا سيما وان روسيا ، التي تختزن كمية ضخمة من الأسلحة النووية ، قد تحولت إثر تفككها إلى دولة شبيهة تماما باسرائيل : أي جيش يمتلك دولة ، لا دولة تمتلك جيشا .

وفي إطار الفوضى وتفكك الدولة ، اللتين حققهما يلتسين بمساعدة الولايات المتحدة ، لا نستطيع أن نتصور إطلاقا مخرجا آخر للتخاص من الاهانات ومن أشكال التمزق التي تعاني منها البلاد منذ " استعادة الرأسمالية " ، إلا الدكتاتورية العسكرية القومية .

ونتصور أنه امر سيئ وجود جيش بلا دولة ، في خدمة بلد توقف عن الوجود بسبب غياب المشروع الجماعي . ولن تستطيع هذه الديكتاتورية العسكرية التي لن تكون نتاج حركة تاريخية ، وإنما انطلاقا من منطق جبري لعلاقات القوى في العالم ، أن تواجه منظورا آخر غير التحالف مع ألمانيا وآسيا المركزية ، بهدف مقاومة التبعية لواشنطن وإسرائيل ، المتمثلة باحتواء السوق الروسية ضمن النظام العالمي الجديد في صيغته الإنحطاطية والمافيوية . ويتوجب على هذا البلد أن يختار بين هذين العالمين ، ولن يعدم التشيع التاريخي للمسيحية الأرثوذكسية ، والقومية الروسية ، من الحصول على الوسائل الازمة لتوجيه هذا الاختيار.

ولم تعد أوروبا حليفا دائما ومؤكدا للولايات المتحدة ، ليس فقط لأن معاهدة ماستريخ جعلت من أوروبا ملحقا تابعا لحلف الأطلسي ، مبدية هذه الايام شرورها الاقتصادية والثقافية ، وإنما لأن انقسام أوروبا على نفسها يظهر أكثر فأكثر .

ويشهد على ذلك حادثان حاليان :

ـ بينما قبلت بريطانيا وفرنسا أن تجعلا من جيشيهما ملحقين بالجيش الأمريكي في العراق ، فقد عارض ٨٠ % من الشعب الألماني التدخل العسكري في هذا البلد .

ـ وفي يوغسلافيا كان الألمان الواجهة للتحالف مع الكروات بينما لم يتخذ البريطانيون والفرنسيون مواقع معارضة للصرب إلا بضغط جرماني ـ أمريكي .

وفي اللحظة التي تحول فيها الأمريكيون من دائن إلى مدين رئيسي ، حيث أصبحت استثماراتهم ، الأقل في العالم الصناعي ، على الرغم من قوتهم التي تأتي من تقنية ضغط الزر ، ومن جيشهم الذي لا يحركه أي

مشروع إنساني ، ولا يحلم ، شأنه شأن البنتاغون ، إلا بحروب يكون فيها الهلاك " حتى الصفر " . وتظهر هذه البلاد التي يريد قادتها أن يصبحوا سادة العالم ، كجبار بقدمين من صلصال ، بسبب هشاشته الاقتصادية المموهة لبعض الزمن ، بالمضاربات المالية التي حولت المصارف إلى كازينوهات ، وحيث تضاعفت إفلاساتها ، بعد إفلاسات صناديق التوفير. لهذا السبب ، تراهن الولايات المتحدة ، ولو لزمن ، على سياسة التسليح ، لمواجهة صعود عمالقة آخرين . ليس فقط بالتسليح المبالغ فيه لمرتزقتهم الرئيسيين في الشرق الأوسط : إسرائيل ، ولكن أيضا لتأخير بزوغ الصين . ومثلما تبحث إنكلترا عن المراوغة في إعادة هونغ كونغ إلى الصين ، تقوم الولايات المتحدة بتسليم طائرات إلى تايوان بقيمة ٥ ، ٤ مليار دولار ، في الوقت الذي باعتها فرنسا فيه، ستين طائرة ميراج . كل ذلك يحدث لمنع الصين من التوحد مجددا ، الصين التي ستصبح بسوقها الداخلية لمليار و ٢٠٠ مليون إنسان ، ومصادرها الطبيعية الكبرى ، واليد العاملة وقد دخلت الولايات المتحدة ، في مرحلة " قصور حراري " من تاريخها ، أي مرحلة من التفكك الداخلي بسبب النمو البائس لأمريكا الأخرى ، النمو البائس لثلاثة وثلاثين مليون مواطن يعيشون تحت عتبة الفقر ، ومن التفتت الاجتماعي بسبب التمييز العنصري الممتد عبر القرون ، وبشكل خاص ضد السود ، والذي تشهد عليه فتن لوس أنجلوس الاحتجاجي لمليون أسود في واشنطن والذي قاده الزعيم الأسود فرحان ، وكذلك الانحلال الاجتماعي بسبب المخدرات والفساد، والمضاربات الطفيلية . مرة أخرى نقول ، لقد استطاع النظام " المركز " الذي يسعى عبر القوة التقنية الفريدة لأسلحته ، أن يجعل من سيادة دول " المحيط " سيادة محدودة ، وأن يحتكر لنفسه " حق التدخل " مموها ذلك ، عند الامكان، بأنه تدخل إنساني تحت غطاء مؤسسات يفتعلها مثل الأمم المتحدة ، وصندوق النقد الدولي ، والبنك الدولي .

الهوامش

يحفل الكتاب بحشد كبير من الأسماء والأعلام ، لذلك آثرت اثباتها في نهاية كل فصل . أما الهوامش التي وردت في النص الأصلي للكتاب ، فقد أشرت إليها بكلمة غارودي .

١ ـ نحكم هنا على الوحشية النازية في أوروبا ، ولكن أحداث سطيف (الجزائر) عام ١٩٤٥ ، وهايفونج عام ١٩٤٦ ومدغشقر عام ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨ ، والدار البيضاء عام ١٩٤٧ ، وساحل العاج عام ١٩٥٠ ، تدل أن المجازر وأعمال التنكيل التي ارتكبتها جيوش الجمهورية الفرنسية لم تتوقف (غارودي) .

٢ ـ لقد نشرت النص العبري الأصلي ، وترجمته إلى الفرنسية في كتابي " فلسطين أرض الرسالات المقدسة " (المنشور عام ١٩٨٦ ـ غارودي) .

٣ ـ " آسيان ASIAN " منظمة دول جنوب شرق آسيا . هدف المنظمة إنشاء سوق مشتركة بين ماليزيا، وأندونيسيا ، وتايلاند ، وسنغافورة ، وبروناي ، والفليبين .وكرد فعل أمريكي ، شبيه بتأثر الماء على النار ، قامت الولايات المتحدة ، بإنشاء منظمة ، تضمها واستراليا ، ونيوزيلانده ، باسم " الاتحاد الاقتصادي للآسيا في المحيط الهادئ (APEC ـ غارودي) .

الفصل الثاني

وحدانية السوق

تنبع كل دواعي هذا الانحطاط من منطق " اقتصاد السوق " الـذي أصـبحت نـسخته الاخيـرة الديانـة المسيطرة ، ديانة لا تستطيع أن تعلن عن اسمها الحقيقي : " وحدانية السوق " .

عاصر السوق ، كمكان للتبادل ، كل المجتمعات التي طبقت مبدأ تقسيم العمل ، فمنذ ما قبـل التـاريخ ، تشهد المشاغل ، ومنتجات الصوان المنحوت ، أنها لم تكن موجهة للاستخدام الشخـصي ، وإنمـا لمقايـضة لاحتياجات أخرى في الحياة . ثم تكون سوق القرية التقليدي ، حيث كان يحمل إليه البيض والـدجاج والخـضار لبيعها مبادلة مع بضائع أخرى تنتجها الأداة أو المهارة أو لدفع أجور خدمات البيطار أو الحلاق .

وهناك اختلاق أساسي بين أشكال السوق المتعاقبة ، وهو وجود الوسيط ، أي النقـد الـذي اسـتخدم فـي الأصل كأداة قياس ، تقاس بها وفق قاسم مشترك ، منتجات الأعمال المختلفة كمـا ونوعـا . لكـن الـسوق ، وتبنى على تراتبية اجتماعية، وقيم أخلاقية ظاهرة أو مضمرة، وديانات نـشأت خارجـه ، ولـم تبحـث عـن مبرراتها فيه .

ولم يتحول السوق إلى " ديانة " إلا عندما أصبح المنظم الوحيد للعلاقات الاجتماعية والشخصية والقوميـة، والمصدر الوحيد للسلطة والمراتب الاجتماعية . ولا يعنينا هنا أن نؤرخ لهذا التحول ، الذي أصبحت فيه كـل القيم الإنسانية قيما تجارية ، بما فيها الفكر والفنون والضمائر .

وسنكتفي بالإشارة إلى النتائج الاقتصادية والسياسية والروحية للصورة الاخيرة لهذا القـرن ، ولإعطـاء نظرة إجمالية لبعض الميادين ، كي نحرر أنفسنا من النظرة " التخفيفيـة " لخطـورة هـذه النتـائج ، ولهـذا " القصور الحراري " الإنساني الذي يراه بعض منظري البنتاغون وأتباعهم في العالم ، بحـسب عنـوان كتـاب فوكوياما : " نهاية التاريخ " .

وسوف يقود الأمر ، إذا ما وصل هذا الانحدار منتهاه إلى نهاية الإنسان مما يتصف بـه أساسـا : سـمو المقصد مقابل التخلي عن الحتمية الاقتصادية التي يعتبرونها قوانين طبيعية ، تماما مثـل الغرائـز الفطريـة الحيوانية التي تسود البحار وحدها ، حيث يتغذى السمك الكبير بالتهام الأسـماك الـصغيرة ، أو التـي تـسود الأرض من خلال الفوضى البيولوجية لمليارات النطف أو الحيوانات المنوية ، لتكوين جنين بالصدفة .

وما تتصف به " وحدانية السوق " في الواقع ، هذه الليبرالية الشمولية ، هـو إحتقـار حريـة الإنـسان ، وابتزازه بالتالي عن بعده الذي يتميز به وهو : أنه ليس نتاجا لقوانين الطبيعة ، بل العكـس ، إنـه قـادر علـى تكوين مشاريع ليست امتدادا بسيطا للماضي ، ولا نتيجة لغرائزه الحيوانية ، أو مصلحته الفرديـة . لقـد بـالغ آدم سميث في هذا العزل للإنسان فكتب يقول :

" إن الخطوط الكبرى لعالم الاقتصاد الحقيقي ، قد رسمت لا وفق خطة شاملة برزت من عقل منظم ، ثـم نفذت اختيارا من قبل مجتمع ذكي ، إنما من خلال تراكم عقود لا حصر لها ، رسمها حشد من الأفراد أذعنوا لقوة غريزية ، دون وعي بالهدف الذي سيصلون إليه . " من كتاب أبحاث في الطبيعة وأسباب غنـى الأمـم " (١) .

من آدم سميث حتى فريدريك فون هايك مرورا بباستيا وفريدمان ، تكرر رفض مفهوم القصدية (٢) .

وقد كتب ميلتون فريدمان في كتابه " حرية الاختيار " ١٩٨١ يقول :

" إن التنسيق بين نشاطات ملايين البشر ، الذي لا يعرف أي منهم إلا مصلحته الشخـصية ، قـد حـسن ، أوضاعهم جميعا. ويقوم الأسعار بسد هذه الثغرة بغياب أي توجيه مركزي ، ودون الحاجة لأن يتحدث النـاس في هذا الأمر أو يحبوه . إن النظام الاقتصادي هو انبثاق ، أي أنه ليس نتيجة مقصودة أو مطلوبـة مـن قبـل عدد كبير من الأشخاص تحركهم مصالحهم الشخصية وحدها . ويقوم نظام الأسعار بوظيفتـه بـشكل جيـد ، وبكثير من الفاعلية ،بحيث أننا لا نكون واعين ، وفي القسم الأعظم من الوقت ، أنه يقوم بدوره " .

ويضيف فون هايك في كتابه " الفردية والنظام الاقتصادي " :

" ليس أمام المرء في مجتمع معقد من اختيار آخر إلا أن يكيف نفسه لما يبـدو لـه أنهـا قـوى عميـاء للصيرورة الاجتماعية " .

أصبح ممكنا اليوم أن نسترجع مسار النمط الغربي للتنمية ، منذ أن وقع الخطأ القاتل في توجه مـا سـمي النهضة، أي نمو حضارة الكم والتفكير الذرائعي ، والديكارتية ، وديانة الثروة ، بعد أن فـصلت عـن البعـد الأول للعقل وهو التأمل في الغايات النهائية للحياة ومعناها .

وكتب ميشيل البرت في كتابه " الرأسمالية ضد الرأسمالية " ١٩٩١ .

إن الأمر المطلق " أو الفعل الضروري بذاته " ، هو إفراغ المسألة الفلسفية من القصدية " الغائية " . هـذه هي في النهاية ، الغاية الأخيرة من وحدانية السوق . إنها " ربطنا " بالحياة الأكثر زيفا ، التي صـوروها منـذ أول فيلم أمريكي يبدأ بصيد الهنود مع " سفاحي الغرب الأمريكي " ، ومع غاب المال ، مع مسلـسل " دالاس "، مرورا بكل أشكال العنف والهمجية ، مع باتمان " الرجل الوطواط " ، مرورا الترميناتور الماحق ، وانتهـاء برموز ارتدادنا إلى عالم الديناصورات.

ولن نورد هنا إلا ما يشكل في يومنا هذا ، المدماكين الأكثر صلابة لتوسع السوق : المخدارت والسلاح.

يبلغ حجم التعامل بالمخدرات في الولايات المتحدة اليوم ، من الضخامة ما يعادل أرقـام التعامـل فـي صناعة السيارات ، أو صناعة الفولاذ . ويزداد استهلاك المخدرات طردا ، مع فقدان الحياة لمعناهـا ، نتيجـة للبطالة والتسريح ، أو أمور أخرى . إن الغاية النهائية للحياة هي الاستهلاك الذي يخلـق ازدهـار " الـسوبر ماركت " . وإنه لأمر ذو دلالة أن الرقم القياسي لانتحار اليافعين ، سجلته الـدول الأكثـر غنـى : الولايـات

المتحدة ، والسويد . في الجنوب ، يموت الناس بسبب نقص وسائل العيش ، أما في الشمال فيموتـون لانعـدام غايات الحياة .

ويعتبر الاستهلاك المتزايد للمخدرات ، أحد النتائج الطبيعية لوحدانية السوق : أولا ، بـسبب إنتاجهـا . إن الربح الذي تدره نبتة الكوكا التي يستخرج منها الكوكاين ، على الفلاح البوليفي ، أكبر بعشر مرات من ربـح نبتة الكاكاو أو البن ، وهي وحدها القادرة على السماح له بالحياة . كما أن الدولـة ، ملزمـة بتـسديد ديونهـا لصندوق النقد الدولي . ونتيجة لاستهلاك المخدرات ، تعاني الولايات المتحدة مـن ثلاثـة ملايـين مـصاب بالتسمم المزمن ، أما الذين يتعاطون المخدرات فيقدر عددهم بعشرين مليون أمريكـي . أمـا فـي فرنـسا ، واستنادا إلى تقديرات مؤسسة سوفر فقد تناول فرنسي واحد من أصل خمسة تتراوح أعمارهم بـين ١٢ ـ ١٤ عاما "يعيش أو مازال يتناوله " أصبحت المخدرات بخور " الكنيـسة الجديـدة " ، نعنـي وحدانيـة الـسوق . ويعطينا الاتحاد السوفيتي معنى كبيرا ، فمنذ العودة إلى الرأسمالية ، انفجر إنتـاج واسـتهلاك المخـدرات ، وتضاعفت مساحة الأراضي المزروعة بالخشخاش في أوزبكستان خلال عـامين فقـط (١٩٩١ ـ ١٩٩٣) . أما أفغانستان ، فقد أصبحت منذ عام ١٩٩٣ البلد الأول المنتج للأفيون ، فقد تضاعف إنتاجها ثلاث مرات .

أما في ميدان السلاح ، فقد استمرت صناعته الأكثر ازدهارا في الولايات المتحدة ، وجعل منهـا القـوة الأولى في العالم ، منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى . وقد حملت الحرب العالمية الثانية ، والتـي أصـبحت الولايات المتحدة بفضلها تملك نصف ثروة العالم ، حلا نهائيا للازمة الاقتصادية فيها ، والتـي بـدأت عـام ١٩٢٩ . كما أدت الحرب الكورية إلى ازدهار اقتصادي جديد . أما مجزرة العراق ، فقد أدت بما رافقها مـن انتشار من خلال النقل الحي عبر القنوات الفضائية ، إلى صقل سمعة الأسلحة الأمريكية حيـث ارتفـع الخـط البياني للإنتاج بعد انتهاء الحرب بشكل سهمي.

وهناك نتيجة طبيعية أخرى لوحدانية السوق : الفساد .

حدد آلن كوتا منطق هذا النظام : " إن تصاعد وتائر الفساد أمر لا يمكن تجنبه نتيجة انطـلاق النـشاطات المالية والسمسرة . وبقدر ما تتيح لنا المعلومات عن العمليات المالية من مختلف الأنـواع ، علـى الأخـص عمليات الدمج ، والشراء ، والمكتب العام للمشتريات ، التي تسمح بتكـوين ثـروات ببـضع دقـائق ، مـن المستحيل تكوينها من خلال عمل كثيف يستمر حياة كاملة ، فان إغراء البيع والشراء يـصبح أمـرا لا يمكـن مقاومته " .

ويضيف : " إن الاقتصاد التجاري سيلقى دعما دائما من هذه السوق الأساسـية .. ويلعـب الفـساد دورا شبيها بالخطة " .

وليس هناك كلام أفضل من هذه العبارات : في نظام يباع كل شيء فيه ويشترى ، يتوقـف الفـساد ، بـل وحتى الدعارة ، عن كونهما انحرافات فردية ، ليصبحا قانونين بنيويين في صلب هذا النظام (٤) .

والعهر السياسي هو المثال الأكثر فضحا . فالبعض أيد حرب الخليج من أجل حفنـة مـن الـدولارات . والبعض برر نزول عشرات الألوف من الجنود الأمريكان إلى أرض مقدسة ومحرمة على كل الكفار ، ودفع نفقاتهم ، أما يلتسين فقد باع بلاده رخيصة ، بعد أن نام على أبواب صندوق النقد الدولي ، الذي أرسـل إليـه سوروس الشهير ليكون حاميه الكفؤ.

هذه هي الظواهر التي تحدد انحطاط النظام ، حيث تدر المضاربات أكثر بكثير مما يدره الاسـتثمار فـي ميدان الإنتاج أو الخدمات .

وتحمل كلمة المضاربة معنى محددا كالذي سجله معجم روبرت في التعريف التالي : المـضاربة عمليـة مالية تتضمن الاستفادة من تقلبات السوق " حركة القيم والبضائع " من أجل تحقيق منفعة .

وقد لاحظ آلياس الحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد أن التدفق المالي يرتفع في المتوسط إلى ألف ومئـة مليار دولار في اليوم ، أي أربعين مرة أكبر من التدفق المتصل بالقواعد التجارية . إن نظاما كهذا لا يمكـن الدفاع عنه " آلياس : الغرب على حافة الهاوية - مقابلة في جريدة الليبراسيون في ٢ آب ١٩٩٣ " .

تشير هذه الحقائق أن النظام القائم لوحدانية السوق يحقق للمرء ربحا ، فيما لو دخـل ميـدان المـضاربة بالمواد الأولية ، أي أوراق النقد ، أو ما يدعوه الاقتصاديون " المنتجات المشتقة " ، وهي كل مالا يؤخـذ فـي الحسبان ، عند تعداد المنتجات أو الخدمات ، أكبر أربعين مرة مما لو عمل في ميداني الإنتاج أو الخدمات .

الهوامش

- آدم سميث (١٧٢٣ - ١٧٩٠) : فيلسوف واقتصادي انكليزي يعتبر مؤسس علم الاقتصاد الكلاسـكي ، اشتهر بكتابه " دراسة في طبيعة وأسباب ثروة الأمم " . يعتبر هذا الكتـاب المحاولـة الأولـى فـي تـاريخ الاقتصاد، الهادفة لفصل الاقتصاد السياسي عن العلوم المتصلة به ، السياسية والأخلاقية والدينيـة ، ويتـضمن تحليلا عن عملية الغنى الاقتصادي ، وتوزع هذا الغنى بين الأمم والأفراد .ويرى أن المصادر الأساسية لكـل الدخول هي الإيجار ، والأجور والأرباح . كما درس تطور الصناعة والتجـارة لـدى الأمـم الأوروبيـة ، وطبيعة رأس المال . والموضوع الرئيسي الذي صيغ باعتباره لرأس المال ، بغية إنتاج الثـروة وتزريعهـا ، يكون في غياب التدخل الحكومي ، وفي حرية التجارة .

ويرى سميث أنه بالإمكان تشجيع الإنتاج والتبادل ، وبالتالي تحسين مستوى المعيشة فقـط ، مـن خـلال النشاط الفعال لرجال التجارة والصناعة على أن يعملوا في ظل أقل ما يمكن من سيطرة الحكومة وتدخلها .

وقد شهدت هذه النظرية تعديلات هامة من قبل اقتصاديين متعددين ، على ضوء التطورات التي طـرأت منذ زمن سميث ، ولكن نظريته - مع ذلك - لعبت دورا كبيرا فـي رسـم الرأسـمالية . (موسـوعة فانـك رواجنل - المترجم) .

٢ - فون هايك : اقتصادي انكليزي من أصل سودي ولد عام ١٨٩٩ ، حائز علـى جـائزة نوبـل فـي العلوم الاقتصادية . درس الأزمات الدورية في الاقتصاد .

ـ ميلتون فريدمان : اقتصادي أمريكي ولد عام ١٩١٢ حائز على جائزة نوبل فـي الاقتـصاد . اشـتهر بدراسة مشكلات النقد .

ـ فريدريك باستيا (١٨٠١ ـ ١٨٥٠) : اقتصادي فرنسي دافع عن حرية العمل ، وحرية التبادل.

٣ ـ تشير دراسة أجرتها وزارة الصحة الأمريكية ، أن استخدام المهدئات عند المراهقين في سـن ١٢ ـ ١٧ عاما ، قد ازدادت ٧٨ % ، ما بين عامي ١٩٩٢ ـ ١٩٩٥ . وقد ارتفع استهلاك حبوب الهلوسـة ، مثـل حبوب ل . س . د ، إلى ١٨٣ % (٥٤ % ما بين عـامي ١٩٩٤ ـ ١٩٩٥) ، وارتفـع اسـتهلاك الكـوكايين إلى ١٦٦ % ، والماريجوانا إلى ١٠٥ % ٣٧ % ما بين عامي ١٩٩٤ ـ ١٩٩٥ .

واعترف ٤، ١٠ % من الشباب الأمريكي ، من نفس الشريحة العمرية ، أنهم تناولوا المخـدرات خـلال الشهر السابق على الاستطلاع الذي أجرته وزارة الصحة .

وتدل دراسة أخرى ، رسمية أيضا أن حالات الإسعاف التي سجلتها المستشفيات ، بسبب الإسـراف فـي تعاطي المخدرات ، قد ازدادت ٩٦ % في حالات تعاطي الكوكايين ـ غارودي) .

٤ ـ من الملاحظ أن عودة الرأسمالية إلى بلدان شرق أوروبا ، قد رافقها ارتفاع مجنـون فـي انتـشار البغاء . (غارودي) .

الولايات المتحدة طليعة الانحطاط

الفصل الثالث

لكي نفهم لماذا نعتبر انتشار طراز الحياة الأمريكية " واوهامها " ، أحد الأسباب الحقيقية لتفكك الأخـلاق وانحدار الفنون في يومنا هذا ، نجد من الضروري أن نضع هذه المشكلة ضمن منظور التـاريخ الأمريكـي ، لأن انحطاط الثقافة الذي يلعب دورا منظما في حياة المجتمع الأمريكي ، إنمـا ينحـدر مـن طبيعـة تـاريخ الولايات المتحدة .

لعبت الثقافة والايديولوجيات في أوروبا دوما ، دورا هاما في الحياة السياسية ، كما جـرى علـى سـبيل المثال ، في أوروبا المسيحية ، وفي عصر التنوير، وفي عصر الثورة الفرنـسية ، وفـي عقـود القوميـات ، والماركسية وثورة أكتوبر .

أما في أمريكا ، فخارجا عن الهنود ، السكان الأصليين الذين نظمت حـضارتهم علاقـاتهم الاجتماعيـة " قبائل الأنكا مثلا " ، والذين فقدوا ٨٠ % من عددهم بسبب التصفية العرقية ، ثم همش من بقـي مـنهم ، وزج في " محميات " ، فان كل السكان الذين يعيشون في الولايات المتحدة هم من المهاجرين .

ومهما كانت أصول هؤلاء المهاجرين ، وحضاراتهم الأولى ، فقد جاؤوا إلى أمريكا بحثـا عـن العمـل وكسب المال . وسواء كانوا ايرلنديين أو طليان ، أو عبيدا سودا غربوا عن مواطنهم الأصلية قـسرا ، سـواء كانوا مكسيكيين أو من بورتوريكو، فقد جاء كل منهم يحمل معه دينه وثقافته . ولأنه لم يكـن لـدى هـؤلاء المهاجرين والمهجرين ديانة أو ثقافة مشتركة ، فقد كانت الرابطة الوحيدة التي تجمعهم ، تشبه ما يـربط بـين أفراد فريق يعمل في مشروع مشترك.

أما الولايات المتحدة ، فهي تنظيم إنتاجي ، تضبط عمله ، نفس العقلية التكنولوجيـة والتجاريـة ، حيـث يشترك فيها المنتج والمستهلك ، في غاية واحدة هي النمو الكمي للرفاه . أما الهويـة الشخـصية ، الثقافيـة ، والروحية أو الدينية ، فهي مسألة خاصة ، وفردية بشكل حازم ، لا شأن لها في آلية عمل هـذا التنظـيم ، ولا تتدخل فيها .

ولا يستطيع الإيمان بمعنى الحياة ، أن يعيش في مثل هذه البنى الاجتماعية ، إلا لـدى الجماعـات التـي حافظت على هويتها وثقافتها القديمة ، أو لدى بعض الأفراد ممن تغمرهم روح البطولة . أما الغالبية العظمى من هذا المجتمع ، فقد مات ا عندها ، لأن الإنسان فيه ، قد بتر عن بعده الرباني ، وهو البحث عـن معنـى الحياة .

وهكذا أصبح المكان خاليا ليحل فيه تشرذم الطوائف ، والخرافات ، وتسرب المخدرات ، وسموم الـشاشة الصغيرة ، كل ذلك تحت غطاء طهرية رسمية ، ترضى بكل أنواع التمييز ، وتبرر كل المجازر .

إن أول مراقب نافذ البصر لواقع الولايات المتحدة كان توكفيل الذي كـشف عـام ١٨٤٠ فـي كتابـة " الديمقراطية في أمريكا " ، حتمية آلية بناء الدولة قائلا: " إنني لا أعرف شعبا يحتل فيه حب المال حيـزا كبيـرا

من قلوب الناس أكثر من هذا الشعب ، شعب يشكل تجمعا من المغامرين والمضاربين " . وما زلنـا اليـوم ، قادرين أن نجد في تاريخهم أسس انحطاط ثقافتهم .

فمن جهة العلاقة بالطبيعة ، لم تأخذ كلمة " الحدود " وعلى مدى قرن كامل ، نفـس المعنـى الجغرافـي الذي أخذته في أوروبا . كان الحيز المكاني بالنسبة لهم امتدادا مفتوحا ، وبقي كذلك حتى نهاية القـرن التاسـع عشر ، حيث بلغ التوسع مداه بالوصول إلى المحيط الهادئ . عندها فقط أعلن عن " ترسـيم الحـدود " . كـان هذا الفضاء الجغرافي مفتوحا لكل أنواع السلب ، وأشكال الإبادة : إبادة الغابات ، وحيـوان البيـزون " البقـر الأمريكي " ، وكذلك التنقيب المحموم في مناجم الذهب والفضة .

أما العلاقة مع البشر الآخرين فكانت ذات طبيعة خاصة : في البداية كان اصطياد الهنود للاستيلاء علـى أراضيهم ، دون أن يترك لهم خيار ، غير خيار التصفية العرقية أو التصفية في " المحميات " . وبعـد ذلـك ، ساد بين البيض أنفسهم قانون الغاب ، لاقتسام ثروات الهنود المسروقة ، وأراضـيهم ، أو الـذهب المـأمول استخراجه .

أما ما يتعلق بمعنى الحياة ، فقد تقلص إلى البعد الكمي للثـروة أو الأرض أو كنوزهـا . كانـت حيـاة " الوسترن " و " الغرب الأقصى " ـ ماعدا بعض الاستثناءات ـ تضفي لبوس العظمة على هـذه " الملحمـة " العنصرية ، وسيادة قانون الأقوى في الحرب التي شنها الجميع ضد الجميع . أما البيوريتانية المـسيحية ، فلـم تلعب أي دور في العلاقات الاجتماعية القائمة آنذاك إلا دور التبرير.

ويشكل العنف الأكثر دموية والذي يرعاه نفاق ديني ، سمي دائمة في تـاريخ الولايـات المتحـدة منـذ تأسيسها . وقد حمل البيوريتانيون الإنكليز الذين نزلوا أمريكا ، حملوا معهم الاعتقاد الأشد فتكـا فـي تـاريخ الإنسانية ، وهو الاعتقاد بفكرة " الشعب المختار " ، الـذي أعطـى الـشرعية لعمليـات استئـصال الـسكان الأصليين واغتصاب أراضيهم ، وكأنهم أمر إلهي ، اقتداءا بالنموذج التوراتي ، نموذج يشوع حيث أو كـل " رب الجنود " لشعبه مهمة ذبح السكان الأصليين في بلاد كنعان والاستيلاء على أراضيهم .

وتماما مثلما فعل الإسبان الذين وصفوا تصفية هنود جنوب القارة ، أنها عملية " تنصير " ، فقـد اسـتلهم البيوريتانيون الإنكليز سفر يشوع في مطاردتهم للهنود ، وسرقة أراضيهم ، وعمليات " الاستئصال المقدسـة "، على غرار ما ورد في التوراة .

كتب أحدهم يقول : " من الجلي أن ا دعى المستعمرين إلى الحرب ، حيث يركن الهنـود إلـى عـددهم وأسلحتهم ، يتربصون الفرص لارتكاب الشر، مثلما فعلت قبائل الأماليين ، والفلسطينيين الـذين تحـالفوا مـع آخرين ضد إسرائيل .. " من كتاب ترومان نيلسون : بيوريتانيو ماساشوستس " من مصر إلـى أرض الميعـاد ـ اليهودية " . وغالبا ما يصور " إعلان استقلال الولايات المتحدة " ، فـي ٤ تمـوز ١٧٧٦ ، أنـه تـصور مسبق لإعلان " حقوق الإنسان والمواطن " في فرنسا الذي صدر عام ١٧٨٩ . إلا أن إعلان الإستقلال هـذا ، هو في حقيقة الأمر ، مثال مذهل للنفاق الذي توحيه كلمة " الحرية " حسب المفهوم الأمريكي .

ينادي الإعلان في سطوره الأولى : " يولد كل الناس متساوين . وقد وهبهم الخـالق حقوقـا غيـر قابلـة للتنازل عنها : حق الحياة ، وحق الحرية ، وحق البحث عن السعادة ".

إلا أن " الحرية " الأمريكية تجلت بشكل آخر : الاحتفاظ بالرقيق الأسود قرنـا كـاملا بعـد الإعـلان . واحتاج الأمر حربا أهلية لتوضع عام ١٨٦٥ ، نهاية لما كانوا يسمونه حتى ذلك الحين " المؤسـسة الخاصـة "، أي بمعنى آخر " الرق " . ومنذ تحرير العبيد لم يترك لهم مكان في المجتمع ، ولم يكن يـسمح لهـم بـامتلاك واحدا فقط من الستين آربانت " قياس فرنسي " المسموح به للبيض .

بعد ذلك ، ولد إرهاب الجمعيات السرية ، مثل منظمة كوكلوكس كلان . أما قوانين الـسود فقـد أبعـدت العبيد القدامى عن الحياة السياسية ، كما أبعدهم التمييز العنصري عـن المجتمـع المـدني . وهكـذا ورغـم تضحيات مارتن لوثر كينج ، تستمر التفرقة العنصرية إلى يوما هذا . وتفوح رائحة النفاق اكثر عنـدما يتعلـق الأمر بالهنود . إنها المرة الأولى التي يظهر فيها بقوة ما سيصبح لاحقا المبـدأ المحـرك لكـل الاعتـداءات الأمريكية المستقبلية للولايات المتحدة في العالم : وهو أن العدوان والتصفية العرقية ، صـورا مـسبقا علـى أنهما ردود فعل دفاعية . وقد وصف إعلان الاستقلال الذي نادى بالحريـة والمـساواة ، وصـف الهنـود " بالمتوحشين الذي لا يعرفون الرحمة ، والمعروفين بحبهم لإشعال الحروب ، وارتكاب المجازر " .

من هذا المنطلق ، تحدث الإعلان عن مجتمعات السكان الأصليين ، كي يبرر مقدما المجازر واغتـصاب الأرض بحجة " الدفاع المشروع " . وهبط عدد السكان الهنود بحكم عمليات التصفية من عشرة ملايـين إلـى مئتي ألف فقط ، وكأن الأمر ، أن الهنود هم الذين غزوا أرض المستعمرين ، لا أن المهاجرين من أوروبـا ، هم الذين وفدوا ليغتصبوا أراضيهم ويدمروا حياتهم .

هكذا كانت السياسة الأمريكية الثابتة ، منذ ذلك الحين ، انطلاقا من " الخطيئـة الأولـى " بحـق الهنـود والأرقاء السود .

قال سيمون بوليفار ، أحد أبطال محاولات الاستقلال في أمريكا اللاتينية في أولسط القرن التاسـع عـشر : " يبدو أنه كتب على الولايات المتحدة أن تقوم بتعذيب وإذلال القارة باسم الحرية".

ويشهد توكفيل على بربرية المستعمرين تجاه الهنود الذين استخدموا أسلحة لا يمكن مقارنتها باي مقيـاس بأسلحة الغزاة . ووصف بسخرية لاذعة ، وإنسانية دامية انتصار " الحرية " ، تلك المسيرة المظفرة للحـضارة عبر الصحراء قائلا : " في قلب الصحراء ، وفي أواسط الشتاء ، حيث كان البرد قارسـا جـدا ، قـام ثلاثـة آلاف أو أربعة آلاف بمطاردة الأعراق البدوية من الوطنيين الذين كانوا يفرون أمامهم ، حـاملين مرضـاهم وجرحاهم ، وأطفالا ولدوا حديثا ، وشيوخا على حافة الموت " ، وتابع يقول : إن المشهد كان مثيرا ولـم تمـح من ذاكرته أبدا .

هكذا بدأ تاريخ " الشمال " في " العالم الجديد " ، كما صوره نعوم شومسكي في كتابه " ايديولوجيا واقتصاد " . وفي عام ١٧٥٤ ، وصف بنيامين فرانكلين ، الناطق الرسمي البارز باسم التنوير، وصف " أب الأمة " بأنه الرجل الذي يطرد السكان الأصليين كي يفسح المكان لأمته .

وأعطى جورج واشنطن الدرس نفسه لقبائل الايروكواس ، عندما كلف جيشه بتدمير مجتمعها وحضارتها ، وهما مجتمع وحضارة متقدمان نسبيا بمقاييس عام ١٧٧٩ . لم تشهد القرون المتعاقبة ، إلا نادرا أن ينظر إلى مثل هذا النفاق والجبن الأخلاقي الواضح ، بمنظار الإعجاب والاحترام .

وفي عام ١٧٨٩ ، وصف توماس جفرسون ، ما سماه " اتحادنا " ، بأنه المنطلق لإعمار كل أمريكا ، الشمالية منها والجنوبية . وقال إنه لأمر حسن أن تبقى القارة بيد العرش الإسباني ، إلى أن يصبح " مجتمعنا قويا بما يكفي ليتمكن من التهام القارة قطعةً قطعة " ..

أما جون كيتري آدامز، مهندس الفكرة التي قادت إلى وضع مبدأ مونرو فقد وصف " الدومينيون " على أنه قارة أمريكا الشمالية . وقد أوضح فكرته بقوله : هذا هو قانون الطبيعة . وقد جرى تطبيق هذا " القانون " تطبيقا واسعا جدا . فقد استخدمه آدامز من جديد في القضية المتعلقة بالجهود الخائبة التي بذلتها الصين لمنع توريد الأفيون إلى بلادها ، انطلاقا من الهند . وقد أدى فشل هذه الجهود إلى اندلاع حرب الأفيون . واستخدمت بريطانيا العنف لتقضي على المقاومة التي أبدتها الصين ، باسم المبادئ السامية للتجارة الحرة . كانت المقاومة الصينية قد منعت الإمبراطورية البريطانية من الوصول إلى الأسواق الصينية عن طريق منع توريد منتجها الرئيسي الذي قدمته للصين ، وهو الأفيون .

ووصف آدامز محاولات الصين لمنع توريد الأفيون ، بأنه عمل ضد القانون الطبيعي .

وفي فترة أقرب إلينا ، حدد وودرو ويلسون " واجبنا الخاص " ، تجاه كل شعب مستعمر ، وهو " أن نعيد لهذا الشعب النظام والسيادة ". و" ندربه على القانون والتعود عليه وإطاعته " . هذا يعني من الناحية العلمية الخضوع لـ " حقنا " في سرقة هذا الشعب واستغلاله . وشرح ويلسون باختصار الدور الذي تلعبه القوة الأمريكية في هذا المشروع قائلا :

" انطلاقا من حقيقة أن التجارة ، ليس لها حدود قومية ، وانطلاقا من أن الصناعي يريد امتلاك العالم من أجل الأسواق ، فان على علم بلاده أن يتبعه أينما ذهب ، وعلى الأبواب المغلقة للأمم الأخرى أن تخلع ، وعلى وزراء الولايات المتحدة أن يحموا امتيازات أصحاب رؤوس الأموال ، حتى ولو أدى ذلك إلى انتهاك سيادة الأمم الأخرى المتمردة . يجب خلق المستعمرات أو الحصول عليها ، بحيث لا نهمل أو نتغاضى عن أصغر زاوية في العالم " .

هذه العبارات الصادقة بسبب صراحتها ، تحمل دلالة حقيقية للمثل الأعلى " للولسنية " ، في الحرية وتقرير المصير . وهو مثل غالبا ما يورده المثقفون الغربيون عاريا دون تزويق .

وقد طبق ويلسون ، عندما أصبح رئيسا للجمهورية بعد بضع سنوات ، عقيدته حـول تقريـر المـصير ، بغزوه المكسيك ، وجزيرة أسبانيولا " التي تشكل تاهيتي وجمهورية الدومينكان " . وقد قتل جنوده ، وسـلبوا ، وأسسوا حالة شبيهة بالرق ، ودمروا النظام السياسي ، ووضعوا البلاد بين أيدي المستثمرين الأمريكيين .

وقد نشر روبرت لانسينغ ، وزير خارجية ويلسون ، مذكرة شرح فيها معنى " مبـدأ مـونرو " ووصـف ويلسون نشرها بأنه سوء تصرف سياسي ، ولكن حيثياتها لا يمكن أن تهاجم .

قال لانسينغ : " في دفاعها عن مبدأ مونرو ، إنما تدافع الولايات المتحدة عن مصالحها الخاصـة . أمـا إنصاف الأمم الأمريكية الأخرى فهو مسألة إضافية ، وليس غاية بحد ذاتها . وبقدر ما يبدو هـذا المـضمون مبنيا بشكل فريد على الأنانية ، فان واضع هذا المبدأ ، ليس لديه دافعا أسمى أو اكثر أريحية ليقدمه " .

ما كان استرجاع أشكال المخاتلة الأصلية في الأسطورة الأمريكية ليحمل فائدة تاريخية كبيـرة ، لـو لـم يتطور هذا النظام السياسي ، بعد قرنين ، ليشمل العالم كله .

فحتى الحرب العالمية الأولى تركزت أعمال السلب في القارة الأمريكية فقط . وكانـت المـشكلة آنـذاك تتلخص بإعاقة سيطرة أوروبا على الأرض والمؤسسات الأمريكية ، بالوسائل المالية ، أو غيرها .

كان تاريخ الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر ، هو أولا تاريخ إبادة الهنود ، إذ جرى بـين عـامي ١٨٠٠ و ١٨٣٥ ، تهجير كل الهنود من حوض المسيسبي ، في ظروف تهجيـر وإسـكان تـذكرنا بعمليـات التهجير الهتارية .

كما أبيد الآلاف من حيوان البيزون الذي يقتاتون به ، ومن صوفه يصنعون ملابسهم ، ودمرت مـساكنهم. ولم تتوقف المقاومة الهندية المسلحة إلا بعد ارتكاب مجزرة " ووندني " عام ١٨٩٠ . كان تـاريخ الولايـات المتحدة أيضاً ، تاريخ استغلال العبيد السود، وخاصة في ميدان زراعة القطن .

هذه هي السمات الأساسية لسياستهم الداخلية . أما سياستهم الخارجية فقد هدفت لنزع يد إسبانيا والبرتغـال عن " ممتلكاتهما " في القارة ، ليحل محلها توغلهم الاقتصادي وسيطرتهم الـسياسية . ثـم طـردوا بريطانيـا ليستغلوا بدلا منها البترول .

وقد حدد الرئيس مونرو في رسالته إلى الكونغرس " ٢ كـانون الأول ١٨٢٣ " القاعـدة الأسـاس لهـذه السياسة الهادفة لاستبعاد الهنود ، والزنوج وأوروبا ، قال فيها : للأوروبيـين القـارة القديمـة ، وللأمريكـان القارة الجديدة .

واتخذ من تفجير بارجة في ميناء هافانا ، ذريعة لشن حـرب ضـد اسـبانيا أ، جـرى بنتيجتهـا احـتلال بورتوريكو، والفلبين وكوبا .

أسال التدمير الأوروبي المتبادل في الحرب العالمية الأولـى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) أنهـارا مـن الـذهب ، صبت في الولايات المتحدة ، التي هبت للنجدة عندما وصلت الحرب إلى نهايتها ولاحت أعلام النصر .

وتحمل أسطورة المحررين الأمريكيين لأوروبا تضليلا مزدوجا :

ـ التدخل الأمريكي الذي جاء بعد ثلاث سنوات من اندلاع الحر (عـام ١٩١٧) لأن مـصالح الفعاليـات الاقتصادية الأمريكية تعرضت للخطر بسبب نسف البواخر الأمريكية التي واصلت متاجرتها خـلال الحـرب مع بريطانيا ، وكذلك لأن الوزير الألماني زيمرمان ، وعد المكسيك بتشكيل حلف ضد الولايـات المتحـدة ، سيعيد بنتيجة للمكسيك أقاليمها الضائعة : " تكساس ، أريزونا ، نيومكـسيكو " ... وقـد أدى تـدخل ألقيـصر كيسزر " صاحب أكبر مصانع للسفن في الولايات المتحدة " إلى تبدل في الرأي الأمريكي ، لمصلحة إرسـال حملة إلى أوروبا (٤ نيسان ١٩١٧) .

كلفت الحرب العالمية الأولى فرنسا مليون ونصف قتيل ، وألمانيا أكثر من مليون وسبعمائة ألـف قتيـل . ومن الضروري أن نقارن هذه الأرقام بعدد الضحايا التي نتجت عن المشاركة الرمزية للولايات المتحدة .

أما الرخاء الاقتصادي الذي شهدته الولايات المتحدة ما بين عامي (١٩٢٠ ـ ١٩٣٣) ، فقد تحـول إلـى تهتك ، مع نمو نشاط المافيات المتآمرة مع أجهزة الشرطة من خلال قانون منع الخمور الـذي صـدر عـام ١٩١٩ ، والذي ازدهرت من خلاله الحانات غير القانونية ، والملاهي وبيـوت الـدعارة الـسرية ونـشاطات مهربي الخمور .

وقد شهدت أعوام (١٩٢١ ـ ١٩٢٤) إجراءات لكبح جماع الهجرة إلى الولايات المتحدة ، وازداد نـشاط عصابات الكوكلاكس كلان ، ناشرة الرعب من جديد في مناطق الجنوب . وحملت النوفينية المـسيطرة ، إلـى الكرسي الكهربائي العديد من الأبرياء مثل ساكو وفانزتي ، الناشطين الايطاليين وأصبح الهم السياسي تحطـيم أي نظام اجتماعي يتعارض مع التوغل الاقتصادي الأمريكي ، وبكل وسيلة ممكنـة . كمـا أصـبح الاتحـاد السوفيتي و " العدوى " التي يمكن أن ينقلها ، العدو الرئيسي . وهيمن رعب مماثل على أوروبا الغربية . ولـم يتردد القادة الأمريكان، في الاعتماد على أعتى الطغاة ، باسم الدفاع عن الحرية ، التي هي في الحقيقة حريـة الباب المفتوح للتوسع الأمريكي بلا حدود .

وفي الحرب العالمية الثانية ، جرى الإنزال الأنكلو ـ أمريكـي فـي أوروبـا ، عـام ١٩٤٤ . وكـان اليابانيون ، قد دمروا بشكل غادر الأسطول الأمريكي في بيرل هاربر ، بينما كان الأمريكيون يـسعون لإنقـاذ مصالحهم في المحيط الهادي أمام التوسع الياباني الخاطف.

لم يتدخل الأمريكيون مباشرة ضد هتلر إلا في ١٩ حزيران ١٩٤٤ ، عندما كـان يعـاني مـن هزيمتـه الأولى في كانون الثاني ١٩٤٤ ، حيث تحطم جيشه في ستالينغراد ، بعد أن خـسر ٤٠٠ ألـف جنـدي بيـنهم ١٤٠ ألف أسير .

كانت المقاومة في أوروبا ، وطوال سنوات الحرب قد قضمت الاحتلال الألماني . وفي ذلك الحين ، كـان هتلر قد حشد خيرة قواته (١٨٩ فرقة من أصل ٣١٥ فرقة) على الجبهة الروسية ، و٣٨ فرقـة علـى الجبهـة الإيطالية و ٦٤ فرقة على الجبهة الممتدة من النرويج إلى فرنسا . وأدى هذا كله إلـى تـشتت آلـة الحـرب الهتارية .

وجاء إنزال حزيران ١٩٤٤ بعد قصف مرعب على التجمعات السكانية المدينة راح ضحيته ٥٧٠ ألف قتيل و ٨٠٠ ألف جريح من المدنيين .

والمثال الاكثر دلالة على قصف المدنيين ، هو قصف درسدن (١٣٥ ألف قتيل مدني) ، على الرغم من أن الزحف الروسي كان قد تجاوز المدينة ، التي لم تعد لهذا السبب تشكل هدفا عسكريا . أما هيروشيما ، فقد مسحت يوم ٢ آب ١٩٤٥ ، من على الخارطة بفعل قنبلة ذرية ، أودت بحياة ٧٥ ألف ضحية .. ثم جاء دور ناغازاكي ، بعد ثلاثة أيام من قصف هيروشيما فعاشت نفس المصير ، مع أن الإمبراطور كان قد اقترح استسلام اليابان .

كانت الفكرة عن الشيوعية شاملة جدا . ففي عام ١٩٥٥ ، توصلت مؤسسة وودرو ويلسون ، بالاشتراك مع جمعية التخطيط القومي إلى تعريف للشيوعية أكثر ما يكون دقة : " يأتي الخطر الشيوعي من التحول الاقتصادي لبلاد ما بشكل يضعف رغبته وقدرته في أن يكون متمما لاقتصاد الغرب الصناعي " .

ولكي يتصدى القادة الأمريكان لمثل هذا التهديد، لم يترددوا ، غداة الحرب العالمية الثانية في حمل جنرالات النازية الجديدة إلى السلطة والتحالف معهم .

وكانت هذه السياسة ، التي طبقت بعد الحرب الثانية في كل أمريكا اللاتينية ، قد طبقت سابقا بعد الحرب العالمية الأولى . ففي عام ١٩٢٢ ، وصف السفير الأمريكي في روما ، مستذكرا ذكرى مسيرة موسوليني إلى روما التي وضعت نهاية للديمقراطية في إيطاليا ، وصفها " بالثورة الشابة والجميلة " ، وأوضح لماذا يرى " أن الفاشيست ربما يكونون العامل الأقوى في كبح جماح البلشفية ".

وحظيت إيطاليا الفاشية منذ ذلك الحين بتعامل طيب من قبل الولايات المتحدة ، وذلك عندما سويت مسألة ديون الحرب . ثم تدفقت الاستثمارات الأمريكية إلى إيطاليا . وفي عام ١٩٣٣ تحدث تيودور روزفلت عن موسوليني واصفا أياه " بالسيد الإيطالي الذي يثير الإعجاب " . وفي عام ١٩٣٧ ، قيمت وزارة الخارجية الأمريكية الحركة الفاشية بأنها " أصبحت روح إيطاليا التي فرضت النظام في قلب الفوضى والمبادئ في وجه التجاوزات ، وحلت مشكلة الإفلاسات " .

ولم تغير إدانة غزو أثيوبيا إطلاقا من طبيعة العلاقات بين البلدين ، وشرح السفير الأمريكي لونغ أسباب ذلك بقوله : " بدون هذا التوجه .. كانت أشكال العنف البلشفي ستظهر في المراكز الصناعية ، والمناطق الزراعية التي تسود فيها الملكية الخاصة ".

وفي عام ١٩٣٧ ، اعتبرت وزارة الخارجية ، أن الفاشية تتوافق مع المصالح الاقتصادية الأمريكية . وبمعنى آخر ، مع المفهوم الأمريكي للديمقراطية .

وحدث الأمر نفسه مع هتلر . ففي عام ١٩٣٣ ، كتب القائم بالأعمال الأمريكي في برلين إلى واشنطن " إن الأمل المقود على ألمانيا ، إنما يعلق على " الجناح المعتدل في الحزب الذي يقوده هتلر ... الذي وجه دعوة تعاون إلى كل الناس المتمدنين والعقلاء " .

ولأن " المحور " لم يهاجم الولايات المتحدة بعد بيرل هاربر ، فقد استمر الموقف الأمريكي من الفاشـية على حاله لم يتغير .

وبعد الحرب .. تتابعت السياسة نفسها ، ولكن بلبوس جديد . ففي عام ١٩٤٣ ، شـهد الجنـوب الإيطـالي تراجع قوات الدوتشي ، بناء على إيحاء من تشرشل مدفوعا بالخوف مـن شـبح حـصار بلـشفي . وقامـت الولايات المتحدة بدعم ملك إيطاليا الذي تعاون مع النظام الفاشي ، وفرضت ديكتاتورية المارشال بـادرغليو، تماما كما فعل روزفلت عندما نصب عام ١٩٤٢ الأميرال دارلان ، لا الجنرال ديغول ، على الجزائر .

كان الهدف هو منع المقاومة ضد الفاشية من الوصول إلى السلطة ، وكان الـشيوعيون قـد لعبـوا دورا حاسما في صفوف هذه المقاومة .

قال ديفيد ماك ميشيل في كتابه " أكاذيب عصرنا " : منذ أن تسرب التقرير المعروف باسم تقريـر بايـك عام ١٩٧٦ إلى الكونغرس ، بات معروفا مدى تدخل وكالة المخابرات المركزية فـي الحيـاة الـسياسية فـي إيطاليا . وكان الأمر يتعلق بمبلغ خمسة وستين مليون دولار ، قدمت كمـساعدات ماليـة لأحـزاب سياسـية مرضي عنها ، والى شركاء لها ، وذلك بين عام ١٩٤٨ وبداية السبعينات . وفي عام ١٩٧٦ سـقطت حكومـة ألدومورو في إيطاليا ، بعدما كشف أن وكالة المخابرات المركزية أنفقت ستة ملايين دولار لدعم المرشـحين المعادين للشيوعية .

ونقرأ في كتاب لكريستون سيمبسون بعنوان " انفجار " صدر عام ١٩٨٨ :

" قامت أجهزة التجسس الأمريكية ، والأجهزة المعادية للمقاومة ، بتجنيد مجرمي حرب نـازيين كبـار ، مثل كلاوس باربي الذي يعتبر بدون شك ، الأكثر شهرة بينهم " .

وعمل النائب العام الأمريكي ماك كلوي على إطلاق سراح مجرم حرب نازي ، أسوأ حتى من بـاربي ، وكان يطلق عليه اسم فرانز ٦ . والذي كان يعمل تحت إمة رينارد غيلن الذي أوكلت إليـه مهمـة تـشكيل " جيش سري " ، تحت الرعاية الأمريكية ، وبالتعاون مع أعضاء قدامى في جهاز الأمن النازي واختـصاصيين آخرين في جهاز قوات الدفاع الوطني النازية والذين كانوا قد قدموا العون للقوات العسكرية الميدانيـة التـي وضعها هتلر في بلدان أوروبا الشرقية والاتحاد السوفييتي ، وساعدوا بعد انتهاء الحرب في عمليات اسـتمرت حتى أعوام الخمسينات . وكان غلين نفسه رئيسا للاستخبارات العسكرية النازية في أوروبـا الـشرقية ، وقـد عهد إليه فيما بعد ، في الدولة الألمانية الجديدة بمنصب مدير إدارة التجسس والتجسس المضاد ، تحت مراقبـة صارمة من المخابرات المركزية الأمريكية .

وحقيقة الأمر ، أن خوفا كبيرا في الولايات المتحدة ، قد برز مع تـصاعد أزمـة ١٩٢٩ ، عنـدما أدى انهيار سوق الأوراق المالية في ٤ تشرين أول ، نتيجة المضاربات المالية ، إلى إفلاس عـدد لا يحـصى مـن المصارف والمؤسسات، وارتفاع مذهل في معدل البطالة . وفي عام ١٩٣٠ ، وصل عـدد العـاطلين عـن العمل إلى أربعة ملايين ، وارتفع عام ١٩٣١ إلى سبعة ملايين ، ثم بلغ عام ١٩٣٢ أحد عشر مليونا .

أدى وصول روزفلت وأر كان حكمه من المنظرين إلى السلطة عام ١٩٣٢ ، إلى بروز مبدأ جديد للدولـة في ميدان الاقتصاد ، أطلقوا عليه اسم " الصفقة الجديدة " ، والذي ظهـر بعجلـة دون أن يـتمكن مـن حـل الأزمة، فقد انخفض الناتج القومي عام ١٩٣٧ ، بنسبة ١٣ % وانخفضت معدلات الاستخدام ٣٠ % .

كانت الحرب العالمية الثانية وحدها القادرة على إخراج الولايات المتحدة من أزمتها . وفي الوقت الـذي رفض فيه روزفلت تقديم العون لفرنسا المهزومة منذ عام ١٩٤٠ ، فقد بذله لبريطانيا بموجب قـانون خـاص (قانون الإعارة والتأجير) أدى تطبيقه إلى إنعاش الاقتصاد الأمريكي عن طريق تصنيع آلاف عربـات الـشحن والطائرات والدبابات والمدافع . وحسم الهجوم الياباني في بيرل هاربر دون إعلان الحرب ، الجـدال لـصالح موقف مؤيد لروزفلت .

وسمحت القوة الاقتصادية الأمريكية تجاه أوروبا التي دمرتها الحرب ، سمحت لروزفلـت ، حتـى قبـل تدخله المتأخر ، أن يصبح سيد اللعبة في أوروبا الغربية منذ كانون الثاني ١٩٤٣ تجلـى ذلـك واضـحا فـي مؤتمر كازابلانكا ، ثم في مؤتمر طهران الذي تلاه في نفس العام ، ثم في مالطا عام ١٩٤٥ ، حيث مثل فيـه روزفلت دور المفاوض الرئيسي لستالين لتنظيم العالم بعد سقوط هتلر.

خرجت الولايات المتحدة من الحرب ، وهي في وضع السيطرة الشاملة ، وهو وضع لم سبق لـه مثيـل في التاريخ . فالمنافسون الصناعيون كانوا قد دمروا ، أو أصابهم الضعف إلى حد كبير، ولهذا فقد تـضاعف الإنتاج الصناعي الأمريكي خلال سني الحرب أربع مرات .

وأصبحت الولايات المتحدة في نهاية الحرب ، مالكة لنصف ثروات العـالم ، بينمـا كانـت خـسارتها البشرية متواضعة جدا بالمقارنة مع ما قدمه العالم كله . لقد كلفت الحرب ألمانيا ما يزيد عن سـبعة ملايـين ونصف نسمة نصفهم من المدنيين ، وخسر الاتحاد السوفيتي سبعة عشر مليونا منهم عـشرة ملايـين مـدني . وفي إنكلترا وفرنسا تجاوز الرقم مليون قتيل منهم ٤٥٠ ألف مدني . أما الولايات المتحدة ، فقد كـان عـدد قتلاها ٢٨٠ ألف جندي ، وهو رقم يعادل عدد ضحايا حوادث السيارات في الولايات المتحـدة خـلال سـني الحرب .

وقبيل الحرب الكورية بقليل ١٩٥٠ ، أعدت الوثيقة التي رسخت الخـط الـسياسي للولايـات المتحـدة . وعرفت فيما بعد باسم مذكرة مجلس الأمن القومي رقم ٦٨ / وقد حررها بول نيتش ، الـذي خلـف جـورج كينان على رأس جهاز التخطيط في وزارة الخارجية .

وكان جورج كينان قد أقيل من منصبه لأن السلطة اعتبرته من " الحمائم " جدا ، وكـان قـد كتـب عـام ١٩٤٨ : نحن نملك ٥٠ % من ثروات العالم ، ولكننا لا نشكل أكثر من ٣ ، ٦ % من سـكان الأرض ، وفـي مثل هذا الوضع يبدو أنه لا مناص من أن نكون موضع غيرة وحسد الآخرين ، وسيكون جهدنا الأساسـي فـي الحقبة المقبلة ، تطوير نظام من العلاقات يسمح لنا بالاحتفاظ بهذا الوضع المتـسم بعـدم المـساواة ، دون أن نعرض أمننا القومي للخطر . ويجب علينا لتحقيق ذلك أن نتخلص من العاطفة تماما ، وأن نتوقف عـن أحـلام

اليقظة . يجب أن يتركز انتباهنا في كل مكان على أهدافنا الوطنية الراهنة ، علينـا أن لا نخـدع أنفـسنا ، ولا نستطيع أن نسمح لأنفسنا اليوم بالغوص في ترف التفكير بالايثار وعمل الخير على مـستوى العـالم . علينـا التوقف عن الحديث عن مواضيع غامضة أو غير ممكنة التحقيق ، تتعلق بالـشرق الأقـصى ، مثـل حقـوق الإنسان ، أو تحسين مستوى المعيشة ، أو إحلال النظام الديمقراطي . ولن يكون بعيدا اليوم الذي سـنجد فيـه أنفسنا مضطرين للتحرك بصراحة من خلال علاقات القوة . وبقدر ما يكون ارتباكنا بسبب الشعارات المثاليـة أقل ، بقدر ما يكون ذلك أفضل " دراسات في التخطيط السياسي " .

أما " مخطط الصقور " الذي رسمه بول نيتش بوضوح أكثر للمواضيع التي تناولهـا . تمتلـك الولايـات المتحدة - يقول نيتش - قوة كونية ، لهذا سيكون من الضروري أن نحدد لنا عدوا كونيا ، وفي هـذه الحالـة سيكون الاتحاد السوفيتي . وعلينا أن نضفي على هذا العدو كل صفات الشيطان ، بحيث يصبح كـل تـدخل أو عدوان للولايات المتحدة مبررا مسبقا ، وكأنه عمل دفاعي تجاه خطر يشمل الأرض كلهـا . وهكـذا أصـبح الاتحاد السوفيتي بموجب هذا المخطط ، " امبراطورية الشر " . ليس مهما أن لا تكون كوريا أو فيتنـام هـي التي غزت الولايات المتحدة ، وليست هامة حقيقة أن الولايات المتحدة هي التي غزت هذين البلـدين الـذين يقعا على بعد عشرة آلاف كيلومتر عن حدودها ، ومع ذلك فقد زعمت أمريكا أنها تعتبر نفسها في حالة دفـاع مشروع.

ولم يكن الاتحاد السوفييتي عام ١٩١٧ ، قد أصبح قـوة عـسكرية ، وخاصـة بعـد خـسارته المرعبـة بالأرواح خلال الحرب العالمية الأولى ، ومع ذلك فقد اعتبر الخطر الرئيسي ، بسبب أخطار " العدوى " التـي يحملها ، مشكلا تهديدا لاستمرار النظام الرأسمالي .

وقال جاديس في كتابه " السلام الطويل " ١٩٨٧ :

" أصبح أمن الولايات المتحدة في خطر منذ عام ١٩١٧ ، وليس في عام ١٩٥٠ . كـان التـدخل عمـلا دفاعيا ضد تبديل النظام الاجتماعي في روسيا وإعلان الاتحاد السوفيتي عـن نوايـاه الثوريـة ". ومـن هـذا المنطلق كتب السناتور وارن هاردينيج ، الذي أصبح فيما بعد رئيـسا للولايـات المتحـدة (١٩٢١ - ١٩٢٣) قائلا : " تشكل البلشفية تهديدا يجب القضاء عليه ... لابد من القضاء على الـوحش البلـشفي " مـن كتـاب " الولايات المتحدة وإيطاليا الفاشية " .

إذن ، يشكل وجود الاتحاد السوفيتي بحد ذاته عدوانا ، وهذا يوجب أن تـدافع الولايـات المتحـدة عـن نفسها، في كل بقعة من بقاع العالم .

وهكذا تحددت بوضوح مواضيع الحرب الباردة . وحددت وثيقة جهاز التخطيط في الخارجية الأمريكيـة المذكورة آنفا هذه المواضيع على الشكل التالي :

إن الصراع بين قوى النور وقوى الظلام لا يهدد فقط جمهوريتنا ، إنما المدينة بأسرها . إن الانقضاض على مؤسسات العالم الحر ، يشمل المعمورة كلها ، ويضع على كاهلنا من خلال مصالحنا الخاصة ، مسؤولية ممارسة " القيادة للمعمورة كلها " .

وكان من السهل جعل هذه الفكرة مقبولة من " الرأي العام " ، بسبب الطبقة الحاكمة المسيطرة على الصحافة ودور النشر والجامعات والسينما والتلفزيون . وكشف اليكس توكفيل ، عن مدى هذه الإمتثالية لدى الشعب الأمريكي في كتابه " الديمقراطية الأمريكية " : " إنني لا أجد بلدا تكاد تنعدم فيه استقلالية الروح ، ويسوده قليل من النقاش مثل الولايات المتحدة " . وفي عام ١٨٥٨ قال الكاتب هنزي ديفيد ثورو وهو أحد المعارضين النادرين ومؤلف كتاب " والدن - أو الحياة في الغابة " :

" ليس هناك ضرورة لوجود قانون يمكن الدولة من السيطرة على الصحافة ، لأنها تفرض قوانينها بنفسها ، وتطبقها بصرامة أكثر مما هو مطلوب منها . لقد وصل المجتمع ، ولو بشكل غير معلن إلى اتفاق يتعلق بالمواضيع التي يمكن للصحافة أن تعبر عنها ، واختار ميدانها ، وعقد تعاهدا مضمرا بعزل كل من يحاول خرقه ، بحيث لا يتجرأ واحد من ألف ان يعبر عن شيء آخر " . ويضيف نعوم شومسكي : " من الدقة أكثر القول إن واحدا بالألف لا يستطيع أن يفكر بشيء آخر ، إلى هذه الدرجة الماحقة يمارس نظام السيطرة سلطته على التفكير " .

" وفي القرن العشرين بدت هذه السيطرة أكثر وضوحا ، إذ أدركت شخصيات مرموقة وباحثون كبار في العلوم السياسية ، وصحفيون ، وعاملون في صناعة العلاقات العامة المتنامية ، أنه في بلد ما حيث يمكن للشعب أن يرفع صوته ، من الضروري التأكد أن هذا الشعب يقول ما يجب أن يقال وبالشكل المناسب " .

"وفي دولة مؤسسة على العنف الداخلي ، تكفي السيطرة على ما يفعله الناس ، أما ما يفكرون به فقليل الأهمية . أما عندما يكون عنف الدولة محدودا ، يصبح من الضروري السيطرة على ما يفكر به الناس " .

كان هذا الأمر واضحا جدا في حلقات النخبة ، حيث كان هناك إصرار على أهمية " إعداد الموافقة " ، وهو تعبير استخدمه والترليبمان وهو صحفي متميز ومعلق سياسي ، أو " فبركة الموافقة ، حسب تعبير ادوارد برني ، وهو شخصية مؤثرة ومحترمة جدا في حقل صناعة العلاقات العامة ، وذلك للاطمئنان إلى أن المجتمع ، سيوافق على قرارات قادته الأذكياء ، ذوي البصيرة النافذة ، والذين يجب أن يكونوا بمنأى عن التأثر بجلافة الجماهير وسذاجتها " .

وكتب روبرت دال ، وهو أحد النقاد النادرين الذين تناولوا هذه المفاهيم بالنقد ، والمختص بالعلوم السياسية : " لو افترضنا أن الخيارات السياسية تفرض ببساطة على النظام ، من قبل القادة (سواء كانوا من رجال الأعمال أو آخرين) ، كي يحصلوا على ما يريدون ، فإن نمط الاستفتاء الديمقراطي ، سيعادل في جوهره الهيمنة الشاملة " .

وهكذا ، على ارض التلاعب هذه ، التلاعب بالرأي العام ، يسعى القادة الأمريكـان أن يحققـوا هيمنـتهم على العالم . والشاغل الأول للأجهزة المسيطرة على السلطة ، هو أن يحموا ظهرهم في أمريكا اللاتينية .

كانت الخطوة الأكثر وحشية بعد الحرب ، خطوة غواتيمالا ، حيث هددت حكومة الرئيس اربيز الـشعبية امتيازات شركة الفواكه ، وشركات البترول الأمريكية العاملة هناك .

وتجنبا لمضاعفات التـدخل العـسكري المباشـر ، فقـد حـددت مـذكرة مجلـس الأمـن القـومي ، رقم NSE 5432 ، الإجراءات الضرورية لتكامل القوات العسكرية اللاتينية – الأمريكية ، من خلال الأسـلوب الأمريكي " في التشجيع " :

- " زيادة حصص بلدان أمريكا اللاتينية في مجال تدريب الافراد في الكليات العسكرية ومراكز التدريب في الولايات المتحدة ، بما فيها الاكاديميات الحربية " .

- يفضل إنشاء علاقات شخصية أكثر حميمية بين العسكريين الأمريكيين ، وغير الامـريكيين ، لتـشجيع عسكريي أمريكا اللاتينية على تفهم أكبر لأهداف الولايات المتحدة وتبنيها ، وإدراك الدور الهام لمؤسـساتهم العسكرية في الحكم .

- البحث عن نمطية كاملة في التنظيم ، والتدريب ، والعقيدة القتالية ، وتجهيـز القـوات المـسلحة فـي بلدانهم ، كل ذلك حسب المعايير الأمريكية ، الهدف أن يعارض هؤلاء العسكريون ، إرسـال دول أخـرى ، بعثت عسكرية إلى أمريكا اللاتينية وكي يصبح مؤكدا أن التجهيزات الأمريكية هي التي ستـستخدم فـي هـذه الجيوش .

لنلاحظ أن هذه الإجراءات لجيوش أمريكا اللاتينية في إطار بنية القيادة العسكرية الأمريكية ، إنما تهـدف إلى مواجهة " أعدائنا التاريخيين " في أمريكا اللاتينية ، وهم أوروبا والسكان الأصليون .

ولأن المظالم التي ارتكبها القتلة في امريكا اللاتينية ، جعلت من الصعب وضعهم في كراسي الحكم ، فقد استبدلت الولايات المتحدة الإرهاب بالفساد ، وعمدت إلى استبدال هؤلاء القتلة بقادة " منتخبين " ، كما جـرى في الأرجنتين والبرازيل وباناما بعد أن استخدموا نورييغا ، وكذلك في نيكاراغوا التي سعوا أن تـستمر فيهـا السوموزية بدون سوموزا ، بعد ثلاثين ألف قتيل .

وطرحت المشكلة بحدة في أوروبا غداة الحرب العالمية الثانية . كان الخطر هنا مضاعفا ، حسب وكالـة المخابرات المركزية التي أكدت عام ١٩٤٧ أن الخطر الاكبر ، على أمن الولايـات المتحـدة ، هـو خطـر الانهيار الاقتصادي في أوروبا الغربية ، وما سيتبعه من وصول عناصر شيوعية إلى السلطة.

ولتجنب مثل هذا الخطر المضاعف ، أطلق القادة الامريكيون مشروع " مارشال " الـذي هـدف حـسب قولهم إلى إعادة إعمار أوروبا .

لكن الشروط السياسية كانت صارمة : لابد في البداية من إقصاء الشيوعيين فـي الحكومـات الغربيـة . وهكذا بدى التدخل الخارجي في هذه البلدان واضحا :

فقد أقصي الوزراء الشيوعيون في الحكومة الفرنسية عن الحكم في ٤ أيار ١٩٤٧ . وأقـصى الـوزراء الشيوعيون في الحكومة البلجيكية في الشهر نفسه .

وهكذا ، بعد أن تمت عمليات الإبعاد ، أعلن بشكل رسمي عن مشروع مارشال في ٥ حزيران ١٩٤٧.

كانت " المساعدة " هي الهدف الأصغر في خطة مارشال . وقد لاحظت دراسـة أجريـت فـي نيـسان ١٩٤٧، أن المساعدة الأمريكية ستكرس بشكل مطلق للبلدان التي تتمتع بأهمية اسـتراتيجية أساسـية للولايـات المتحدة .. ما عدا حالات نادرة ، التي تبرز فيها مناسبة للولايات المتحدة أن تتلقى استحساننا عمليـا بفـضل " عمل إنساني واضح جدا ".

وقد اتفق دين اتشيسون وزير الخارجية ، وعدد من أعضاء مجلس الشيوخ عام ١٩٥٠ ، أنـه لـو اعلنـت المجاعة في القارة الصينية ، سيكون على الولايات المتحدة أن تقدم مساعدات غذائية قليلـة بالقـدر الـذي لا تخفف فيه من حدة المجاعة ، انما تكفي لتسجيل نقطة في سجل الحرب النفسية .

ولإعطاء دعم أكثر لهذه العملية السياسية الاقتصادية ، فقد رسمت مذكرة مجلس الأمن القومي " NSE 68 " استراتيجية لضغوط تهدف لنخر الاتحاد السوفيتي من الداخل ، عبر سلسلة من الدسـائس الـسرية وغيرهـا ، تمكن في النهاية من التفاوض مع الاتحاد السوفيتي (أو الدولة أو الدول التي يمكن أن تحل محلـه) للوصـول إلى اتفاق .

أما الوسائل السرية ، فقد تضمنت في تلك المرحلة ، إرسال معدات وعملاء يندسون في صفوف جيـوش الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية ، والتي كانت قد صمدت أمام هتلر ، ووضع إدارة أجهـزة التجـسس فـي ألمانيا الفدرالية ، بين يدي ريتشارد غيلين الذي كان يدير أجهزة التجـسس العـسكرية النازيـة فـي الجبهـة الشرقية ، وتجنيد مجرمي الحرب النازيين للمشاركة في المشروع الأمريكي الشامل لما بعد الحرب ، والـذي يهدف لتحطيم المقاومة المعادية للفاشية .

ولأن العملاء من أمثال هؤلاء المجرمين لا يمكن حمايتهم في أوروبا ، فقد أرسلوا ، كل حسب مهمتـه ، إلى بلد من بلدان أمريكا اللاتينية . وهكذا أرسل كلاوس إلى بوليفيا ، فشارك بشكل فعال في انقـلاب ١٩٨٠ ، وذهب ضحية جرائمه ما يفوق بكثير ضحايا الجرائم التي ارتكبها في فرنسا أثناء الاحتلال الهتلري .

أثار السلام عام ١٩٤٥ ، ثم انهيار الاتحاد السوفيتي عام ١٩٨٩ مشكلات صعبة أمام الولايات المتحـدة ، تتعلق بالتبريرات التي ستضعها أمام الرأي العام لسياسة التسليح التـي كانـت عنـصرا ضـروريا لتنـشيط الاقتصاد الامريكي .

كتبت مجلة وول ستريت جورنال في ٣١ آب ١٩٨٩ ما يلي : : أثار الـشبح المـزعج للـسلام ، مـسائل شائكة ، فهو يهدد مباشرة المسيرة المنتظمة للبرامج العسكرية الامريكية والتي استندت إليها ، والى حد كبيـر بعد سنوات الحرب ، حركة اقتصاد الدولة . وتصور الجنرال ادوارد ماير ، رئـيس الاركـان الاسـبق ، أن جيشا يتمتع بتقنية عالية ، بما تستدعيه من استثمارات هامة ، سيضمن عائـدات ضـخمة للـصناعة الموجهـة

للخارج ، بما فيها من دبابات يسيرها الروبوت ، وطائرات تقاد عن بعد وعمليات تـضليل ألكترونيـة ، انمـا كلها مشكوك بفائدتها في تحقيق الأهداف العسكرية المقبلة .

ولكن المسألة ليست ، لأن بواعث القلق تصدر عن ضعف الامل في تطور تقنيـة كهـذه ، فكيـف نقنـع الشعب في دفع الفاتورة في الوقت الذي لم يعد فيه وأمام عينيه تهديد شيوعي ، بعـد أن فقـد هـذا الـشعار مصداقيته .

يجب إذن البحث عن بديل " لإمبراطورية الشر " .

هنا تزودنا حرب المخدرات بادعاء جديد لعمليات التدخل : " حق التدخل الانساني " أو " الدفاع عـن هـذا الحق " .

ثم وجدوا في العراق " امبراطورية الشر الجديدة " .

منذ سنوات ، كان صدام حسين يمثل سدا ضد الإسلام الذي جسدته إيران الخميني ، ولم يمنع التـسلح ولا الأسلحة عن ذلك الرجل الذي دعاه أحد الكتاب الفرنسيين بـ " ديغول العراق " . أما عنـدما أراد أن يـسترد نصف إنتاجه البترولي الذي اغتصب منه عام ١٩٦٢ ، عبر تهديد عـسكري مـن الطـراز الاسـتعماري ، " كانت الكويت دائما في ظل الامبراطورية العثمانية ، ومن ثم الاحتلال البريطاني تابعـة لاقلـيم البـصرة " ، بادرت الولايات المتحدة ، مع أتباعها وشركائها إلى اتخاذ اجراءات بدت معها وكأنها المدافع عن " القـانون " و " القانون الدولي " ، ضد هذا " العدوان " ، بعد أن استخدمت حق الفيتو ضد كل عقـاب بحـق اسـرائيل ، وكأنه مكافأة لها على اعتدائها على الفلسطينيين والجولان ، وإلحاقها أراض لا تعود لها ومنها القدس .

كان لابد من ضرب " المثل " لكل العالم الثالث ، أنه من غير المسموح ، تحت طائلة التدمير، لاي شـعب أن يرتقي إلى مستوى تقني عال ، أو يستثمر بنفسه ثرواته الوطنيـة " البتـرول فـي حالـة العـراق " ، دون مراقبة الدول العظمى لأسعارها ، ويشمل المنع بشكل خاص محاولة التخلص من الديانة التي لم تجـرؤ هـذه القوى على تسميتها ، والتي فرضتها على العالم الثالث بأكمله : وحدانية السوق ، ووثنية المال.

تشير احصائيات الصليب الاحمر الدولي ، ان القصف كلف الشعب العراقي مئتي ألف قتيل من المـدنيين. أما الحظر التعسفي الذي فرض على العراق فقد أدى إلى وفاة ٥٠٠ ألف طفل بسبب نقص الغذاء والدواء .

عندما أرسلت الولايات المتحدة عسكرها إلى العربية السعودية ، كتب توماس فريدمان ، المشرف علـى الزاوية الدبلوماسية في النيويورك تايمز في ١٢ آب يقول : " لم ترسل الولايات المتحدة جنودها إلـى الخلـيج لتساعد السعودية على صد العدوان فقط ، بل لتساند في الوقت نفسه ، أحد بلدان الأوبـك ، خدمـة لمـصالح واشنطن " .

كما لاحظت الواشنطن بوست أن هذا الاجراء فيه شيء من سلوك الماضي المهجور ، واستشهدت بقـول توم مان مدير الشؤون الحكومية في مؤسسة بروكينج : يعامل بوش بلدان العالم الثالث بمنطـق اسـتعماري " الواشنطن بوست وفي الحقيقة فقد سبق هذه العملية الاستعمارية ، عدوان إنكليزي ، عندما استرد العقيـد عبـد

الكريم قاسم عام ١٩٦١ ، الامتيازات التي كانت تتمتع بها الشركات الغربية " ٩٤ % من الثـروة الوطنيـة " ، والتي حصلت عليها عن طريق الحكومات الدمى التي نصبها المحتلون الغربيون .

كان سلوين لويد ، وزير الخارجية البريطاني ، قد أرسل برقية إلى رئيس الوزراء ، عرض فيها خيـارين يتعلقان بالكويت : أما احتلال بريطاني فوري لهذا البلد نصف المستقل ، أو منحه اسـتقلالا اسـميا ، وشـكك بحكمة استخدام القوة . فالاحتلال يسمح بفرض خيارات صارمة على البترول الكويتي ، لكنه يـوقظ المـشاعر القومية في الكويت ، وسيكون ذا تأثير على الرأي العام الدولي ، والعالم العربي . وسيكون من الفطنة أكثـر ، استبدال هذا الخيار بايجاد نوع من " سويسرا كويتية " لا يسيطر فيها الانكليز مباشرة علـى البتـرول . وفـي حال اختيار هذا الحل البديل ، سيتوجب علينا ، إذا ساءت الامور ، أن نتدخل بأكبر حزم ممكـن ، كائنـة مـن تكون ، الجهة التي سببت الاضطراب . ويجب التأكيد على التضامن المطلق للولايات المتحدة معنـا ، فيمـا يتعلق بموضوع الخليج ، وهذا يستدعي اجراءات حاسمة للحفاظ على وضعنا في الكويت . وعلـى الولايـات المتحدة أن تتخذ اجراءات مماثلة تتعلق بحقول نفط الارامكو في العربية السعودية . والامريكيـون موافقـون على بقاء حقول النفط في الكويت ، والعربية السعودية والبحرين وقطر ، بيد الغربيين مهما كلف الثمن .

ثم أوجز الوزير البريطاني المصالح الرئيسية للانكليز والغرب في الخليج :

ـ التأكيد على ضرورة وصول بريطانيا والدول الغربية الاخرى إلى بترول الخليج وصولا حرا.

ـ التأكيد على بقاء البترول تحت تصرفنا وعقد اتفاقيات لـصالحنا " وبالجنيـه الاسـترليني " ، واتخـاذ ترتيبات مقبولة لاستثمار فائض عائدات البترول في بلادنا .

وقف تقدم الشيوعية والشيوعية المموهة في هذه المنطقة التي تـسعى لاحتـواء الحركـة القوميـة التـي يستخدمها السوفييت إلى هذا المنطقة .

وتدافع وثائق امريكية تعود لنفس الفترة عن الاهداف الانكليزية وبعبارات مشابهة ، ونورد هنـا مقطعـا من وثيقة مجلس الامن رقم ٥٨٠١ / ١ ، بعنوان " القضايا الناتجة عن الوضع في الشرق الادنى " :

تؤكد المملكة المتحدة ، أن الاستقرار الحالي ، سيواجه تهديدا خطيرا ، فيما إذا تعذر الوصول إلى بتـرول الكويت والخليج ، في ظروف مفهومة . ومن جهة أخرى لا تستطيع انكلترا أن تـستغني عـن الاسـتثمارات الضخمة لهذه المنطقة في المملكة المتحدة ، كما أن الجنيه الاسترلييني يحتاج لمساندة بترول الخليج " الفارسـي " .

وتحمل ، هذه " اللزوميات " البريطانية ، أضافة إلى حقيقة أن واردا مؤكدا من البترول ضروري لحيويـة الاقتصاد الاوروبي الغربي ، تحمل إلى الولايات المتحدة حجة أكبر ، لتدعم ، أو تـساعد إذا لـزم الامـر ، الانكليز ، بالقوة اللازمة لاستمرار سيطرتها على الكويت والخليج " العربي " .

وهكذا اعتبر ايزنهاور الشرق الاوسط ، وكأنه المنطقة الاستراتيجية الاكثر اهمية فـي العـالم . وكانـت الولايات المتحدة ، غداة الحرب العالمية الثانية ، قد جهزت خططها الجيوسياسية : " صاغت مجموعـة مـن

الدراسات التي أجراها كل من مجلس العلاقات الخارجية " الذي يمارس فيه عالم الاعمال تاثيرا كبيـرا علـى السياسة الخارجية ، ووزارة الخارجية مفهوما اطلق عليه اسم " المنطقة الكبرى " ، وهـي منطقـة يجـب أن تخضع لمصالح الاقتصاد الامريكي ، والتي يجب ان يضم ، على الاقل ، نصف الكـرة الغربـي ، والـشرق الاوسط ، والامبراطورية البريطانية القديمة .

ويتوجب ، بحسب الامكان ، تطوير هذا المفهوم لتكوين نظام شامل ، يضم فـي كـل الاحـوال أوروبـا الغربية ومصادر الطاقة الفريدة في الشرق الأوسط ، التي بدأت فعليا بالانتقال إلى الأيدي الأمريكية .

وفي كتاب " الولايات المتحدة والأبعاد الإستراتيجية لمشروع مارشال " للكاتب ميلغن ليفـر ، جـاء مـا يلي:

" ان المفهوم الأمريكي للأمن القومي ... يتضمن ايجاد منطقة نفوذ استراتيجية في قلـب نـصف الكـرة الغربي " وهي دائرة تتواجد فيها أوروبا بالضرورة " ، ولذلك يجب إقـصاء نفوذهـا – يقـصد أوروبـا – ، بحيث يشمل النفوذ الاستراتيجي السيطرة الاقتصادية ، والهيمنة على المحيط الهادي والأطلسي ، ونظام شـامل لبناء قواعد خارجية ، لتوسيع الحدود الاستراتيجية ، وترسيخ السلطة الامريكية ، ونظام اكثـر تركيـزا علـى حقوق الترانزيت كي يسهل تحول القواعد التجارة إلى قواعد عسكرية ، والوصول إلـى مـصادر الثـروة ، وأسواق القسم الاعظم من " أوراسيا " ، ومنع أي عدو من الوصول إليها ، وأخيرا تحقيق التفوق النووي " .

ويسمح لنا هذا المفهوم الاستراتيجي ، بفهم آلية الحرب الباردة بعد عام ١٩٤٨ بـشكل أفـضل . وتلعـب سياسة " الإفراط في التسلح " دورا حاسما في هذه البرمجة .

قال مجلة وول ستريت (١٩٥١) : " إنه من الواضح ، وجود إمكانية لانفاق مستمر على التسلح فـي هـذه البلاد " . وتحرك النفقات العسكرية للولايات المتحدة ، الانتاج الصناعي الأوروبي بشكل لا يمكـن تجاهلـه ، كما أن شراء المواد الأولية الاستراتيجية من المستعمرات الأوروبية ، يقلل من عجز الدولار ، بنسبة تـضاهي المساعدة التي قدمها مشروع مارشال لبريطانيا ، والتي علقت عام ١٩٥٠ . بينما وجـد هوغـان ، أن النتـائج على المدى الطويل كانت عكس ذلك . ففي اليابان لعبت النفقات العسكرية للولايات المتحدة ، وخاصة بـسبب الحرب الكورية ، دورا جوهريا في إعادة بناء الصناعة اليابانية بعد الحرب ، واستفادت كوريا الجنوبيـة مـن حرب فيتنام ، بنفس الأسلوب ، وبنفس الوقت الذي أفادت منه الدول الحليفة للولايات المتحدة .

كان دور العالم الثالث ، خدمة لاحتياجات المجتمعات الصناعية ، ففي أمريكا اللاتينية ، كما في أي مكـان آخر ، كانت حماية " مواردنا الطبيعية " أمرا جوهريا ، حسب تعبير جورج كينان ، الذي رأى انه " طالمـا أن تهديد مصالحنا ، نابع بالضرورة ، من السكان الأصليين في المناطق المختلفة ، فـإن علينـا ادراك أن الـرد المناسب سيكون غير مستحب " . وعنى بالرد المناسب ، الـضغوط البوليـسية التـي تمارسـها الحكومـات المحلية. "يجب أن لا تثير إجراءات القمع الشديدة التي تمارسها الحكومات ، مـشاعرنا طالمـا أنهـا تخـدم أهدافنا " .

وتابع : " وبشكل عام ، من الأفضل أن نضع في السلطة نظاما قويا ، بدا من حكومة ليبرالية ، يرى فيهـا الشيوعيون في حكومة متساهلة ومتراخية وهو ما يفضلونه " . وتستخدم كلمـة " شـيوعيون " فـي الخطـاب الأمريكي كتعبير فني ، يقصد به النقابيون ، ومنظموا الجماهير الفلاحية ، والجماعات المساندة التـي أسـسها القساوسة ، وبشكل عام كل أولئك الذين يسعون لأهداف ليست " سليمة " سياسيا. أما " الغايـات الخيـرة " فقـد حددتها أعلى المستويات ، وفي وثائق في منتهى السرية . أتى الخطر الاكبر على المـصالح الأمريكيـة مـن الأنظمة القومية ، التي هي صدى للضغوط الشعبية الهادفة لتحقيق تحسين فوري في المـستوى المـنخفض ، لمغيشة الجماهير ، وكذلك تنويع الاقتصاد. " وتدخل هذه المطالب في صراع ، لـيس مـع حاجتنـا لحمايـة مواردنا فحسب ، بل أيضاً مع همنا في تشجيع قيام مناخ ملائم للإستثمار الخاص ، وضمان فوائد معقولة لمـن يحملون رؤوس أموالهم إلى تلك البلاد " ، (وثيقة مجلس الأمن القومي ٥٤٣٢ ، ١٨ آب ١٩٥٩) .

وتبعا لما قاله ديك شيني ، وزير الدفاع ، الذي يشاطر الرئيس بوش أفكاره " فالولايات المتحـدة بحاجـة دائما لأسطول قوي (وبشكل عام قوات تدخل من جميع الأنواع) لمواجهـة الـصراعات الخفيـة ، وحمايـة المصالح الأمريكية في آسيا، وأمريكا اللاتينية على سبيل المثال " .

ويتابع شيني : " ستصبح قوتنا العسكرية في المستقبل ، عنصرا ضروريا لتوازن القوى ، ولكنهـا سـتؤكد وجودها بطريقة مغايرة . من المحتمل جدا أن تواجه تعبئة قدراتنا العسكرية تحديا لا مـن الاتحـاد الـسوفيتي فحسب ، بل من العالم الثالث أيضاً ، وهذا يستدعي قدرات جديدة ، وتوجهات محددة " .

فيما يتعلق بالتطورات الحالية لسياسة الاستيطان في فلسطين ، لم يكن هناك ، ولو للحظـة واحـدة ، أيـة فرجة صغيرة تبعث الامل من خلال ما اتفق على تسميته بعملية السلام ، وهو تعبير غـامض لانـه لا يمكـن تحقيق السلام إلا من خلال تطبيق كامل لقرارات الأمم المتحدة ، وقد انتهكت هذه القرارات باستمرار من قبل إسرائيل ، وبشكل خاص كل ما يتعلق بالضفة الغربية، وزرع المستوطنات ووضع القدس .

وقال نعوم شومسكي في كتابه " إعاقة الديمقراطية " : أنهت الولايـات المتحـدة وإسـرائيل مـساعيهما الدبلوماسية الخاصة لنزع فتيل الخطر الناجم عن إنجاز عملية سلام حقيقي . وكان تحـالف الليكـود وحـزب العمل ، قد اقترح عام ١٩٨٩ ما سمي بخطة شامير ـ بيريز . وكانت المبادئ الأساسية لهذه الخطة :

ـ لن يكن هناك دولة فلسطينية في قطاع غزة ، وفي المنطقة الواقعة بين إسرائيل والأردن .

ـ لن يحدث أي تغيير في وضع " يهود والسامرة " وغزة ، خـارج الخطـوط التـي رسـمتها حكومـة إسرائيل ، التي ترفض حق تقرير المصير للفلسطينيين . ويعكس تعبير " لا دولة أخرى في فلـسطين " ، رأيـا مشتركا أمريكيا ـ إسرائيليا من منطلق أن الدولة الفلسطينية قائمة فعلا ، وهي الأردن . وانطلاقـا مـن هـذا الرأي ، لن يكون هناك حق تقرير المصير ، بعكس ما يعتقده الأردنيون والفلسطينيون والأوروبيـون وبعـض المضللين الآخرين .

وتأخذ هذه المبادئ الاساسية بالحسبان " اللاءات الاربعة " الواردة في برنامج حـزب العمـل وهـي : لا عودة لحدود عام ١٩٦٧ ، لا لإلغاء الاستيطان ، لا للتفاوض مع منظمـة التحريـر الفلـسطينية ، لا للدولـة الفلسطينية .

بعد كل هذا .. دعت الخطة لإجراء انتخابات حرة ديمقراطية في ظل الاحتلال العـسكري الإسـرائيلي ، مع استبعاد منظمة التحرير الفلسطينية .

أضفت الولايات المتحدة الشرعية على هذا المشروع . وقال جيمس بيكر إن " هدفنا دائما أن نـسير فـي ظل معاني مبادرة شامير ، وليس لدينا أية خطة أخرى ، ولا أي اقتراح آخر".

وفي عام ١٩٨٩ ، نشرت الخارجية الامريكية " خطة بيكر " ، التي اشترط فيها أن تتحاور اسـرائيل مـع مصر ، ومع بعض الفلسطينيين المقبولين والمخولين للبحث في كيفية خطة شامير ... ولا شيء آخر .

والحقيقة أن السياسة الامريكية تدار عن طريق اللوبي الصهيوني القوي في الولايـات المتحـدة ، وهـو اللوبي الذي دعته جريدة النيويورك تايمز " اللوبي الأشد تأثيرا ... إنه قوة كبرى في السياسة الأمريكيـة تجـاه الشرق الأوسط " . وتقدر النيويورك تايمز أنه يستند إلى ما لا يقل عن ٤٠ - ٤٥ سناتورا ، ومئتي نائـب مـن أصل ٤٣٥ .

ويمثل اليهود الأمريكيون الذين لا يتجاوزون ٦ ، ٢ % من السكان ، ٢٠ % مـن أصـحاب الملايـين ، حسب مجلة فوربس ، وكلهم مستعدون لمكافأة الأصوات التي تصب في صالح اسرائيل ، وفق توجيهات لجنـة الشؤون العامة الامريكية الاسرائيلية " إيباك " . وقد أنفقت هذه اللجنة عام ١٩٨٧ أكثـر مـن ٦،٩٠٠،٠٠٠ دولار (وول ستريت جورنال ٢٤ حزيران ١٩٨٧) .

في ظل هذا النفوذ ، تتلقى إسرائيل أكثر من ثلاثة مليـارات دولار سـنويا ، باسـم مـساعدة اقتـصادية وعسكرية ، وهو ما يمثل ٧٠٠ دولار لكل اسرائيلي في العام .

مقابل ذلك تتلقى أفريقيا باستثناء مصر - مساعدة ، يبلغ نصيب الفرد فيها ٢ دولار في الـسنة (لوموند ديبلوماتيك . آب ١٩٨٩) .

وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي ، أصبح الموضوع الرئيسي للسياسة الامريكية ، وضع اليـد علـى البلـدان النامية . وكانت دول الجنوب قد تلقت في الماضي ضربة نموذجية للتوقف عن محاولتها لاسـتخدام ثرواتهـا الوطنية لخدمة شعوبها ، وذلك عندما أطيح بالرئيس مصدق ، وأعيد الشاه إلى حكم إيران . وكذلك كان خطـر القومية قد أصبح من المسلم به في وسائل الاعلام . وقد سمح نجـاح الانقـلاب العـسكري المـدعوم مـن المخابرات المركزية الأمريكية في الإطاحة بالنظام البرلماني لمصدق ، الرئيس الإيراني القـومي المحـافظ ، واستعادة سلطة الشاه ، سمح لشركات البترول الأمريكية أن ، تستولي على ٤٠ % من الحصة البريطانية مـن بترول إيران . ووصفت النيويورك تايمز بأنه خبر ممتاز ، على الرغم من أنه كلـف غاليـا كـل الاطـراف المعنية " وبالضرورة الجانب الإيراني " . وقالت إن على الجميع أن يتعلموا منه الكثيـر ، فيمـا لـو كـانوا

يستخلصون الدرس من الأحداث . وكان الدرس المطلوب تعلمه ، كما أوردته النيويورك تايمز بدون غمغمـة، وبكلمات تتصف بكامل الوضوح : من المستحسن للدول النامية التي تملك ثروات طبيعية هامة أن تتأمـل هـذا الحدث المثال . لو أنها اقتفت آثار هؤلاء الذين يتواجدون في ظهرانيها ، ويبشرون بالهذيان القومي، فـسيكلفها ذلك غاليا. وقد تحتاج هذه الدول إلى التجربة الإيرانية لردع أمثال مصدق من الذين يـسعون للوصـول إلـى السلطة. وتضع هذه التجربة أوراقا رابحة في أيدي القادة " المتنورين " الذين يواجهون الأمور بمنطـق يتطلـع إلى المستقبل البعيد، ويملكون فكرة واضحة عن " أولوياتنا ".

وجرى تطبيق هذا الاطار في مناطق محددة . كان فريق العمل الذي رأسه جورج كينـان عـام ١٩٤٩ ، لتخطيط سياسة وزارة الخارجية قد رأى أن لدول جنوب شرق آسيا وظيفـة جوهريـة هـي تزويـد اليابـان وأوروبا الغربية بالمواد الأولية ، وفتح أسواقها لهما . وقاد هذا الأمر إلى التدخل الأمريكي في الهند الصينية. كان الهدف محاصرة الاستعمار الفرنسي أولا ثم الحلول محله . وخشيت أمريكا أن يـصبح اسـتقلال فيتنـام بمثابة " فيروس " قومي ينتشر في كل جنوب شوق آسيا.

وأشارت وثيقة صادرة عن المخابرات المركزية في ١٣ أيار ١٩٦٥ إلى أنه في أي مكان لا نـتمكن فيـه من السيطرة المباشرة على القوات العسكرية وقوات البوليس ، على غرار نيكاراغوا بعد سـيموزا أو بانامـا ، يصبح من الضروري الإطاحة بالحكومة وإقامة نظام أكثر مسايرة ، وإحياء وتقوية " جـيش شـرعي " علـى غرار الحرس الوطني في نظام سيموزا ، الذي كان اكثر الانظمة تفضيلا لدى الولايات المتحدة .

وفي مجلة " نيشن " ، في عدد ١ حزيران ١٩٩٠ ؛ كتب ميشيل كلير ، تحت عنوان : عـسكرية الولايـات المتحدة تواجه الجنوب ، أن " الكليات العسكرية ، تقوم بتغيير برامجها لتلائم الاهداف المرسـومة . وهكـذا أعلنت كلية حرب الأسطول أن دراسة استراتيجيات الحـرب يجـب أن تـشدد علـى الحـرب " المدنيـة " ، والإرهاب ، والأزمات ضعيفة الشدة ، كغزو بناما مثلا . وتستدعي الأشكال الجديدة للصراع " المتوسط الشدة "، مع الأعداء الأقوياء في العالم الثالث ، انتباها خاصا ، لو أخذت بعين الإعتبار الحاجة الحيوية لبـسط سـلطة معنية على أقاليم أخرى ، ليبقى متاحا الوصول إلى الأسواق والمواد الأولية في المناطق البعيدة ".

نفس المسائل ، طرحها رئيس أركان البحرية ا . م . جراي ، فقد أعلن أن " نهاية الحرب البـاردة سـتعيد توجيه سياستنا الأمنية الخارجية ، دون تغيير الأسس ، وسيكون صراع الشمال والجنوب هـو الحـد الفاصـل الحتمي " .

قال غراي في مجلة الأسطول في أيار ١٩٩٠ :

" يجب ضمان وصولنا إلى الأسواق الاقتصادية في العالم كله ، دون عقبات ، وكـذلك إلـى المـصادر الضرورية لتأمين احتياجاتنا الصناعية . لذلك يتوجب علينا إيجاد قدرة موثوقة للتدخل المسلح ، مع قوى غـزو فعلية قادرة على تنفيذ طيف واسع من المهمات ، بدءاً من الرد على العصيان في الحرب النفـسية ، مـرورا بنشر قوات من كافة الاصناف . وعلينا أن نحترس أيضاً من التطور التكنولوجي السريع للسلاح الـذي يمكـن

أن تصل إليه القوى الاقليمية الجديدة في العالم الثالث . إذن ، علينـا أن نطـور قـدرات عـسكرية موجهـة مستثمرين تطبيقات الالكترونيات وعلم الموراثات والبيولوجيا الحيوية تريد أمتنا أن تؤكـد مـصداقيتها خـلال القرن المقبل " .

ولاحظ المؤرخ ريتشارد ليمرمان ، أن " القوة والأمن الأمريكيين ، اعتمدا على الوصـول إلـى أسـواق العالم ومواده الأولية ، وبشكل خاص العالم الثالث الذي توجب السيطرة عليه بشكل دقيق".

ولقد تأكدت الارادة السياسية للسيطرة على العالم ، وبكثير من الوقاحة بعد تدمير العراق . أمامنا وثيقتـان واضحتان جداً ، صدرتا عن البنتاغون . كتبت الوثيقة الاولى باشـراف بـول ولفـوفيتش ، وكتبـت الثانيـة باشراف الاميرال جيريميا ، الرئيس المساعد للجنة رؤساء الاركان . وهذه أربع مقاطع من الوثيقتين :

- الولايات المتحدة ، هي ، وبشكل قاطع حامية النظام العالمي ، وعليها أن تـضع نفـسها فـي وضـع تستطيع من خلاله التحرك بشكل مستقل عندما لا تتوفر ظروف العمل الجماعي أو في حالة وجود أزمـة مـا تستدعي القيام بعمل فوري .

- يهدف التحرك إلى منع قيام نظام امني أوروبي مستقل يكون قادرا علـى زعزعـة اسـتقرار حلـف الاطلسي .

- يجب استيعاب ألمانيا واليابان في نظام جماعي للأمن تقوده للولايات المتحـدة . العمـل علـى قهـر خصوم محتملين ، ما كان عليهم التطلع للعب دور أكبر .

ولتحقيق هذا الدور لابد لهذه القوة العظمى المنفردة أن تتمتع بقيادة خلاقة ، وقوة عسكرية كافيـة لاقنـاع أي أمة من الأمم ، أو أي مجموعة من الأمم أن تقلع عن تحدي تفوق الولايات المتحدة ، وأن تحسب حـسابا كافيا لمصالح الأمم الصناعية المتقدمة ، بقصد إثنائها عـن تحـدي القيـادة الامريكيـة ، أو وضـع النظـام الاقتصادي أو السياسي موضع خلاف .

هذا التسلط ، الذي بدأ بأكبر حملة عرقية ، وهي إبادة هنود أمريكا ، ثم استمر من خلال الـرق والتمييـز العنصري ضد السود ، وحماية طغاة أمريكا اللاتينية الاكثر دموية في العالم كله ، ثم على امتداد العالم كلـه ، من موبوتو في إفريقيا ، حتى ماركوس في الفليبين ، وارتكاب المجازر مثل يـوم القيامـة فـي هيروشـيما ، ومجزرة العراق ، وما ترتب على ذلك ، من خلال التدخل المباشر ، أو بواسطة قادة الانقلابـات العـسكرية ، من ضحايا انسانية لم يعرف مثلها التاريخ كله.

وسنكتفي بذكر بعض الفصول المعاصرة : في فيتنام سقط أربعة ملايين قتيل ، وفي تيمور الـشرقية ٢٠٠ ألف ، وكذلك ٢٠٠ ألف في أمريكا اللاتينية بواسطة " زبائن " أمريكا ، و٢٠٠ ألف فـي لبنـان دون أي رادع، بفضل استخدام حق الفيتو في مجلس الامن ، وهناك مئات الألوف في الفليبـين ، و٢٠٠ ألـف فـي أمريكـا الوسطى .

حتى الصحفيين الامريكيين الاكثر رزانة ، خلطوا في حساباتهم ، عندما رسموا ميزانـا لهـذه الجـرائم ، بين الدولار والاموات . نذكر منهم هاج سيدني الذي كتب رسالة إلى رونالد ريغن في مجلـة التـايمز حـول نيكاراغوا : " تقترب نتائج أحداث نيكاراغوا ، من تلك التي بحثت عنها الولايات المتحدة منـذ وقـت طويـل، في مسعاها للدفاع عن الحرية ، كانت الخسائر قليلة ، إذ لم تتعد ٣٠٠ مليـون دولار قـدمت مـساعدة إلـى الكونترا ، و٣ ، ١ مليون في الحرب الاقتصادية . لنقارن هذه الخسائر مـع خـسائرنا فـي فيتنـام : ٥٨٠٠٠ قتيل و ١٥٠ مليار دولار من النفقات ، وأمة غرقت في المرارة ، والهزيمة القاسية " .

وعن هذا المنحى الاخير الذي أصبح واضحا منذ غزوات كوريا ، والعراق والصومال ، وأماكن أخـرى، كتب دين أتشيسون ، وزير الخارجية مبشرا ومنذرا: إذا كانت سياستنا الواقعية ، قد أعطـت عهـودا للحفـاظ على تايوان ، وإذا كان علينا أن نتدخل عسكريا لحمايتها ، فسيكون ذلك مستترا تحت راية الامم المتحدة ، مـع النية المعلنة لدعم المطالب الشرعية للتايوانيين في حق تقرير المصير " .

وكان تشكيل فرق الموت ، ضد رجال الدين ، لخنق كل إحتجاج من أيـة جهـة جـاء ، الكثـر فاعليـة ومضاء.

ففي تشرين الثاني ١٩٨٩ ، وصف الاب يغناسيو ايلاكوريا رئيس جامعة الجزويت ، الـذي اغتيـل فيمـا بعد ، وصف السلفادور بانها " الحقيقة الممزقة بجروح تكاد تكون مميتة " . كان الاب ايغناسيو قريبا جدا مـن رئيس الاساقفة روميرو الذي كتب إلى الرئيس كارتر يشكو عبثا من عدم ايقاف المساعدات للفئـة الحاكمـة . وابلغ رئيس الاساقفة صديقه ايلاكوريا ان الباعث على رسالته ، كان المفهوم الجديـد " للحـرب الخاصـة " ، الذي تضمن الوقوف بحزم وبشكل مطلق ضد كل محاولة لانشاء تنظيم شعبي الغاء مطلقا بـدعوى الـشيوعية والارهاب .

وليست الحرب الخاصة ، التي يسمونها احيانا مقاومة العصيان ، وأحيانا أخرى صراعا ضعيف الـشدة ، أو أي تورية مشابهة من هذا النوع ، ليست الا ارهابا دوليا ، وهي السياسة الرسمية للولايـات المتحـدة منـذ زمن طويل ، إنها سلاح في ترسانة كبيرة تستخدم في مشاريع اجتماعية ـ سياسية ، أوسع مدى .

وهكذا ، في مارس ١٩٨٠ ، اغتيل المونسينور روميرو ، رئيس أساقفة السلفادور بينما كان يرعى قداسـا كنسيا . حدث هذا الاغتيال باسم الديمقراطية الامريكية الهادفة لاسكات كل احتجاج ، ولم يفاجئ هذا الاغتيـال احدا ، بعد أن كتب رئس الاساقفة لكارتر يدعوه لايقاف مساعدته للفئة الحاكمة ، مؤكدا له أن هذه المـساعدات تستخدم لدعم الظلم وممارسة الضغوط على المنظمات الشعبية المناضلة في سبيل احتـرام حقـوق الإنـسان الاساسية .

كان رئيس الاساقفة قد وضع اصبعه على المشكلة التي يجب التغلب عليهـا ، وهـي مـشكلة " التوريـة والتموية " والبيانات الغامضة الهادفة لاخفاء حقيقة الاحداث .

كان مطلبه الحصول على ضمانات من الولايات المتحدة ، أن لا تتدخل بشكل مباشر أو غير مباشر من خلال أساليب مراوغة للضغط الاقتصادي أو الدبلوماسي ، أو أي شكل آخر من الضغوط ، تعرض الشعب السلفادوري لمخاطر الفناء .

ووعدت الولايات المتحدة أنها ستعيد تقييم منح المساعدات للفئة الحاكمة إذا توفرت لها البراهين عن الاستخدام السيئ لها . واعقب هذه الوعود ، اغتيال رئيس الاساقفة ، وسحقت قوى الامن المنظمات الشعبية بشراسة وحشية منكرة ، على غرار ما حدث في مذبحة ريو سامبول ، التي وقعت في ظل صمت وسائل الاعلام المقهورة .

وجاء في مقالة لامريكاس واكش ، بمناسبة الذكرى العاشرة لاغتيال رئيس الاساقفة روميرو : " أوضح التقرير عن كتيبة أتلاكاتل استمرارية السياسة الامريكية . فجنود هذه الكتيبة قد دربوا على اطاعة أوامر رؤسائهم ، الذين يكلفونهم بمهمة اغتيال رجال الدين ، عمدا وبأعصاب باردة " واستعرضت المجلة الاعمال الدقيقة لهذه الوحدة المشكلة من " النخبة " التي دربتها الولايات المتحدة وجهزتها . وقد وصف بروفيسور يعمل في المدرسة الحربية الامريكية " في فورت بيننغ - جورجيا هؤلاء الجنود بانهم متوحشون بشكل خاص ، انه لامر سيئ أن نعلمهم كيف يسجنون الناس ، فكيف بالاخرى عندما يقطعون آذانهم " . وقد شاركت هذه الوحدة ، في كانون الأول ١٩٨١ في عملية قتل خلالها مئات من المدنية في حفل قتل صاحب رافقته عمليات اغتصاب وحرق . وقدر المكتب القانوني للكنيسة عدد الضحايا باكثر من ألف قتيل . وتتابع هذا الاسلوب ، فقصفت قرى ، ومات مئات من المدنيين ، معظمهم من النساء والأطفال والشيوخ حصدهم الرصاص ، أو اميتوا غرقا .

هذا هو باختصار ما سمي بالحرب الخاصة في السلفادور ، بدءا من العملية العسكرية التي جرت على نطاق واسع في أيار ١٩٨٠ ، عندما نبح ٦٠٠ مدني ، ومثل بجثهم في ريوسومبول . وقد اشترك في هذه المذبحة الجيشان السلفادوري والهندوراسي . وكشفت الكنيسة هذه المجزرة ، وتابعها المحققون في انتهاكات حقوق الإنسان ، وكتبت عنها الصحافة الاجنبية . أما وسائل الاعلام الامريكية ، فلم تتحدث عنها أبدا ، لانها شاركت عمليا في الحرب النفسية حسب الدور الذي رسم لها .

واكدت لجنة المحامين في رسالة إلى وزير الدفاع ديك تشيني ، في العشرين من نيسان ، بان قتلة الجزويت جرى تدريبهم من قبل القوات الخاصة الامريكية ، إلى ما قبل المجزرة بثلاثة ايام . وذهب الاب جون كورتينا ، عميد كلية العلوم في جامعة الجزويت إلى ابعد من ذلك - إذ أكد أن الجنود الامريكان الذين تخفوا بضعة ايام في فندق سان سلفادور ، خلال الحدث الذي أثار ضجة كبرى ، كانوا المدربين العسكريين الذين دبروا العملية . وقبل بضع سنوات وقعت مجازر أسوأ ارتكبتها وحدة الاتلاكاتل ، بعد تدريب عسكري امريكي .

بعد هذا الاستعراض لتاريخ الولايات المتحدة ، منذ عمليات النهب الأولى ، وعمليات ابادة السكان الاصليين - وانتهاء بعمليات السنين الاخيرة ، نجد من الضروري أن نضع كشف حساب لما اتفق على تسميته " بالديمقراطية الامريكية "، لنبدد الاوهام والاكاذيب . حول طبيعة الحرية التي تمنحها أمريكا لنفسها عبر العالم كله ، وكأنها الضامن لها أو الكفيل .

في البداية ، ولننطلق من داخل البلاد نفسها - نجد أن ما يطبع الولايات المتحدة عدم المساواة المتزايد في توزيع الثروة ، وينتج عن ذلك ، عدم المساواة في ممارسة السلطة .

في عام ١٩٠٠ امتلك ١/ ٨ من العائلات الامريكية ١٧ % من الثروة الوطنية . وكان جيمس تروسلو آدومز ، قد تحدث منذ بداية القرن العشرين ، وتحت عنون " عصر الديناصورات " عن السيطرة الوحشية للمجوعات المصرفية والصناعية الضخمة ، واصفا اياها بالعناكب الهائلة التي ظهرت في فيلم حديث ، مشكلة نوعا من الرمز المرعب للعالم الذين تطور منذ تلك العصور.

ولكن اللامساواة لم تتوقف عن النمو : فحسب تقارير البنك الدولي ، انخفضت حصة البلدان الفقيرة ، البلدان الاكثر فقرا من ثروات العالم من ٢٣ % إلى ١٨ % فقط ، وذلك بين عامي ١٩٨٠ و١٩٨٨ . كما سلط البنك الاضواء ، عام ١٩٨٩ ان انتقال الثروات من البلدان الاخذة في النمو إلى البلدان الصناعية قد بلغ مستوى جديدا ، فتسديد القروض قد تجاوز ٩ ، ٤٢ مليار دولار ، بزيادة ٣ مليار دولار بالمقارنة مع عام ١٩٨٨ أما حصة البلدان الغنية من رؤوس الاموال فقد انخفضت إلى ادنى مستوى خلال السنوات العشر الماضية .

أبرز الصحفي ديريك جاكسون في صحيفة " بوستون غلوب " هذه الحقائق ، ولفت الانتباه إلى ان اليونيسيف وضعت سويسرا في المرتبة الأولى لدخل الفرد ، قبل الولايات المتحدة التي جاء ترتيبها الثاني والعشرين ، بعد ايرلندا واسبانيا بينما كانت في المرتبة العاشرة عام ١٩٦٠ . أما ما يتعلق بالافارقة الامريكان فقد تضاعفت نسبة الوفيات عمليا بالنسبة للمعدل الوطني . وفي بوسطن وفي حي روكسبري ، المزدحم بالضرورة بالاقليات الاثنية ، وصلت النسبة إلى ثلاثة اضعاف المعدل الوطني ، وبذلك يصبح هذا الحي الذي ينتسب إلى الامة الاغنى في العالم بعد سويسرا، في المرتبة ٢٤ فيما يتعلق بوفيات الأطفال .

وأشارت دراسة أعدت عقب أحد المؤتمرات ونشرت في مارس ١٩٨٩ ، إلى أن عائدات دولة ترتيبها الخامس بين الدول الاكثر حرمانا تناقصت ٦ % ما بين عامي ١٩٧٩ - ١٩٨٧ وأما الدولة الاكثر غنى والتي ياتي ترتيبها الخامس بين الدول الغنية ، فقد ازداد دخلها بنسبة ١١ % . وتأخذ هذه الاحصائيات نسبة التضخم المبالغ المرصودة للمساعدات الاجتماعية . أما العائدات الفردية في الدولة التي تحتل المرتبة الخامسة بين الدول الاكثر حرمانا فقد انخفضت ٨ ، ٩ % بينما ارتفعت هذه العائدات في الدولة التي تحتل المرتبة الخامسة بين الدول الاغنى ، إلى ١٥ %.

ويعترف نفس التقرير بهذا " التمييز العنصري " الاقتصادي بقوله : إن الهوة التـي تفـصل الامريكـان الاغنياء عن الفقراء ، اتسعت خلال عقد الثمانينات إلى درجة أن المليونين ونـصف مـن الاغنيـاء سـيتلقون وحدهم عام ١٩٩٠ ، نفس حجم الدخول التي يتلقاها مئة مليون من الفقراء الذين يقعون في أسفل السلم .

وفي عام ١٩٩٦ ، أشار السيد جيمس جوستاف سبيث " برنامج الامم المتحدة للتنميـة " فـي مقابلـة مـع جريدة اللوموند ، إلى أن الفاصل بين البلدان الغنية والعالم الثالث يـستمر فـي الاتـساع . واسـتنكر سـبيث اسطورتين : الاولى وتتحدث عن أن العالم الثالث سيستفيد من النمو المتواصل ، والثانية التـي تتحـدث عـن القطاع الخاص كحل معجز لمشاكل التنمية .

أوضح السيد سبيث : هناك اسطورة أولى يجب التغلب عليها ، تتعلق بالعالم النامي ، وهـي الـزعم بانـه سينتقل من حسن إلي أحسن بفضل عولمة الاقتصاد في ظل قيادة الدول الخمس العملاقة . والحقيقـة أن دخـل الفرد الواحد في الكثر من مئة دولة هو اليوم اقل مما كان عليه قبل خمس سنوات . وبشكل أوضح فـإن ٦ ، ١ مليار انسان يعيشون اليوم في مستوى أسوأ مما كانوا عليه . ففي بداية الثمانينـات . وخـلال جيـل ونـصف اتسعت الهوة بين الدول الاكثر فقرا التي تشكل ٢٠ % من العالم ، والدول الاكثر غنـى التـي تـشكل ٢٠ % منه . أما اليوم فإن الفارق هو واحد إلى ستين ، على الرغم من أن الثروة العالمية قد ارتفعـت بـشكل عـام. ويقع العالم الثالث ضحية اسطورة مؤذية اخرى وهي الاعتقاد بان القطاع الخاص يتضمن الترياق لكل العـالم . وفيما عدا عولمة التبادل ، لا ينتظر من الاستثمارات الخاصة أن تقود بشكل طبيعي إلى خلق " عـالم متـساو " . وليس هناك من صلة بين احتياجات بلد ما والاستثمارات الاجنبية المباشرة داخـل هـذا البلـد . وكلمـات الخصخصة ، وتحرير الاقتصاد ، والتحلل من القوانين واللوائح ، وهي الكلمات السائدة في عالم الليبرالية فـي نهاية هذا القرن ، هي التي ستهل عمليات النمو ، ولكنه نمو يصاحبه فقر كبير وعدم مـساواة تـزداد عمقـا ، ومعدلات بطالة في حالة ارتفاع دائم .

وفي الجامعات ، ذات المستوى الارقى ، يسود قانون السوق ، ففيها يكلف الطالب أسرته ما بـين ١٠٠ - ١٥٠ ألف فرنك في السنة للحصول على شهادة دراسية واحدة . أما ما يخص تعليم عامة الـشعب ، " فنظـام التعليم الامريكي يسقط شظايا " كما ورد في التقرير الذي أعده اختصاصيون من جامعـة كولومبيـا (مجلـة الاقتصاد العالمي ١٩٩٠) . واعترف ٤٠ % من الفتيان الامريكان الذين أموا المدارس مثلا أنهم لا يعرفـون القراءة بشكل صحيح . إن ٢٣ مليون من اليافعين وفي موضوع الصحة ، تعد الولايات المتحدة ، فيما يتعلـق بالعيادات والمستشفيات ، ومراكز الابحاث من أفضل الدول في العالم . لكن نظامها الصحي يوحي بالكارثـة . فهي تعتبر في المرتبة الثانية والعشرين بين دول العالم في معدل وفيات الأطفال أما حـصة نفقـات الـصحة العامة ، فهي أدنى نسبة بين كل بلدان الديمقراطيات الغربية .

ويؤدي عدم المساواة إلى الغش والفساد . وتقدر الاجهزة المالية الامريكيـة ان ٢٠ % مـن الـضرائب الفيدرالية لم تسدد وقد بلغت عام ١٩٨٩ مئة مليار دولار . أما " الغرغرينا " فهي تنشط في قلب النظام نفـسه

فخلال عشر سنوات تمتد بين عامي ١٩٨٠ - ١٩٩٠ بلغ عدد القضاة الذين أدينوا بالتلاعب بالاموال العامة والفساد أعلى من عددهم في المئة وتسعين عاما السابقة من تاريخ الولايات المتحدة .

ولأن مقاييس اختيار الشخص الافضل ، هي دائما لصالح الاغنياء ، فانها تقود في النهاية إلى اعطائهم السلطة . وقد أكد جون جاي رئيس المؤتمر القاري والرئيس الأول للمحكمة العليا في الولايات المتحدة أن : " البلاد يجب أن تعطى لمن لملكها ". لقد وضع النظام السياسي ، شأنه في ذلك شان النظام الاجتماعي ، في خدمة مصالح الطبقة التي تحتكر الملكية .

أما السياسية التي تفترض أنها تنظم الدولة فقد دخلت في دوامة السوق ، فكل وظيفة لها ثمنها . فقد احتاجت الحملة الانتخابية لانتخاب أعضاء مجلسي الشيوخ والنواب عام ١٩٨٨ ، إلى ميزانية دعائية بلغت ٥٠ مليون دولار ، وهو ما يزيد عشر مرات عما انفق في انتخابات ١٩٧١ .

مثل هذه التناقضات بين الطبقة المتميزة المتجبرة ، وبين الطبقة المستعبدة ، تولد عنفا شاملا لا ضابط له، مع انفجارات فردية في الاطراف ، تعبر عنها أمثلة كثيرة . ففي نيويورك وحسب احصاءات الشرطة ، تقع في المتوسط عملية قتل كل أربع ساعات ، وتقع عملية اغتصاب كل ثلاث ساعات . وهناك محاولة اعتداء كل ثلاثين ثانية . ومع ذلك فنيويورك تقع في المرتبة العاشرة بين المدن الامريكية في معدل الجريمة. وفي عام ١٩٨٩ تم إحصاء ٢١ ألف عملية قتل في الولايات المتحدة ، وضمت سجونها أكثر من مليون سجين ، وثلاثة ملايين تحت المراقبة القضائية .

هذه هي تبعات اقتصاد السوق الوحشي ، حيث تسيطر، كما كتب هوبز ، عند فجر الرأسمالية ، حالة " حرب يشنها الجميع ضد الجميع " . إن منطق سوق بلا قيود ، مع ما يحمله من تضارب في المصالح بين الافراد والجماعات الذين لا يرون الا مصالحهم الخاصة ، هو الحقيقة منطق الحرب .

إن الازمة البنيوية في العالم الثالث هي ، بشكل خاص عميقة في أمريكا اللاتينية . والتورط الكثيف للولايات المتحدة في أمريكا الوسطى منذ عام ١٩٧٩ ، إنما كان نتيجة استراتيجية تنمية مبنية على زراعة موجهة للتصدير . وأدت هذه الاستراتيجية إلى هجرة المجتمع الريفي ، والى تبدلات عميقة في علاقة الفلاحين بالارض ، محطمة المجتمع التقليدي دون أن يحل محله تنظيم اجتماعي ثابت وقابل للاستمرار . ويعكس تحويل أمريكا اللاتينية إلى مجتمع مديني (في عام ١٩٦٠ كان يعيش ٤٩ % من السكان في المدن ، وارتفع الرقم عام ١٩٨٩ ليصبح ٧٠ %) بؤس التنمية الزراعية ، ويفسر انتقال الفلاحين إلى المدن المزدحمة مشكلين سكانا هامشيين . ونرى الحالة نفسها في العالم الثالث كله . ولم يتوقف عدم الاستقرار عن الاتساع منذ أعوام السبعينات التي اتصفت بالمديونية ، وانخفاض مستويات تبادل السلع غير المرتبطة بالطاقة " تقرير البنك الامريكي للتنمية ".

في عام ١٩٨٨ ، دفعت دول العالم الثالث ، المثقلة بالديون خمسين مليار دولار كفوائد ، ومبالغ سداد . ويفوق هذا المبلغ قيمة القروض التي تسلمتها هذه الدول .

فهل يستطيع أحد بعد هذه الجرائم وأعمال القرصنة أن يتهم أولئك الذين يفوضون هذه الجرائم ، بمعـاداة أمريكا لمجرد معاداتها ؟

نعم ، بشرط الاعتراف أن معاداة أمريكا تبدأ برفض الخضوع لها .

والسياسة الامريكية هذه ، سياسة عامة يتبناها كل من الحـزبين اللـذين يتبـادلان الحكـم . والحقيقـة ان الولايات المتحدة تقدم الصورة الاكثر وضوحا لحكم الحزب الواحد . إنه حـزب " الاعمـال " بـشقيه الـذين يدعيان من خلال التلاعب بالمعاني : الحزب الديمقراطي والحزب الجمهوري .

يلعب الحزبان لعبة الحمار والفيل ، ولا يملك أي منهما مشاريع انـسانية ، أو بـالاخرى لا يملكـان أي مشروع ما عدا مشروع تحقيق زيادة الاستهلاك والانتاج في بلادهم فقط ، على حساب الجميع دون مواربة .

لقد بدأ تدمير العالم ، في سبيل تأمين احتياجات الاقتصاد الامريكي ، بشكل طبيعي من أمريكا اللاتينيـة . وعلى كل أمة اليوم ، وفي العالم كله ، أن تعرف فيما إذا كانت ستصبح بورتوريكو جديدة ، دون أي مـشروع إنساني ، إلا مشروع الولايات المتحدة والاستسلام لها ، والخضوع لإرادتها .

ويظهر ذلك واضحا من عملية التفكيك الاقتصادي والسياسي والثقافي ، وحتى في أوروبا نفـسها ، حيـث يطلب من إنكلترا وفرنسا وإسبانيا وإيطاليا ودول أخرى ، وهي دول موقعة على معاهدة ما يستريخ أن تـصبح الركيزة الاوروبية لحلف الاطلسي إلى المدى الذي زودت فيه هذه الدول امريكـا بقـوات مـساندة لتـدخلها العسكري : من العراق ، إلى الصومال .

كي شيء في خدمة الغات (المنظمة العالمية للتجارة) والبنك الـدولي وصـندوق النقـد الـدولي ، هـذه المؤسسات التي تفرض على العالم الثالث التبعية السياسية وترهقه مقابل ديونه . ولكن هذه المؤسسات ، تقبـل دون ادنى اعتراض الاملاءات التي تفرضها الدولة الاكثر مديونية في العالم ، أي الولايات المتحدة .

فالى متى سيقبل العالم هيمنة بلد تبلغ الجريمة نسبة الجريمة فيه أعلى مستوى ، والذي تقرر فيه المحكمـة العليا (حزيران ١٩٨٩) جواز الحكم بالاعدام على الأطفال دون السادسة عـشرة مـن العمـر، وتنفيـذ هـذه الاحكام . ويطبق هذا القانون في ٢٤ ولاية، نفذ فيها منذ عام ١٩٧٢ أحكام الاعدام بـ ١٨٢ شخصا بواسـطة الكرسي الكهربائي أو الشنق أو غرف الغاز . وينتظر ٢٥٠٠ محكوم بالاعدام في زنزانـاتهم تنفيـذ الاحكـام فيهم .

وما هو أسوأ من ذلك ، في عصر تلعب فيه التقنية الاعلاميـة " وخاصـة التلفزيـون ، والالكترونيـات والاعلام السريع " دورا حاسما في تكوين الرأي العام ، وتصدير الثقافة الجاهزة التـي تغـزو العـالم كلـه ، مدمرة ثقافاته الخاصة ، ومسلسلات دالاس والديناصورات ، والمدمر ، ويوم الاستقلال وصـرعة مادونـا ، ورسوم روشنبرغ وكونينج ، وأفلام الكرتون الامريكية ومنافستها اليابانية التي لم يعد أبطالها " البلانش نـيج " وإنما بوبي ودونالد و " الاحجار المتدحرجة " التي تغرق فينسيا باطنان مـن الاحجـار وبأقـذار الـشوارع ،

والزعيق ، والرعاع ، والدهماء ، وموسيقى الروك بشدة ١٢٠ سيبل ، ليفجر كل ذلك ، وبلا حيـاء ، شاشـات التلفزيون والسينما والمدارس ، ولتجعل شبابنا ينسون أعمال رابليه وسرفانتس وشكسبير .

أصبحت مطاعم ماكدونالد والكوكاكولا والنوادي الليلية وديزني لاند رموز اللامعنى ، والنمطية في عـالم كان قد أبدع الرمايانا ومسرح الند " دراما غنائية يابانية " وأصالة الرقص الافريقي ، أو الـرقص الامريكـي الاصيل ، و ملحمة جلجامش وأشعار رامبو.

هل ستعني " الحداثة " النسيان والاحتقار والجهل والضلالة لحساب الامية الثقافيـة، والثقافـة الاخباريـة والممكننة ؟

وهل سيجعلنا كهان وحدانية السوق ووثنية المال نقبل أن يتحول " الأطفال الذهبيون " الـذين سـرعان مـا يبهت لونهم في أمريكا إلى حرس انحطاط ؟

هذه الحالة من الروح لم تتشكل فقط من واقع أن هذا الكوكب واسع وغني ، ولا من حقيقة أن أنهارا مـن الذهب جرت إلى أمريكا عبر الاطلسي بفعل الحربين الاوروبيتين ، بل لأن ذلك كله قد أوحى للطبقة الحاكمـة الامريكية بفكرة الفردية بلا حدود " كما كانت بلادها ذات يوم بلا حدود " ، وكذلك مـن حقيقـة أن الولايـات المتحدة تعيش فوق مستوى طاقتها بفعل استغلال العالم كله كما جرى في الماضي ، إذ لم يكفها آنـذاك ذبـح الهنود وطردهم . ويترجم هذا الواقع نفسه بحقيقة أن الولايات المتحدة ، البلد الاغنى في العـالم ، هـو البلـد الاكثر مديونية ، إذ يبلغ دينها العام ٣٠٠٠ مليار دولار ، كما أنها مدينة بمبلغ مماثل من الـديون الخاصـة ، أي ثلاثة أضعاف ديون العالم الثالث كله .

وليس اقل دلالة على انحطاط الروح ، من التقليد الذي يرجع إلى أيام مطـاردة الهنـود ، وهـو امـتلاك الاسلحة الفردية الخاصة ، وحتى الاوتوماتيكية منها ، والتي يبلغ عددها ، عدد سكان الولايات المتحدة .

وهذه الحالة نفسها نجدها لدى الشباب : وحشية العلاقات الإنسانية التي تظهر مـن خـلال عـدد الـشباب الذين يقتتلون فيما بينهم مستخدمين الاسلحة النارية . وقد تحدث التقرير الاخير " لصندوق الدفاع عن الأطفـال " ، وهو منظمة رئيسية لحماية الطفولة في الولايات المتحدة ، عن تصاعد الخـط البيـاني لوفيـات الأطفـال بسبب استخدام الاسلحة النارية . وذكر أن هذا الخط يرتفع باستمرار لدى الاطفال والمراهقين . وقد قتـل بـين عامي ١٩٧٩ _ ١٩٩١ خمسون ألف أمريكي تقل أعمارهم عن سـنة (٩٠٠٠ مـنهم أقـل مـن ١٤ سـنة) بالرصاص والحوادث والجرائم المختلفة . وارتفع خلال نفس الفترة معدل المعتقلين المتهمين بالقتل أو محاولة الانتحار ، من الذين تقل أعمارهم عن ١٩ عاماً ، ليصبح ٩٣ % وهم في غالبيتهم من الشباب الـذين قتلـوا أو جرحوا شبانا آخرين مثلهم .

وتشير الاحصائيات أن القتل يأتي في المرتبة الثالثة ، في أسباب موت المراهقين بعد الحـوادث (التـي لا يستخدم فيها السلاح) والسرطان .

ويقسم " تمييز اقتصادي " حقيقي أمريكا إلى قسمين . ففي هذه البلاد التي لا يأكل فيها طفل من أصل كـل ثمانية حتى حدّ الشبع ، يستمر ارتفاع معدل وفيات الأطفال ، في الاحياء الاشد فقراً ، متجاوزا معدلات بلـدان في العام الثالث مثل سيريلنكا وتشيلي وجامايكا وباناما .

وفي ظلال الكابيتول ، نواجه أحياء تقضمها كل أشكال الشرور المدينية : العنف ، والجنوح ، وآبـاء فـي سن المراهقة ، والبؤس ، وتدني مستوى المؤسسات التعليميـة . الجميـع فريـسة الخمـر ومختلـف أنـواع المخدرات القوية . وتملك واشنطن بالتأكيد أكبر ميزانية للمساعدة الصحية بين البلدان الاخرى ، إلا أن النظـام الصحي يدلنا أن الولايات المبكرة متكررة بشكل خاص ، بما فيها الاجهاض بعد بدايـة الـشهر الأول مـن الحمل ، وهو موعد بدء المساعدة الاجتماعية التي تقدمها الدولة . وبعد الخمسة عشر يومـا التاليـة ، يواجـه المرء نموذجا آخر من المشاكل ، إذ ليس هناك ما يكفي من النقود وبالتالي ، فليس هنـاك مـا يؤكـل . وقـد جرى اقتحام القبو الذي يستخدم كقيادة عامة لـ " مشروع الأطفال الاصحاء " (مجلة " التضامن الجديـد " ١٢ اكتوبر ١٩٩٤) .

ويمارس العنف المستوطن في هذه البلاد تخريبه ، حتى لأوقات الفراغ عند الشباب .

في عام ١٩٧٢ ، أسس الدكتور ريلمان مع أصدقاء له في منظمة عيادات آشبيري المجانية، مؤسسة باسـم " الروك ميد " ، أي طب الروك ، وهي مؤسسة طبية أعطت لنفسها واجب العناية الميدانية ، بـالجرحى الـذين يصابون أثناء حفلات الروك . وكتب الدكتور ريلمان ، وهو طبيب من كاليفورنيا الوصف التـالي لنـشاطه : " جعل فريق لارسن ، مدرجات ستاد ملعب كرة السلة في الجامعة الحكومية تهتـز ، كانـت أصـوات أوتـار الغيتارات تهدر كأنها ضربات تخبط الأرض التي غطاها موج هادر من الـشباب ، ينـضح مـنهم العـرق ، ويرمي بعضهم نفسه فوق البعض الاخر " . وفي إحدى الغرف الخلفية كان الدكتور ريلمـان ، وقـد ارتـدى قفازيه الطبيين ، يصنف الحوادث : " هذا هو شاب في الحادية والعشرين ، عاري الجذع ، وقد ظهـرت آثـار حديثة لعضات متعددة في الجمجمة . كانت ذراعه مكشوفه وعظم يده اليسرى مكسورا. وهذا شـاب آخـر ، منتصب القامة ويرتدي القميص الخاص بالاصلاحية الفدرالية ، وقد أصيبت عينه اليسرى بجرح دام " .

ويقدم الدكتور داف ، نفسه لزبائنه الجدد على أنه طبيب روك ، والختـصاصي باسـعاف الـذين يتلقـون ضربات مؤذية ، أو تشويهات أثناء حفلات الروك التي تجرى كل مساء . أما الأنوف المكسورة والكـدمات ، وإصابات الالتواء والخلع ، فهي مشاهد عادية في هذه الامسيات . وأمـا الجـروح ، والكـسور الخطيـرة ، فليست نادرة .

وفي أوروبا ، لا يسبب هذا النوع من الموسيقى عموما ، هذا الطوفان من العنف . ومع ذلـك ، فعنـدما أقيمت الحفلة الأولى لموسيقى الروك في ودستوك ، وعند إقامة العرض الاخير لفرقة بينك فلويد فـي سـاحة سانت مارك في فينيسيا ، تحول المشهد صباح اليوم التالي ، إلى مشهد مدينة قصفت بحاويات القمامة .

لن ننسى للحظة واحدة " أمريكا الاخرى " ، أمريكا امرسون وثورو ، وجون براون ، ولينكولن ، أمريكـا التي ثارت ضد الرق . ولكن " أمريكا الاخرى " هذه لم تستطع أن تفرض رؤيتها . فثورو انسحب مـن هـذا العالم بعد أن كتب " والدن أو الحياة في الغابة " ، انسحب كي يستمد من الطبيعة اتصالا مباشرا مـع ا كمـا قال صديقه امرسون . ولن ننسى انه عاد إلى المدينة، ليكتب هناك كتابه " العصيان المدني " ، الذي قـال عنـه غاندي انه استوحاه . لقد تحول كل هؤلاء إلى هامشيين أو ثوار : ثورو التجأ في البداية إلى أعمـاق الغابـة ، وعندما عاد إلى المدينة رفض أن يدفع الضريبة المتوجبة عليه ، لأنه " فقد وطنه " . أما ايمرسون فقد اسـتمد حكمته من الباجاتادجيتا ، على نهر الغانج ، وليس من نهر الباتوماك الذي يخترق واشنطن . أما لينكـولن فقـد اغتيل من قبل " المؤسسة أو النظام " .

ولن ننسى السلالة السوداء العظيمة التي أبرزت لنا وجوها رائعة بدئا من دوبوا إلى مارتن لـوثر كيـنج ، هذا الوجه الجميل الكامن في أعماق أمريكا والذي تألق ، ابتداء من القرن العشرين مع انبعاث حـي هـارلم . لن ننسى الشهود الكبار من السينمائيين مثل فورد الذي أخرج " عناقيد الغـضب " . ولا ذاك الـذي تجـرأ أن يفكك آليات مؤامرة اغتيال كينيدي ، ولا المخرج الذي أعاد تركيب مذبحة " الونـددني " التـي سـحق فيهـا الجيش الأمريكي مقاومة قبائل " سيو " .

لكن ما يبرز اليوم ليطغى على جزر المقاومة البطولية هذه ، هو أفلام العنف والرعب ، بعـدما حولـت أفلام " الغرب الأمريكي " مئة عام من الابادة العنصرية إلى ملحمة بطولية .

ولن نستطيع أن نقول شيئا عن فلسفة الولايات المتحدة ، حيث خنق النظام صـرخة الرجـال ، بالوضـعية والبراجماتية ، منحيا جانبا مشكلة الايمان ، وغايات الحياة .

ولن ننسى انجاز الراقصين الأمريكيين ، انطلاقا من تيدشون وروث سانت دينيس إلـى مارتـا غراهـام ، الذي جددوا هذا الفن وجعلوه يقول ما قاله شكسبير ، كل في لغته . لكن هوليود فضلت أن تروج لفرد اسـتر ، وجنجر روجرز ، لتمحو آثار هؤلاء العباقرة .

لنتذكر أخيرا أولئك الكتاب " الملعونين " ، بدءا من ادغار ألن بو ، الذي وجد نفسه مضطرا للهروب مـن عالم لا يحتمل العيش فيه إلى " فراديس مصطنعة " ، والى أشعار مضيئة كالجواهر السوداء في ليـل بهـيم ، أو أولئك الذين عكسوا بمهارة صدى العالم " الحقيقي " مع روايات توماس وولف ، أو مـن خـلال زعزعـة أسس حياة تحولت إلى مصيدة من " الضجة والغضب " ، بحروبها وتمييزها العنصري كمـا صـورها ولـيم فولكنر .

لن ننسى أبدا شيئا مما حمله ولنتزعه منا هذا الزحف الحاشد نحو الذهب الذي نشر الخراب والـدمار فـي أرجاء الأرض وحنايا الإنسان .

إن شعبا بلا ماض ، لا يستطيع أن يعطي إلا فنا بلا جذور . وحدها المجتمعـات المتجـذرة تـستطيع أن تعطي فنا حقيقيا . فخارج الفن الهندي الأمريكي ، الذي تحولت أعماله الخلاقة المبدعة إلى سبائك ذهـب ، إذ

أذلبها الغزاة الذين لا يقدرون من هذه الروائع إلا وزن الذهب الذي تحويه . إنه فن المايا ، والأنكا والازتـك ، أو ذلك الفن الاقدم الذي ترك لحسن الحظ شواهد من الفن المعماري الحجري ، والتماثيل ، نقول خـارج هـذا الفن ، نجد أن الابداعات الامريكية الوحيدة هي تلك التي حملت طابع الثقافات الاصلية :

ازدهار فن " البلو " ثم الجاز عن طريق زنوج لويزيانا . وازدهار " هارلم " فـي بدايـة القـرن الحـالي بشعرائه ، تلك المجموعة الاكثر حداثة من الفنانين الايطاليين الذين تجمعـوا حـول فرلينجتـي ، فـي سـان فرانسيسكو .

خارج هذه المحاولات البطولية ، التي يمكن أن نورد منها أمثلة متعددة أخرى ، أرادت القوة الاقتـصادية الامريكية المتطلعة لتحقيق تفوق ثقافي يعطيها هالة وتبريرا ، أن " تتفرد " بالنـسبة لأوروبـا، عـن طريـق الرفض والقطيعة .

وهي قطيعة أعطت عنها أوروبا في الماضي مثالا ، عندما أفلست قيمها الخاصة . فقد نـشأت حركـات التجديد الاوروبي الكبرى في الثقافة الاوروبية ، نشأت دوما من التكامل مع الماضي والتفوق عليه .

وليس هناك " انفصال " يمكن أن يتحول إلى تجديد حقيقي دون تمثل الماضي . أما الذين يحـاولون ، عبـر عمليات الابتزاز والارهاب الفكري أن يجعلوننا نقبل ، وعلى الاقل ، عن طريق التجـار والطبقـة المترفـة ، أسوأ الضلال الذي يزعمون انه " الحداثة " ، عليهم أن يتذكروا مصير رفض البورجوازيـة وسـخريتها فـي القرن الملضي من تجديد الانطباعيين وأن لا ينسوا أن كل محاولات التجديد الكبرى ، قد عرفت فـي البدايـة نفس الحكم : البؤس . في هذا البؤس نفسه سقط رامبرانت بعد أن امتنع عـن مداهنـة الفلامانـد الاغنيـاء ، وغرق إل غريكو ، قرنا كاملا في لجة النسيان لانه رفض أن يأخذ مكانه بـين الرسـامين المتملقـين لنـبلاء إسبانيا ، وكان قد أنجز معظم أعماله في معتزله في توليدو . أما مونيه ، فقد وقف في وجهه نقـاد المؤسـسة الذين دقوا ناقوس الخطر ، وقد أذاقوا الفنان المجدد الامرين . هذا هو جول كلارتي يتحدث في كتابه " الفنـان " ، عن هذا الطراز الوضيع الذي لا أعرف من أين التقط . أما ابنة تيوفيـل غوتييـه فتحـدثت فـي كتابهـا " الاستراحة " عن هذا الغوريلا الأنثي ، وتبعها ادموند آبو في كتابه " يوميات صـغيرة " صـائحا: رحمـة ا على السيد مانيه .. فقد لقيت لوحاته ما تستحق من السخرية .

لقد نسوا أيضاً نسخ لوحة " فينوس دوربين " لتيتيان التي نسخها مانيه عـام ١٨٥٦ ، والتـي علقـت فـي قصر الاوفيس في فلورنسا ، قبل أن يحول عام ١٩٦٣ الربة إلى مومس بلغة جديدة من الاولمب الخاص بـه، مما أثار غضب الإمبراطورة أو جيني .

لقد نسوا فان غوج ، وما أداه لاساتذه الفلاماند ، عندما رسم لوحة " آكلوا البطاطا " ، نـاقلا الرسـم مـن السماء إلى الأرض ، ومكتشفا بعد ذلك ـ في باريس ـ اللون القادر أن يتحدث عن الالم ، تحـف بـه ألـوان الشمس .

أما المجدد الاكبر بين التكعيبيين الذي نسى اسمه بسبب حياته القصيرة بالنسبة لمعاصـريه الـذين عاشـوا بعده ، مثل براك وبيكاسو ، ونعني به جوان جري ، الرائد الحقيقي للمدرسة التكعيبية التي أثرت في كـل مـا تلاها من مدارس فنية . فقد قال : تستند قيمة الفنان إلى كمية الماضي الذي يحمله بين جناحيه .

لقد رسم ماتيس تحت تأثير انجرس ، أما بيكاسو فقد كان بسهولة بوسان جديد . أمـا رنـوار فقـد درس جيدا لوحة " الفطور على العشب " ، قبل أن يرسمها معارضا بها لوحة " احتفـال الحقـل " ، لجيورجيـاني ، مسجلا ولادة الرسم الجديد .

وقبل أن يصبح ماتيس ، وماركيه ، مكتشفين أصيلين ، تعلما مهنتهما في مرسم جوستاف مورو الذي لـم يكن أقل حذلقة في رسومه لفيكتور هوغو من بونا في لوحاته للوزراء أو بـوجرو فـي لوحاتـه عـن لهـو الحوريات . أما الرسام بوفيه ، فقد اختصر تقييم سوق الفن بكلمات : " إن الجهالة في الرسـم أمـر واقـع : فبقدر ما تكون جاهلا بقدر ما تتقدم " .

إذن لا ضرورة لأن يتعلم المرء ، كيف يصور ، أو يرسم . المهم هو أن يدهش عبر خدعة جديدة (هكـذا كانت اللوحات " الجاهزة " لمارسيل دوشامب) . وكما يحدث لمووا التنظيف في محـلات الـسوبر ماركـت ، فالمهم هو الجدة بأي ثمن ، لأن المعايير مالية بحتة ، ولا دخل للجمالية فيها.

إن المعيار الوحيد هو مخالفة المألوف ، الذي يستطيع أن يجـذب تفـاخر الزبـائن المؤقـت ، ويحـضر استراتيجية التبذير للدخول إلى " سوق الفن " ، استراتيجية عبر عنها أحد التجار بقوله : يجـب علينـا أن نقـدم للأمريكي - وبكل الوسائل - ، فكرة شيخوخة العمل الفني . ويجب أن يـتعلم جـامعوا اللوحـات ، وضـع اللوحات القديمة في حاويات القمامة ، شأنها في ذلك ، شأن السيارات والثلاجات القديمة ، عندما يحـل محلهـا لوحات وسيارات وثلاجات من طراز أحدث .

لا يحدث مثل هذا الموقف ، إلا عندما قيم الماضي ، كما حـدث فـي الحـرب ١٩١٤ - ١٩١٨ ، هـذه الفترة الشاذة الدامية من بين كل الحقب ، والتي دفعت بالغزاة والمغزوين ، ثلاثين عاما إلى الوراء ، وبـذرت بذور كل الانظمة الفاشية . ومن قبيل السخرية بالصروح التذكارية لتخليد أموات الحرب ، قـام الـسيرياليون بتدشين مبولة عامة في قلب باريس ، وقام ماليفتش في الطرف الاقصى الثاني من أوروبـا بعـرض لوحـة " مربع أبيض على أرضية بيضاء " ، لكي يرمز إلى انتحار الحضارة والفن الذي يزعم انه يعبر عنها .

وعندما أعلنت الحرب كتب فلامينك ، معبرا عن انهيار العالم ، وأخلاقه ودينـه وفنـه : عنـدما انهيـت خدمتي العسكرية ، أعلنت ثورتي ضد القناعات قصيرة النظر لمجتمع خاضع لقوانين أنانيـة وضـيقة . وقـد دفعتني الحاجة للتعبير عن هذه الثورة إلى الكتابة والرسم . كانت أقل صدمة كافية لأن تفجر هذه المشاعر .

لقد فتح الرسم لي متنفسا ، وحالة من الثبات ، وبدونه ، أي لو لا هذه الموهبة ، لساءت حالي . إن مـا لـم أستطع أن أفعله في الحياة - كأن أفجر قنبلة مثلا مما كان سيقودني إلى حبل المـشنقة - حاولـت أن أحققـه

عن طريق الفن ، فن الرسم . ورضيت حينها عن ارادتي في تدمير قناعات قد شاخت ، و" أن أعـصي " كـي أخلق عالما آخر . هكذا كان الغضب الصافي وكانت حركة " الوحشيين " .

وبعد سنوات عدة ، وبزعم أنه يدفع هذه المغامرة - حسب تعبيره - إلي أقصاها لـم يحـتفظ جاكـسون بولوك إلا بالمظهر التقني لهذا التجديد ، ولما لم يكن لديه شيء يقوله عبر هذه اللغة الجديدة ، فقد أكـد أنـه " يعطي الصدفة مكانا بارزا وأساسيا ، فيمكن للمرء مثلا أن ينقط من عبوات دهان مثقوبة فوق قماش مفـروش على الأرض حتى ينتج لنا لوحة .

تم حصار السوق بهذا الانتاج ، وتحدث النقاد بزهو عن مدرسة جديدة هي مدرسة " الانطباعية التجريديـة " ، وعن التقنية الجديدة في " التنقيط " . وقد وصلت أثمان هذه السطوح الجعدة إلى أرقام غير معقولة .

وكي نعطي فكرة عن دور الفن في لعبة " الثقافة الحالية " التي خلقها البنك العالي ، والذي اجتـذب كـل قطاعات الحياة الاجتماعية ، نورد المثال الذي أورده دومسك في كتابه " فنانون بلا فن " : فـي عـام ١٩٩١ ، وفي صالة الفن العالمي الشهيرة " كريستي " ، عرضت للبيع لوحة للرسام كونينج ، الذي يعتبـر مـع بولـوك وماذورل الممثلين الاكثر اتباعا لهذه المدرسة " الانطباعية التجريديـة " ، بـسعر ٠٠٠ ، ٨٦٨ ، ٤٤ فرنـك ، وفي نفس الوقت عرضت اللوحات التالية بالاسعار المقابلة لها:

لوحة لرافاييل ٠٠٠ ، ٦٨٨ ، ٨ فرنك .

لوحة لتيتيان ٢٠٠ ، ٧٢٥ ، ٥ فرنك .

لوحة لإل غريكو ٩٢٠ ، ١٠٦ ، ١٢ فرنك .

لوحة لاتور ٠٠٠ ، ٩٩٥ ، ٤ فرنك .

وعرضت لوحتان لفيرونيز ، الأولى بسعر ٠٠٠ ، ٠٥٠ ، ٦ والثانيـة بـسعر ٠٠٠ ، ٤٧٦ ، ٥ فرنـك . كما عرضت لوحتان لبوسان الأولى بـ ـ ٠٠٠ ، ٥٤٠ ، ١ والثانيـة بـسعر ٠٠٠ ، ٣٢٠ ، ١ فرنـك . كمـا وقعت عملية مالية أكثر وضوحا ، لتكرس " انتصار الفن الأمريكي " ، (وهو عنوان كتاب لـساندلر ١٩٩٠) ، عندما نجح روشنبرغ مدفوعا برغبته في إخضاع السوق الاوروبية لسوق نيويـورك بالتعـاون مـع التـاجر ليوكاستيللي ومن خلال خطط خاصة بمثل هذا النوع من العمليات ، أن يحصل على جائزة بينالي فينيـسيا عـام ١٩٦٤ .

ويستحق فن البوب " البوب آرث " الذي راج في حينه أن يختصر : ففي عـام ١٩١٧ ، أرسـل الرسـام الفرنسي مارسيل دوشامب إلى جمعية " الفنانين المستقلين " ، مغسلة (وفي الحقيقة مبولة) ، كجـواب علـى لا معقولية العالم . فكل شيء لا معنى له ، وفي المقدمة : الفن .

وكان هذا الموقف أساس الحركة الدادائية عام ١٩١٩ ، التي تبرز خـواء وبطـلان المجتمـع . وكـرر دوشامب احتجاجه بعجلة دراجة وضعت وفوق تابوريه مع حمالة صحون ، ومشط صدئ .

وقد أعطى رد الفعل هذا ضد لا معقولية الحرب والعالم ، بالتضافر مع روشـنبرغ ووكليـه التجـاري المتجول ليوكاستيللي ، وتحال المجتمع الامريكي المزدهر اقتصاديا ، إلى ولادة الفن " الجـاهز " و " ألبـوب آرت " . أما الجدة التي استخدمت ، بعد سبعين عاما من التأخر ، فلم تكن إلا " خدعة بهلوانية " للإعـلان عـن بداية حقبة ، وليجعلا منها " مدرسة " و " أسلوبا " .

وقد ألصق روشنبرغ على قطعة من القماش عصفورا ملفوفا بالقش بصحبة ماعز ، بدعوى العـودة إلـى الواقعية العارية .

ولم يكن هذا التصدير لتفكك الفن ، كما هو تفكك المجتمع الامريكي ، إلى أوروبا يشكل فقط جهدا رئيـسيا لتحويل السينما من فن إلى صناعة ، بل قدم نمطا من الحياة ، يبدأ بعنصرية " الغرب الامريكي " ، حيث نجـد أن " الهندي الطيب " ، هو الهندي الميت ، أو المتعاون مع الغزاة ، وينتهي بأفلام الرعب التي تـصور وفـق تقنية مصطنعة " للمؤثرات الخاصة " ، التي تعتبر من خصائص هوليود ، ثم أفلام العنف مع مئـات الطلقـات النارية في الساعة الواحدة ، ليترجم ذلك كله تحال شعب ، وحضارة ، وفن .

وكانت إحدى تبعات هذا الدنس الثقافي القادم من الولايات المتحدة ، طليعة الانحطاط ، أن رفع هذا التخريب الهمجي للفن إلى مستوى " الفنون الجميلة " . وهكذا كان حال أعمدة بورن في القصر الملكي ، وتغليف : الجسر التاسع " الذي نفذه كريستو .

ففي ١٣ أيلول ١٩٨٢ ، بدأ تغليف الجسر بـ ٤٣٠٠٠ متر من الكتـان غيـر القابـل للاحتـراق وبـ ١١٠٠٠ متر من الحبال . إنه عمل ذهبي .. إنه أمر متميز . وكما قال الكاتب فيركور ، " كأنك تـذهب إلـى أثينا كي تستمتع بمبنى البانتيون فتجده مغلفا " . ولن تكلف هذه المهزلة دافعـي الـضريبة الباريـسيين إلا ١٩ مليون فرنك .

وقد خسر كريستو، ضيق النظرة ، نقطة امام بورين ، الذي نجح في نهب ما قيمته ٢٢ مليون فرنـك مـن أجل معرض لأجزاء من أعمدة مخططة في ساحة الشرف في القصر الملكي .

سواء جاء هذا الامر من اليسار أو اليمين فانه يتابع منطق معاداة الثقافة بثبـات : تـشويه بـاريس تحـت التأثير المشترك لوباء المنطق الامريكي ، وأرباح المضاربات في المشاريع المثقلة بالاعمال.

مارس الفن دوما ، وظيفة كبرى داخل الحضارات ، وهو ملتصق بشكل حميمي بالحقيقة والواقع ، ولكنـه يلعب فيها دورا محركا ، مثل دور الايمان عندما يكون أصيلا .

ويقدم الفن للإنسان صورته نفسه ، أو صورة العالم ، اللتين لا تستطيع رؤيته العادية أن تلتقطهما.

وكي لا نورد لا إلا مثالا واحدا من الأمثلة الشهيرة ، ونعني بذلك الاكثـر " توسـطا " بـين النكـرات ، سنكتفي بالاشارة إلى مثال آندي فارول ، باعتباره نموذجيا . فقد استخدم في تقنيات النـشر ، طريقـة الطبـع على الخشب ، مغيرا ألوان الحبر كي يضاعف لوحات البورتريه ـ روبوت لمارلين مونرو .

نحن هنا أمام نقيض الفن ، لا شئ يحمل الحقيقي الذي في داخله ، بل العكس ، يلصق بواسطة أدنى مستوى من ميكانيكية الاعلان التكراري ، حيث يكون الإنسان فيه غائبا . إنه يحمل نفس العنوان مثل " الكوكاكولا " و " ماك دونالد " .

وقلة من النقاد تجرأوا على قول : " إن الملك عار " .

عندما رعى مركز بوبورج (مركز جورج بومبيدو في باريس) معرضا استعاديا ، قيل إنـه جـذب ٨٠٠ ألف زائر ، وهو رقم يقترب من الارقام القياسية التي سجلها زوار مخازن " برينتامب " في فترة عيد الميلاد.

وبالمقابل ، يتكلم النقد الذي يتناول فن الخواء هذا ، والذي تدعوه المجلات المختصة " بـالفن المقـزم" ، يتكلم عن العمل الفني أقل مما يتكلم عن أهداف الفنان ، الذي يمنحونه الالقاب الاكثر فخامة : الفورتيـسيزم ، الاورفيزم ، جماعة كوبرا ، رسم تجريدي .. إلخ ، بينما كـان مـا عـرض علينـا مجموعـة مـن أعقـاب الزجاجات، أو كبة امتزج فيها الصوف بالخيوط وسموها سجادة .

لا شيء في هذا القرن يهدف إلى الايقاظ ، إنما إلى التخدير ، كما يجري فـي حفلـة موسـيقية تعـزف ألحانها بقوة ١٣٠ ديسبل (بينما تصبح الاذن فيزيولوجيا صماء انطلاقا من سماع صوت شـدته ٩٠ ديـسبل) . ودون التطرق لمسألة القيمة الموسيقية ، فإن سوناتا لشوبان تعزف بمثل قوة الصوت هذه سـينتج عنهـا نفـس الخدر في الوجدان والروح النقدية ، وخاصة إذا ما أضيف إليها المؤثرات الضوئية المنسقة التي تغمر الصالة لزيادة التأثير المخدر .

وتعاني الهندسة المعمارية نفس الوضع اللاإنساني ، بدلا من أن تكون إغناء لحياة المجتمع ، الذي يعـيش في عالم يرفع فيه " البونكس " عبارة " لا مستقبل " ، مكتوبة على قمصانهم . ففـي الـشارع نفـسه " شـارع بوبورج " الذي تنتصب في أفقه كنيسة نوتردام ، تبرز أنابيب ملونة توحي وكأن المرء يشاهد مصنعا لمعالجـة النفايات .

هذا الوسواس ، وسواس التجديد من أجل التجديد ، يقود في كل الاصقاع ، إلى الغاء فكرة التجديـد مـن حضارة الإنسان .

إن حداثة البوب آرت ، و " الموجة الجديدة " ، و " الرواية الجديدة " ، كلها زائلة ، شأنها في ذلـك شـأن انتشارها الفوري ساعة ولادتها . ويحمل التجديد في كل هذه الميادين قاسما مشتركا ، مع الاقتصاد المـسيطر. وقد وضع أحد الخبراء مسألة التجديد هذه على الشكل التالي : إن ما هو ضروري إفراغ المسألة الفلسفية مـن الغائية . (ميشيل ألبرت ـ الرأسمالية ضد الرأسمالية).

هكذا ولد ما دعاه جيل ليبوفسكي بـ " فن الخواء " .

لكن هذه الجريمة ليست جريمة الشعوب إنها جريمة المؤسسات والقادة ، فليس هناك إطلاقا شعب سـيئ ، إنما هناك شعوب مخدرة .

فالشعب الألماني الذي قدم هذا العدد الهائل من المبدعين العباقرة في مجالي الثقافة والإيمـان ، فـأغنوا حياتنا ، هو نفسه الذي حُشر خمسة أعوام داخل تعاويذ الموت .

تميل الديماغوجيا ، التي تتحدث عن " الشعب المختار " ، لجعل الامريكيين ينسون ماضـيهم ، مـن أجـل متابعة استخدامهم ، عن طريق " الفاليوم " الجماعي المتمثل بالتلفزيون والسينما والصحافة ، فـي مغـامرات جديدة لمجموعة " الصناعة - العسكر " ، التي تتعاظم قوتها وغناها علـى حـساب البـؤس ، وعـن طريـق الهيمنة العسكرية والاقتصادية على العالم .

إن نفاق سادة القارة يجسد استمرار مأساويا منذ أن كتب كريستوف كولومبوس إلـى ملـك إسـبانيا : " إن الذهب هو أثمن الممتلكات طرا ، ومن يمتلكه يمتلك كل شيء يحتاجه في هذا العالم ، وكذلك هو وسيلة لإنقـاذ الارواح من المطهر " . إنها استمرارية تمتد حتى زمن رونالد ريغن .

ادعى رونالد ريغن أن ازدهار الولايات المتحدة وقوتها ، برهان على أن الأمريكيين " أمة باركهـا ا " . وقد تجرأ رجل دين إسباني فأعتبر هذا الكلام تجديفا، لأن غنى وقوة الولايات المتحدة ، لم يأتيا مـن مباركـة الإله ، بل من استغلال العالم ، والعالم الثالث بشكل خاص ، عن طريق التبادل غير المتـساوي ، والاسـتيراد القهري للمنتجات الأمريكية ، وغزو الرساميل بالمليارات ، وانخفاض الأجور، ومن خلال المكاسب الربويـة " للقروض " .

هذا هو ميزان خمسة قرون من الاستعمار ، وخمسين عاما من بريتون دودز ومعه " مصرفه الـدولي " ، وصندوق النقد الدولي ، ثم منظمة التجارة العالمية . إن علامة " الصليب " ما انفكت ترسـم علـى مقـابض السيوف ، وكأنها وثن من الذهب والموت .

هذا من ذاك ، ولا ينتج إلا من ذاك .

الهوامش

- توكفيل (١٨٠٥ - ١٨٥٩) ، كاتب وسياسي فرنسي ، درس في الولايات المتحـدة نظـام العقوبـات فيها، وعاد إلى فرنسا بكتاب سياسي هام بعنوان " الديمقراطية الأمريكية ". عمل وزيـرا للخارجيـة الفرنـسية ونشر عام ١٨٥٦ كتابا بعنوان " النظام القديم والثورة " .

- جاء في الاصحاح الأول لسفر يوشع :

" وكان بعد موت موسى أن الرب كلم يوشع بن نون خادم موسى . موسى عبدي قد مات فالآن قم اعبـر هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب التي أنا معطيها لكم ، أي لبني إسرائيل ، كل موضع تدوسه بطون أقـدامكم، لكم أعطيته كما كلمت موسى ، من البرية ، ولبنان هذا ، إلى النهـر الكبيـر، نهـر الفـرات ، جميـع ارض الحثيين ، والى البحر الكبير . نحو مغرب الشمس يكون تخمكم ... قال يوشع : بهذا تعلمون أن ا الحي فـي وسطكم ، وطردا يطرد من أمامكم الكنعانيين والحثيين والحـويين والفـرزيين والجرجاسـيين والأمـوريين واليبوسيين " .

البيوريتانية Puritantaiasm ، أو الطهرية ، جماعة بروتستانية نشأت في انكلترا ونيوانجلند في القرنيين السادس عشر والسابع عشر . طالبت بتبسيط طقوس العبادة ، اتصفت بالتزمت الشديد.

ـ كوكلكس كلان : اسم يطلق على منظمتين إرهابيتين في الولايات المتحدة . نشأت الأولى عام ١٨٦٦، في الجنوب الأمريكي عقب الحرب الأهلية ، ونشأت الثانية في القرن العشرين متخذة لنشاطها مناطق جغرافية أوسع . هدفت المنظمة الأولى للدفاع عن سيادة الرجل الأبيض وقامت بأعمال إرهابية ، بقصد إخافة السود من ممارسة حقوقهم المدنية والانتخابية ، عن طريق الضرب والتعذيب وإشعال الحرائق ، وأعمال الشنق بدون محاكمة ، وكان من أهدافها حماية المرأة البيضاء من رجس الرجال السود . واتخذ قادة المنظمة الإرهابية أسماء خرافية مثل : الإمبراطورية الخفية ، ساحر الإمبراطورية الأعظم ، والتنين الأعظم، والجبار الأعظم .

تأسست المنظمة الثانية عام ١٩١٥ في جورجيا الأمريكية باسم فرسان الكوكلكس كلان . كانت عضويتها متاحة لكل أمريكي أبيض بروتستانتي . لقيت الأزمة تأييدا واسعا مع الأزمة الاقتصادية التي أعقبت الحرب العالمية الأولى ، وازدادت المنظمة تزمتا وتعصباً للرجل الأبيض . وقامت بأعمال إرهابية ، فمارست الخطف والتهجير ، والجلد ، وإشعال الحرائق ، والتشويه الجسدي وبتر الأعضاء ، والقتل . بلغ عدد أعضاء المنظمة عام ١٩٢٤ أكثر من ستة ملايين شخص .

وازدهرت المنظمة في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، رغم صدور تشريعات تحد من نشاطها ، وقد عمدت للإفلات من هذه التشريعات إلى اتخاذ أسماء مختلفة ، وقيادات جديدة ، وتاكتيكات جديدة .

ـ مارتن لوثر كينج (١٩٢٩ ـ ١٩٦٨) ، قس أمريكي أسود ، كان يعمل في سبيل توحيد السود في أمريكا واستخلاص حقوقهم . اغتيل عام ١٩٦٨ ، وحاز على جائزة نوبل للسلام عام ١٩٦٤.

ـ سيمون بوليفار (١٧٨٣ ـ ١٨٣٠) ، أحد أبطال الحرية في أمريكا الجنوبية . حرر فنزويلا وغرانادا الجديدة وأعلن استقلالهما عن الاتحاد الاسباني ، ووحدهما مع الاكوادور مشكلا " جمهورية كولومبيا الكبرى "، حاول أن ينشئ اتحادا بين دول أمريكا اللاتينية .

ـ نعوم شومسكي : ولد عام ١٩٢٨ لغوي أمريكي ، من كتبه : الإيديولوجيا والسلطة وردع الديمقراطية.

ـ بنيامين فرانكلين (١٧٠٦ ـ ١٧٩٠) ، أحد مؤسسي الاستقلال الأمريكي ، وعضو بارز في الحركة الماسونية الفرنسية ، له إنجازات علمية وصناعية وخاصة في ميدان الكهرباء .

ـ جورج واشنطن (١٧٣٢ ـ ١٧٩٩) ، أول رئيس للولايات المتحدة الأمريكية . خدم في الجيش الانكليزي في حرب السبع سنوات ضد فرنسا ، ثم قاد الجيوش الأمريكية ضد انكلترا .

ايروكواز : شعوب هندية كانت تسكن في جنوب شرق بحيرات إيرية ، وأونتاريو ، شكلت فيما بينها اتحادا كونفيدراليا باسم الأمم الخمسة . قاتلوا الفرنسيين حتى عام ١٧٠١ .

توماس جفرسون (١٧٤٣ ـ ١٩٢٦) ، الرئيس الثالث للولايات المتحدة ، يعتبر الواضع الرئيسي لوثيقة إعلان الاستقلال .

ـ جون كينزي آدامز (١٧٦٧ ـ ١٨٤٨) ، الرئيس السادس للولايات المتحدة (١٨٢٥ ـ ١٨٢٩).

ـ جيمس مونرو (١٨١٧ ـ ١٨٢٥) ، رئيس الولايات المتحدة واضع ما اشتهر باسم مبدأ مونرو . يقضي هذا المبدأ بمنع أوروبا من التدخل في شؤون القارة الأمريكية ، ومنع إسبانيا من العودة ، معتبرا عودة الإسبان إلى القارة بمثابة تهديد لسلامة وأمن الولايات المتحدة .

ـ حرب الافيون (١٨٤٠ ـ ١٨٤٢) ، انفجرت بين الصين وبريطانيا، بعدما منعت الحكومة الصينية شركة الهند الشرقية من توريد الأفيون إلى الصين . وانتهت الحرب بمعاهدة نانكين ١٩٤٢ التي أمنت لبريطانيا امتيازات كبيرة منها فتح خمسة موانئ وجزيرة هونغ كونغ أمام السفن البريطانية ، والسماح بقدوم البعثات التبشيرية إلى الصين .

ـ المحميات : مساحات من الأرض ، استثنيت من الاستيطان الأبيض ، ليسكنها الهنود الأمريكيون وكانت هذه المحميات تنشأ بعد عمليات الغزو . ويزود الهنود في هذه المحميات بمساكن ومساحات محدودة من الأرض لزراعتها ، ويوضع سكانها تحت مراقبة الحكومة . ابتدئ بتطبيق هذا النظام منذ بداية الفترة الاستعمارية في أمريكا . واعتبرت هذه الاجراءات عام ١٧٨٦ سياسة وطنية . يدير المحميات إدارة الشؤون الهندية . وهي جزء من وزارة الداخلية . وفي عام ١٩٢٤ أصدر الكونغرس قرارا باعتبار الهنود الذين يولدون داخل الولايات المتحدة أمريكيين .

ـ بيرل هاربر : ميناء أمريكي في جزر هاواي ، وقد تعرض فيه الاسطول الأمريكي في المحيط الهادي إلى غارة يابانية مفاجئة ، في ٧ كانون الأول ١٩٤١ . وقد اعطى تدمير الاسطول ، الرئيس الأمريكي الحجة للتدخل في الحرب العالمية الثانية .

ستالينغرد : مدينة روسية اشتهرت بصمودها البطولي في وجه قوات هتلر (الجيش السادس) ، وانتصارها بعد معارك ضارية بدءا من عام ١٩٤٢ . ويعتبر انتصار ستالينغراد عام ١٩٤٣ (شباط) ، نقطة تحول في مجرى الحرب على الجبهة الروسية .

الحركة الفاشية الايطالية : حركة سياسية سادت إيطاليا ما بين عامي ١٩٢٢ ـ ١٩٤٣ بقيادة موسوليني (١٨٨٣ ـ ١٩٤٥) الذي هزمت قواته في الحرب العالمية الثانية .

غزو الحبشة (١٩٣٥ ـ ١٩٣٦) ، شكل المستعمر الايطالي من الحبشة واريتريا والصومال ، ما عرف باسم أفريقيا الشرقية الايطالية . في عام ١٩٤١ ، دخلت القوات المشتركة الانجلو ـ فرنسية الحبشة وأعادت هيلا سيلاسي إلى السلطة .

ـ المارشال بادوغليو (١٨٧١ ـ ١٩٥٦) ، حاكم ليبيا في ظل الاستعمار الايطالي (١٩٢٨) ، ونائب الملك في أثيوبيا (١٩٣٨) ، ورئيس الحكومة الايطالية بعد سقوط موسوليني . فاوض الحلفاء وعقد معهم هدنة عام ١٩٤٣ .

ـ الجنرال بيتان (١٨٥٦ ـ ١٩٥١) ، عسكري فرنسي ارتبط اسمه بانتصارات عديدة في الحرب العالمية الأولى . عين رئيسا للحكومة عام ١٩٤٠ .وهي الحكومة المعروفة باسم حكومة فيشي . حكم عليه بالإعدام عام ١٩٤٥ ، واستبدل بالنفي المؤبد .

ـ الاميرال دارلان (١٨٨١ ـ ١٩٤٢) ، أميرال فرنسي تعاون مع الجنرال بيتان . وخلفه في منصبه عين في شمال أفريقيا بعد إنزال ١٩٤٢ . اغتيل في الجزائر .

ـ الدمورو (١٩١٦ ـ ١٩٧٨) ، رئيس الحزب الديمقرطي المسيحي في إيطاليا ووزيرا للخارجية . ورئيسا للحكومة الإيطالية مرتين ، اغتيل عام ١٩٧٨ من قبل رجال المافيا الإيطالية .

ـ فرانكين روزفلت (١٨٨٢ ـ ١٩٤٥) ، رئيس الولايات المتحدة (١٩٣٦ ـ ١٩٤٤) ، عمل على اشتراك الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية (١٩٤١) ، وضع خطة اقتصادية جديدة لتنشيط الاقتصاد الأمريكي .

ـ مؤتمر كازابلانكا : ١٩٤٣ أو مؤتمر الدار البيضاء ، عقد بين روزفلت وتشرشل .

ـ مؤتمر يالطا ٤ ـ ١١ شباط ١٩٤٥ على البحر الأسود . حضر المؤتمر كل من تشرشل ورزفلت وستالين لتنظيم أوروبا بعد الهزيمة الألمانية المرتقبة وحل مشاكل ما بعد الحرب ، وتحديد منطقة نفوذ الاتحاد السوفيتي في أوروبا .

ـ وارن هاردينج (١٨٦٥ ـ ١٩٢٣) ، سياسي أمريكي من الحزب الجمهوري ، أصبح رئيسا للولايات المتحدة (١٩٢١ ـ ١٩٢٣) ، عرف بمناصرته لسياسة العزلة والحماية .

ـ هنري ديفيد ثورو (١٨١٧ ـ ١٨٦٢) : كاتب أمريكي تأثر بامرسون والتراث الهندوسي والمثاليين الألمان . كتب نثرا متأثرا بشدة بلغة العامة . أشهر كتبه " والدن أو الحياة في العناية ".

ـ جورج مارشال (١٨٨٠ ـ ١٩٥٩) : جنرال أمريكي ، أصبح وزيرا للخارجية في عهد ترومان ، أعطى اسمه للخطة الأمريكية ، لإعادة بناء الاقتصاد الأوروبي الغربي .

ـ جيمس ترسلو آدامز (١٨٧٨ ـ ١٩٤٩) ، مؤرخ أمريكي ، من أهم كتبه مسيرة الديمقراطية.

ـ روشبنرغ : رسام أمريكي ولد عام ١٩٢٥ جمع بين الانطباعية والتجريدية وفن البوب ، مستخدما النفايات والتصوير الفوتوغرافي ، والتكنولوجيا .

ـ كونينج ولد عام ١٩٠٤ من أبرز رسامي المدرسة التعبيرية في أمريكا .

ـ رالف أمرسون (١٨٠٣ ـ ١٨٨٢) فيلسوف أمريكي مؤسس مذهب التعالي في أمريكا من كتبه " ملامح الشخصية البريطانية " .

ـ جون براون (١٨٠٠ ـ ١٨٥٩) ، زعيم أمريكي ، أعدم شنقا بسبب دعوته السود لحمل السلاح ضد الاضطهاد الأبيض ، وإلغاء الرق .

ـ باجافا دجيتا :

ـ نهر الجانج : نهر ينبع من جبال الهملايا ويصب في الخليج البنغال وفي هذا النهر المقدس يغتسل الحجاج الهنود .

ـ نهر بوتوماك : نهر يمر بواشنطن ويصب في خليج شيزابك ٦٤٠ كم .

دوبوا (١٨٦٩ ـ ١٩٦٣) ، عالم اجتماع وسياسي أمريكي ، ممن حملوا لواء الدفاع عن الزنوج في الولايات المتحدة . أسس حركة التضامن مع أفريقيا .

ـ موريس فلامينك (١٨٧٦ ـ ١٩٥٨) ، رسام فرنسي من رواد المدرسة الوحشية .

ـ جاكسون بولوك (١٩١٢ ـ ١٩٥٦) ، رسام أمريكي يعتبر أحد زعماء المدرسة التعبيرية التجريدية .

تيتيان (١٤٨٨ ـ ١٥٧٦) ، رسام إيطالي . تأثر باستاذه جيورجيوني . ترك أثرا كبيرا على الفن الأوروبي .

ـ فيرونيز (١٥٢٨ ـ ١٥٨٥) ، رسام إيطالي من أبرز رسامي مدرسة فينيسيا . اشتهرت رسومه بالحركة وغنى الألوان المشرقة .

تيد شون (١٨٩٥ ـ ١٩٥٨) ، فنان أمريكي مجدد اهتم برقص الرجال ، وأسس مع زوجته أسلوبا متميزا في الرقص .

ـ روث سانت دينيس : راقصة أمريكية مجددة في بداية القرن العشرين كانت تؤمن بالمصادر الروحية للرقص . وقد تأثرت بالرقص الديني في الشرق . تزوجت من تيد شون .

ـ مارتاغراهام : راقصة بالية أمريكية . إحدى رائدات الرقص الحديث في الولايات المتحدة .

ـ فريد استر : ولد عام ١٨٩٩ راقص أمريكي ، اشتهر في الخمسينات عمل في السينما والتلفزيون .

ـ جننجر روجرز : موسيقي أمريكي اشتهر في أواسط القرن بمسرحياته الكوميدية الغنائية ، نقل عدد منها إلى السينما .

ـ ادغار آلن بو (١٨٠٩ ـ ١٨٤٩) ، شاعر وكاتب أمريكي يعتبر من أشهر كتاب القصة القصيرة .

ـ توماس وولف (١٩٠٠ ـ ١٩٣٨) ، كاتب رواية ومؤلف للسيرة الذاتية .

ـ وليم فولكنر (١٨٩٧ ـ ١٩٦٢) ، كاتب أمريكي اهتم بالتحليل النفسي والرمزية . استخدم الجنوب الأمريكي ميدانا لرواياته . حائز على جائزة نوبل .

ـ رامبرانت (١٦٠٦ ـ ١٦٦٩) ، رسام هولندي يعتبر واحدا من أساتذة الفن الكبار في العالم .

ـ إل جريكو (١٥٤٨ ـ ١٦١٤) ، رسام إسباني في أعماله نبرة صوفية واتقاد روحي .

ـ ادوارد مانيه (١٨٣٢ ـ ١٨٨٣) رسام فرنسي يعتبر أحد رواد المدرسة الانطباعية .

ـ تيوفيل جوتييه (١٨١١ ـ ١٨٧٢) : شاعر وروائي فرنسي ، يعتبر من أركان المدرسة البرناسية .

ـ ادموند آبو About (١٨٢٨ ـ ١٨٨٥) ، عالم آثار وكاتب فرنسي له عدد من الروايات .لقي نجاحا كبيرا في زمانه .

ـ الامبراطورة أو جيني : امبراطورية فرنسا (١٨٥٣ ـ ١٨٧٠) زوجة نابوليون الثالث .

ـ فان غوخ (١٨٥٣ ـ ١٨٩٠) ، رسام هولندي يعتبر من أعظم الرسامين في كل العصور .

ـ جورج براك (١٨٨٢ ـ ١٩٦٣) ، رسام فرنسي أسس مع بيكاسو المدرسة التكعيبية ، اشتهر برسوم الطبيعة .

ـ بابلو بيكاسو (١٨٨١ ـ ١٩٧١)، رسام ونحات إسباني ، يعتبر أغزر فناني القرن العشرين إنتاجا وأكثرهم إبداعا .

ـ جوان غري (١٨٨٧ ـ ١٩٢٧) ، رسام إسباني عاش في باريس منذ عام ١٩٠٦ ، التزم المدرسة التكعيبة منذ عام ١٩١١ ، ويعتبر من روادها .

ـ جان انجرس (١٧٨٠ ـ ١٨٦٧)، رسام فرنسي يعتبر أحد زعماء المدرسة الكلاسيكية الفرنسية.

ـ نيكولاس بوسان (١٥٩٤ ـ ١٦٦٥)، رسام فرنسي تعكس معظم أعماله تأثير تيتيان ،عني بتصوير الموضوعات الدينية والرمزية .

ـ رنوار (١٨٤١ ـ ١٩١٩) : رسام فرنسي ، يعتبر أحد أبرز ممثلي المدرسة الانطباعية .

ـ ماتيس (١٨٦٩ ـ ١٩٥٤) : رسام فرنسي من المدرسة الوحشية يعتبر من ألمع رسامي في القرن العشرين تنتشر لوحاته في متاحف العالم .

ـ ماركيه (١٨٧٥ ـ ١٩٤٧) رسام فرنسي من المدرسة الوحشية .

ـ مورو (١٨٢٦ ـ ١٨٩٨) ، رسام فرنسي أستاذ ماتيس وماركيه .

ـ ليون بونا (١٨٣٣ ـ ١٩٢٢) رسام فرنسي اشتهر بلوحات البورتريه .

ـ برنارد بونيه ولد عام ١٩٢٨ رسام فرنسي معاصر .

ـ مارسيل دوشامب (١٨٨٧ ـ ١٩٦٨) رسام فرنسي أحد مؤسسي المدرسة الدادائية والمدرسة السوريالية .

ـ مالفيتش (١٨٧٨ ـ ١٩٣٥) ، رسام فرنسي أوجد شكلا من التجريدية عرف باسم (السوبرماتزم)، بلغ أوجه في لوحته : مربع أبيض على أرضية بيضاء " (متحف الفن الحديث في نيويورك) .

ـ الانكا: تصور السينما الأمريكية الهنود الأمريكيين وكأنهم مجموعات بدائية مبعثرة في أرجاء القارة بغية تبرير عمليات الابادة . لذلك نورد فيما يلي لمحة موجزة عن إحدى الشعوب الهندية الأمريكية وهو شعب الانكا : قبائل هندية في جنوب أمريكا ، يعود تاريخها إلى ١٠٠٠ عام قبل الميلاد ، حيث كانوا يقطنون البيرو، وقد أسست في أواسط الألف الثاني بعد الميلاد امبراطورية ، وصلت أوجها خلال حكم هوينا كاباك

(١٤٨٧ ـ ١٥٢٥). حيث وصلت إلى ما يعرف اليوم بالاكوادور وفي الجنوب التـشيلي ، كمـا امتـدت مـن المحيط الهادئ إلى منابع الامازون ونهر البارغواي ، وبلغ عدد سكان هذه الامبراطورية ٦ ـ ٨ مليون نـسمة . غزاها الاسبان بقيادة المغامر الإسباني في فرانسكيو بيزارو عام ١٥٣٢ الذي أعدم الامبراطور عـام ١٥٣٣ غدراً ، وعين ابنه خلفا له .

وكانت سياسة بيزارو وخلفاؤه الاسبان قاسية جداً وتميزت بالاضطهاد .

بلغ الانكا مستوى حضاريا لم تبلغه أية أمة هندية في الأمريكيتين . كانت مملكة الانكـا ديمقراطيـة فـي الحكم ، اشتراكية في التنظيم الاجتماعي تعتمد على الزراعة ، يحكمها الانكـا نـصف الـسماوي ، تـساعده الأسرة المالكة ثم الطيف الارستقراطي ، ثم الادارات الامبراطورية ويليها صغار النـبلاء ، ثـم الحرفيـون والمزارعون ، وكانت الامبراطورية مقسمة اداريا إلى أربعة اقاليم ، وقسمت الاقاليم إلى وحيـدات متدرجـة في الصغر ، كان أصغرها الايولى وهي تسبق العشيرة ـ العائلة . وكانت تربية الايولى تجري تحـت رقابـة رسمية صارمة ، وكان خبراء الحكومة هم الذين يشرفون بدقة على اختيار الزراعات والمحاصيل ، ويعلمـون المزارعين وسائل بناء المصاطب الحجرية والمدرجات الجبلية والري وتصريف الميـاه والتـسميد . وكـان القمح والبطاطا من أهم المحاصيل . وكانت الحكومة تحتفظ بجزء من المحاصيل المجففة ، للتصرف بها عنـد الحاجة . وكانت حيوانات الحمل لديهم اللاما والالياكاس ، كما ربوا الكـلاب والـبط والخنـازير . وكانـت صناعاتهم الرئيسية السيراميك ، والنسيج ، والادوات المعدنية والاسلحة .

ولم يكن لديهم خيلا ، ولا عربات ، ولم يكن لهم لغة مكتوبة ، ولكن السلطات كانت قادرة أن تبقـى علـى صلة واطلاع بكل ما يجري في أرجاء المملكة بفضل اتصالات سريعة ، ربما عبر شبكة عظيمة من الطـرق المرصوفة بالحجر تصل كل أجزاء المملكة . وكان هناك عداؤون ممتهنون يعملون بين محطـات متتابعـة ، حيث كان بالامكان أن يقطع البريد ١٥٠ كيلومترا يوميا . وقد صنعوا قواربهم من خشب متين ، فأمنوا بـذلك نقلا سريعا . وقد أدى كل ذلك إلى سيطرة قوية من العاصمة باتجاه الاطراف . وكانت الحكومة أحيانـا تبـدل أماكن سكنى العشائر لأسباب سياسية أو اقتصادية . وكانت المعطيات الاجتماعية والاحـصائيات الـضرورية تحفظ على ألواح " الكيبو " وهي ألواح منسوجة من الاسلاك .

ترك الانكا معابد ضخمة ، وقصورا ، وحصونا ، ومرافق عامة . فقد بنوا الابنية الحجرية الضخمة بأقـل ما يمكن من الادوات الهندسية ، ومن أشهر أوابدهم معبد الشمس في كوزو ، وهناك انجازات هندسية أخـرى تلفت الانظار منها بناء الجسور المعلقة القوية التي يتجاوز طول بعضها إلى مئتي متـر ، وكـذلك القنـوات والترع لأغراض السقاية .

أما ديانة الأنكا فقد صيغت بعناية . وهم يؤمنون بإله يدعونه الغيراكوشا ، وتعني السيد ، وهو خـالق كـل المخلوقات الحية . وكان إلى جانبه آلهة أخرى كالشمس والقمر والبحر والنجوم . وكانـت احتفـالات الأنكـا وطقوسها الدينية وسعة كما كانت تقدم للآلهة اضحيات بشرية .

وتضم حضارة الانكا تراثا غنيا من الفولكلور والموسيقى ، اللذين لم يبق منهما إلاّ القليل .

المدرسة العسكرية في نورث بيننغ : تقوم المدرسة العسكرية في نورث بينينج جيورجيا بتدريب الـضباط ورجال الشرطة في بلدان أمريكا اللاتينية المتحالفة مع الولايات المتحدة . وتهدف هذه المدرسة إلـى تـدريب الضباط والشرطة على استخدام وسائل القمع . وقد اعترفت وزارة الدفاع الأمريكية بـان الكتـب الدراسـية المقررة في هذه المدرسة ، مازالت حتـى بـين عـامي ١٩٨٢ - ١٩٩١ ، توصـي باسـتخدام التعـذيب ، والإعدامات بدون محاكمة ، والشانتاج ، وبشكل أكثر عمومية ، استخدام كل أساليب العنـف بغيـة الحـصول على المعلومات من المعارضين وأعضاء الميليشيا السياسية ، أو العاملين في صفوف حرب الغوار.

ووفقا للسلطات العسكرية ، فقد أجرى تعديل على مناهج المدرسة منذ عام ١٩٩٢ وبشكل سري . وكـان على الرأي العام الأمريكي أن ينتظر حتى عام ١٩٩٦ ، ليعرف حقيقة المناهج وحقيقة هذه المدرسـة ، وذلـك بعد تحقيق أجراه الكونغرس عن دور المخابرات المركزية الأمريكية في غواتيمالا.

ولقد قامت هذه المدرسة منذ تأسيسها عام ١٩٤٦ ، بتدريب ٦٠ ألف طالب من اثني عـشر بلـدا . وكـان مقر المدرسة في البداية في باناما ثم نقلت عام ١٩٨٤ إلى نورث بينينج . وقد بلغـت المدرسـة ذروة مجـدها في أعوام الستينات ، حيث كانت الولايات المتحدة منغمسة بعمق في دعم الانظمـة المعاديـة للـشيوعية فـي أمريكا اللاتينية ، حيث واجهت مقاومة أحزاب سياسية أو ميليشيات مسلحة فجـرت حـروب الغـوار . وقـد أصبح عدد من هؤلاء الضباط بعد أن أصبحوا جلادين مشهورين ، رؤساء دول ، من بينهم نورييغـا الجنـرال البانامي ، وقد شكلوا طبقتهم الخاصة ، باعتبارهم تلقوا تعليمهم في منـع العـصيان والقـدرة علـى انتـزاع المعلومات من المتهمين .

وتتألف الكتب التعليمية المجرمة هذه ، والتي أصبحت معروفة بفضل البنتاغون والصحافة الأمريكية مـن سبعة كتب ، مكتوبة باللغة الاسبانية .

بعض فصول هذه الكتب تحمل العناوين التالية :

معالجة مصادر المعلومات ، التجسس المضاد ، الارهاب وحرب العـصابات فـي المـدن . فـي هـذه الفصول، يجري تنبيه الطلبة المتدربين على أن التعاون مع مخبر محتمل ، سوف يصبح أسهل بكثير فيمـا لـو جرى احتجاز والديه أو أقربائه ، واعتقاله ، وتعذيبه ، واقتلاع الخوف من قلبه ، واغداق المكافآت عليـه فـي سبيل القضاء على عدو ، وتهديده بالسجن والاعدام ، والتظاهر بتنفيذ ذلك أو اسـتخدام مـا يـسمى سـيروم الحقيقة . كل هذه الاجراءات قد تؤدي إلى نفس النتيجة . ويجب أن لا يتردد الضابط الذي يعالج هـذا الامـر في تقديم الهدايا ، مقابل المعلومات التي يقدمها المتعامل ، والتي تقود إلى اعتقال أو أسر أو مـوت أعـضاء حرب الغوار . الذين تطلق عليهم الحكومات دائما اسم المجرمين (غارودي) .

الولايات المتحدة طليعة الانحطاط

الفصل الرابع

استعمار أوروبا والعوالم الثلاثة

إيران ، لبنان ، الصومال ، فلسطين ، والبوسنة . وبالأمس باناما ، جرانادا ، ونيكاراغوا ، وغدا إيران وليبيا وكوبا . كل ذلك يحدث بعد انهيار الاتحاد السوفيتي الذي غير علاقات القوى التي تأسست منذ أن سحق هتلر ، فخلقت عالما ثنائي القطبين .

هل هناك خيط يقودنا لفهم عصرنا ، نعني رابطة داخلية تربط بين كل المشاكل العالمية ، التـي تـستدعي التدخل العسكري ، وتعميق دور الصندوق الدولي ، والبنك الدولي ، وأوروبا في ظل ما يـستريخ ، واسـتعادة أوروبا الشرقية للنظام الرأسمالي ، والأصولية الإسلامية والمسيحية واليهودية؟

ويعكس ما تفعله وسائل الاعلام ، وخاصة التلفزيون ، التي تخدر الرأي العام ، عن طريق تقـديم ألـوان مختلفة من النكبات ، وسلسلة من الأعمال المحضرة سلفا " والمعدلة " من مكان إلى آخر ، مـن تيمـور إلـى مقاديشو ، ومن سيراجيفو إلى بغداد ، علينا كي نكتشف معنى ذلك أن نضعه في المـسار التـاريخي للقـرون الخمسة الماضية ، قرون الهيمنة المتنامية للغرب على العالم كله .

بعد أقل من ثلاثة قرون من غزو أمريكا ونهب ذهبها ، الذي أعطى لتصنيع أوروبا اندفاعا لا سابق لـه ، ابتدأت المغامرة التي أصبحت اليوم القوة الاعظم في العالم : الولايات المتحدة .

ورأينا سابقا كيف أن تاريخ الولايات المتحدة قد تميز بعمليتين أساسيتين : مذابح الهنـود للاسـتيلاء علـى أرضهم ، واسترقاق العبيد لتشغيلهم في المزارع والمناجم .

وتقاسمت الدول الاوروبية بقية العالم بأساليب متشابهة . امتدت حصة بريطانيا من الهنـد حتـى أفريقيـا الشرقية والشرق الاوسط ، وكانت حصة فرنسا من أفريقيا إلى الهند الصينية ، ومن المغرب حتـى المحـيط ، وبلجيكا الكونغو ، واستولى القياصرة على سيبيريا ، واحتلت هولندا أندونيسيا .

وبعد حربين عالميتين ، أعيد توزيع الاوراق من جديد ، بهدف اقتسام العالم بـين أولئـك الـذين شـكلوا امبراطوريات ، وأولئك الذين طمعوا فيها . وفقدت أوروبا الدامية ، حيث نـزف المنتـصرون والمهزومـون على حد سواء ، هيمنتها لصالح الولايات المتحدة . فقد كانت الحربان العالميتان مصدر غنى لهـا ، وجعلاهـا سيدة العالم من الناحية الاقتصادية ، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، ومن ناحيـة سياسـية وعـسكرية منـذ انهيار النظام السوفيتي ١٩٩٠ .

وما " النظام العالمي الجديد " ، الذي حلم به القادة الأمريكيون إلاّ اسم آخر لـسيطرة الولايـات المتحـدة على العالم .

وأصبح " حق التدخل " هو الاسم الجديد للاستعمار .

أما وقد تخلصت الولايات المتحدة من ثقل السوفيتي الذي أرخص ثمنه القادة السوفيت ، وأكملت عملهـم " الدوليات " ، فقد أصبحت الامم المتحدة التي تشكلت من الولايات المتحدة ، ومن مـدينيها وزبائنهـا مركـزا لتسجيل الارادات الأمريكية لتخدمها في مسألة تغطيتها قانونيا . وأصبحت الآلـة العـسكرية العملاقـة التـي تكونت في فترة المواجهة بين الشرق والغرب ، جاهزة لتنفيذ مهمات أخرى .

ولم تعد أوروبا ، قادرة أن تكون منافسا ، وإنما تابعا . وقالت معاهدة ماستريخ بوضـوح، وفـي ثلاثـة مواقع من نصوصها ، إنه يتطلب أن نجعل منها " الركيزة الاوروبية لحلف الاطلسي ":

ففي الخطة العسكرية ، ستلعب أوروبا من الآن فصاعدا دورا مكملا : من العراق إلى الصومال . وفـي الخطة السياسية ، تستسلم لنفس الاوامر : فسياسة السوق الزراعية (PAC) ، ستقبل أمـام احتياجـات منظمـة التجارة العالمية ، مثلما قبلت فرنسا في وضع ١٥ % من أراضيها متروكة دون زرع ، بهدف فـتح الـسوق العالمية أمام زارعي الحبوب الأمريكيين الكبار .

وفي الخطة الصناعية ، نستذكر ما تحدثت عنه جريدة اللوموند في ٢٢ كانون الأول ١٩٩٢ عن " القلـق من الفحم الاوروبي " . ففي عام ١٩٥٥ ، وبعد توقيع معاهدة روما المنظمة لأوروبا ، تم إحـصاء ٢ مليـون عامل يعملون في مناجم المجموعة الاوروبية ، وهبط عدد هؤلاء العمال عام توقيع معاهـدة مايـستريخ إلـى ٢٥٠ ألف عامل فقط . أما عن كمية الانتاج ، فقد أنتجت الدول الاثنتا عشر قبل ثلاثين عاما ٤٠٠ مليون طـن ، أما إنتاج عام ١٩٩٢ فقد بلغ ١٨٠ مليون طن فقط . وتعتبر فرنسا الضحية الاساسية لنقص الانتـاج ، حيـث هبط إنتاجها من ٢٨ مليون طن عام ١٩٧٣ إلى ١٢ مليون طن عام ١٩٩١ . وهـبط الانتـاج البريطـاني ٥٠ % ، والألماني ٤٠ % . كل ذلك لمصلحة المستوردين الأمريكان والدائرين في ملكهم ، مـن كولمبيـا إلـى فنزويلا ، وحتى إلى أندونيسيا .

وفي مجال المعلوماتية ، ترفض منظمات شركة بول التي اتفق على تزويد الطائرات العسكرية الأمريكيـة بها ، بعد أن رفض العقد المتعلق بها بناء على توجيهات الادارة الأمريكية . وكي تستطيع شـركة آ ب . أم ، وهي الشركة الأولى في العالم بين شركات المعلوماتية ، أن تنافس في سوق يسيطر عليها اليابـانيون ، بحثـت لنفسها في أوروبا عن دور ثان ، لتحل محل المجموعة الألمانية سيمنز التي أقلعت عن تنفيذ هذا العقد .

وفي ميدان صناعة الطيران ، تآمرت شركة لوكهيد مع وزراء يلتسين المعتمدين مـن صـندوق التنميـة الدولي ، للحصول على تقنية الصاروخ بروتون المعد لإطلاق الأقمار الـصناعية ، مـن الاتحـاد الـسوفيتي السابق ، وتعهدوا بتحويل الامر إلى مسألة تجارية ، في محاولة ليحل محل الصاروخ الاوروبي آريان .

أما ما يتعلق بصناعة الصلب ، فقد قررت الولايات المتحدة عام ١٩٩٣ أن ترفع رسـوم الاسـتيراد مـن تسعة عشر بلدا ، سبعة منهم أوروبيون . وهذه الحقوق الجمركية الاضافية التي فرضـتها لنفـسها الولايـات المتحدة هدفت إلى منع العاملين الأوروبيين في ميدان الصلب من بيع الفولاذ في الولايات المتحـدة . كانـت

الولايات المتحدة منفذا لـ ٢ مليون طن أي ما يعادل إنتاج اللورين بكامله ، هذا الإنتاج المهدد بالموت بـسبب الإجراء الأمريكي .

وقد أعلنت جنرال موتورز وفورد وكريزلار إجراءا عدوانيا مشابها في صناعة السيارات ، وهذه الحمايـة الصناعية " الأمريكية أولا " تشير إلى المدى الذي تقوم به منظمة التجارة العالمية في حماية السوق الأمريكيـة ، وفتح أسواق العالم كله للمنتجات الأمريكية .

وفي الخطة الثقافية ، استسلمت أوروبا لغزو الفيلم الأمريكي ، والتلفزيون . فمن أصل ٢٥٠ ألـف سـاعة بث في أوروبا ، تنتج مجموعة الدول الاثنتي عشرة ، ٢٥ ألف ساعة فقط . أما حصة سوق الفـيلم الأمريكـي في فرنسا ٦٠ % . وتصبح نسبة العائدات ١٢٠ مقابل واحد فقط ، بغية اقـتلاع دمـاغ شـعب عـن طريـق رشقات " الماحق " أو جيمس بوند الذي اخترعته هوليود ، وحصاد دولارات مسلسل دالاس .

أدخلت هذه التبعية الأوروبية ، السياسية والمادية والاخلاقية ، العالم في مرحلة جديدة مـن الاسـتعمار . لقد وضعت قوة الشرق وأوروبا خارج اللعبة ، أو أنها أذلت . وأصبح الميدان حرا لظهور استعمار من نـوع جديد ، استعمار لا يشبه أشكال الاستعمار الاوروبي المنافس ، والمقهور من الآن فصاعدا ، إنمـا اسـتعمار مركز وشامل على المستوى العالمي تحت الهيمنة الأمريكية ، إن ميزان قرون خمسة مضت على الاستعمار، هو ميزان مأساوي ، ففي عام ١٩٩٣ ، أصبح أربعة أخماس المصادر الطبيعية في كو كبنـا تحـت سـيطرة واستهلاك خمس سكان العالم .

وتتابع اللامساواة اتساعها ، " فبرنامج الأمم المتحدة للتنمية " ، يؤكد أن الفارق بين بلدان الـشمال الاكثـر غنى ، وبلدان الجنوب الاكثر فقرا قد تضاعف . وهبط الناتج القومي الافريقي ، بالنسبة للنـاتج العـالمي مـن ١،٩ % إلى ٢ ، ١ % .

هذا هو ما يدعوه جورج بوش " النظام العالمي الجديد " ، إنه التوسع وتعزيز للعلاقات الاسـتعمارية بـين دولة مستعمرة ، أصبحت من الآن فصاعدا منفردة ، وبين بقية العالم . وتعني العلاقـات الاسـتعمارية بهـذا الشكل : تبعية عسكرية وسياسية وجمركية من طرف واحد لتكون في مصلحة المسيطر فقط .

هذا هو الهدف الذي أعلنه القادة الأمريكان مرارا وتكرارا ، وخاصة خلال السنوات القليلة الماضية " أي بعد انهيار الاتحاد السوفيتي " : إنه التأكيد على سيطرة الولايات المتحدة على العالم.

ولكن ما هي الوسائل التي استخدمت لتحقيق هذا الهدف ؟

إنها وسائل متعددة : هناك أولا الاساليب السابقة التي اختبرت في أمريكا اللاتينيـة منـذ زمـن طويـل ، وعلى الاخص بعد الحرب العالمية الثانية ، منذ " التحالف من أجل التقدم " الذي أعلنه كنيدي ، حتى مبـادرة " بوش " من أجل سوق متفردة من ألاسكا وحتى ارض النار .

وآلية العمل بسيطة : فهناك اتفاقيات للإستثمار ، والقروض ، والهبات ، مع دول أمريكا اللاتينيـة بـشكل خاص ، والهدف المعلن مساعدتها في عملية " التصنيع " ، أما الهدف الحقيقي فهو السماح للشركات متعـددة

الجنسيات لتنمية أرباحها من خلال أعمالها في تلك البلاد ، التي تتوفر فيها اليد العاملة الرخيصة ، كمـا تقـوم حكوماتها بالانفاق على البنى التحتية . وفي نفس الوقت ، تتمتع المواد الاولية القادمة من تلك البلاد بانخفـاض أسعارها ، جاعلة بذلك التبادل غير المتساوي يزداد اتساعا، أكثر فأكثر .

في عام ١٩٥٤ ، كان يكفي الفرد البرازيلي أن يبيع ١٤ كيسا من البن لشراء سيارة جيب مـن الولايـات المتحدة ، وفي عام ١٩٦٢ أصبح عليه أن يبيع ٣٩ كيس مقابل السيارة المذكورة .

كان مواطن جامايكا يشتري الجرار الأمريكي ، عام ١٩٦٤ بـ ٦٨٠ طنا من السكر ، وصار الرقم عـام ١٩٦٨ ، ٣٥٠٠ طن . لقد تابعت البلدان الفقيرة مساعدتها المالية للدول الغنية .

وتتجاوز فوائد القروض ، القروض الاصلية مرات . ويبلغ عائد كل دولار ، دولاريـن أو ثلاثـة تـذهب إلى جيوب الدائن . وغالبا ما تساوي فوائد القروض قيمة الصادرات ، محققة بـذلك " التنميـة الممكنـة " ، إذ ليس هناك ، بهذا المنوال ، بلد " على طريق التنمية " ، كما يسمونه نفاقا ، وإنما بلاد محكـوم عليهـا ببـؤس متنام ، من خلال تبعية متنامية .

وتشكل " المساعدات المزعومة " لبلدان العالم الثالث ، أحد العوامل الاكثر تأثيرا لفرض التبعية والتقهقر. إن " المساعدة " المعلنة والمتعددة الاشكال ، ٧ ، ٠ % من إجمالي الناتج القومي للدولـة المانحـة . ورغـم تواضع هذا الرقم ، فإن نصفه هو الذي يمنح فعلا .

ويشكل " تصنيع " بلدان العالم الثالث ، ونقل التكنولوجيا ، وسيلة أخرى للهيمنـة وزيـادة منـافع الـدول الغنية .

والمثال النموذجي هو مثال " المعجزة البرازيلية " في التنمية الـصناعية ، و " التـدخل البيئـي " البلـدان الغنية في غابات الأمازون .

أما الميزان فهو كما يلي : إن هذه البلاد الأغنى بمواردها الطبيعية هي الاكثر فقرا. إن تراكم الثروة لدى قطب واحد يمثل أقلية ، يقابله حقيقة إن ١٣٠ مليون نسمة من أصل ١٥٠ مليون ، يرتعـون بـالفقر، ونـصف هؤلاء يعيشون في بؤس مطلق .

إن " التدخل البيئي " ، وهو الاسم الجديد للنهب والسلب الاستعماريين أوضـح مـا يكـون فـي غابـات الامازون . لقد دمرت مجموعة السعة ، أي البلدان السبعة الاكثر تصنيعا ، والاساتذة الفعليين " للإنـسانية " ، وبشكل خاص شركات جوديير ، وصلت نيبور ، وفولكسفاجن ، وغيرها ، دمـرت ملايـين الهكتـارات مـن الغابات ، وأغرقت مئات الألوف من الهكتارات الاخرى من أجل بناء سدود هيدروليكية ، كاسـتثمار منهجـي للكتلة البيئية ، من خلال التعامل مع الغابات ، لتسمح بإنتاج ٥ مليار برميل نفط في العام " وهو ما يزيـد عـن إنتاج العربية السعودية " .

ويوجد لدى الشركات متعددة الجنسيات أهداف أخـرى ، نراهـا مـن خـلال اسـتثمارهم ، و " نقلهـم للتكنولوجيا " ، مسألة الإخلال بالتوازن البيئي في إحدى أهم " رئـات " العـالم : فتحـت زعـم " المـشاريع

المشتركة " ، أي إشراك الاستثمارات الوطنية ، تفرض هذه الشركات تقنيتها . فقـد أقامـت ، مـثلا ، سـدا عملاقا في مدينة توكوري ، بعد أن محت مئات آلاف الهكتارات من الغابات ، كي تزود بالطاقة الـضرورية ، مصانع معالجة البوكسيت ، وهي عملية ملوثة للبيئة إلى حد لا يشجع على إنـشاء مثـل هـذه الـصناعة فـي الولايات المتحدة ، وخاصة أن الحصول على الطاقة من البرازيل ، بـسعر ١٦١ دولار للطـن الواحـد مـن البترول ، في الوقت الذي يباع فيه في أسواق أمريكياالشمالية بـ ٢٨١ دولار .

هذا هو منطق النهابين في كل الاصقاع ، ففي البرازيل تسيطر الشركات متعددة الجنـسيات علـى ٨٥ % من إنتاج الكاكاو و ٩٠ % من إنتاج القهوة و ٦٠ % من إنتاج السكر و ٩٠ % من إنتاج القطن والاخشاب.

وتسيطر الشركات الاجنبية على ٨٠ % من انتاج البوكسيت و ٨٠ % من الاحجـار الكريمـة و ١٠٠ % من انتاج الكوارتز الممتاز ، الضروري لصناعة الالكترونيات .

لقد تم خلق نموذج للتنمية في كل ميادين الاقتصاد : السيارات ، الالكترونيات ، البتروكيماويات .. إلـخ ، بالتعاون مع قباطنة الصناعة المحلية ، تكون فيه مراكز القيادة خارج البلاد ، مشكلة بـذلك تبعيـة اقتـصادية شاملة .

هذه التبعية الاقتصادية ، وهذه الصيغة المنحرفة للنمـو المفروضـة علـى شـعب بأكملـه ، تـستدعي بالضرورة تبعية سياسية مباشرة أو غير مباشرة لضمان تسديد القروض .

" تكرس البرازيل ٤٠ % من عائدات التصدير لتسديد فوائد القروض . أما الارجنتين فتـدفع ٥٠ % مـن هذه العائدات " .

ولكن الخطوة الاكثر ضمانة ، هي إقامة دكتاتورية عسكرية . فأمريكا تمارس سلطتها الاسـتعمارية أولا عبر الشركات متعددة الجنسيات . فعندما تأكد خطر ظهور سلطة اشتراكية في التشيلي ، اقترحت مذكرة لـ ـ لمنظمة التجارة العالمية استخدام الضغوط الاقتصادية لإسقاط النظام فيها .

ولا يستبعد هذا الاسلوب التدخل العسكري المباشر للجيش الأمريكي ، كما حـدث فـي غواتيمـالا عـام ١٩٥٤ من أجل إنقاذ مصالح شركة الفواكه المتحدة ، وفي كوبا عندما نظم كينيدي عام ١٩٦١ إنـزال خلـيج الخنازير مع أنصار الديكتاتور السابق باتيستا ، وفي غويانا البريطانية عـام ١٩٦٤ ، وفـي الـدومينكان عـام ١٩٦٥ ، ثم ما حدث منذ وقت قريب في جرانادا وبناما .

وما هو اكثر فاعلية ، تسهيل قيام ديكتاتورية عسكرية في كل بلد باسم العقيـدة الأمريكيـة فـي " الامـن القومي " ، ضد الشيوعية في زمن قوة الاتحاد السوفيتي . لقد اسـتطاعوا أن يجعلـوا الـشعوب تـؤمن ، أن ارتباطها بالولايات المتحدة سيحمي " الديمقراطية " و " الاستقلال الوطني " ، وهكذا اسـتطاع الجنـرالات أن يحكموا البرازيل منذ كاستلوبرانكو عام ١٩٦٤ ، وحتى جيزيل .

وفي ظل هذه الانظمة ، ومن خلال لعبة تجمع بين التصنيع الذي تنفـذه الـشركات متعـددة الجنـسيات الأمريكية ، وبين التسليح الذي يسمح بممارسة الضغط والارهاب على الشعوب ، لـم يتوقـف الـدين عـن

الازدياد . فقد ارتفعت الديون بين عامي ١٩٧٢ ـ ١٩٨٢ ، من ١٢ مليار دولار إلى ٦٠ مليـار دولار ، أي تضاعف خمس مرات في عشر سنين .

وحده الدكتاتور العسكري ، يستطيع أن يستنزف دم الشعب حتى الانهاك .

بلغت قروض الارجنتين ٥٤ مليار دولار ، منها ١٠ مليارات في ظل نظام الجنرالات .

وبلغ سداد الديون ، وشراء الأسلحة قبل رئاسة آلان جارسيا ٥٠ % من ميزانية البلاد .

أما رقم الديون في التشيلي أثناء حكم بينوشيه فكان ١٥٠٠ دولار لكل مواطن . ولكـن بينوشـيه يحـتفظ بسجل آخر أيضاً ، فقد حقق اوسع وأشمل حرية لاقتصاد السوق بما فيها سوق العملات ، مـن خـلال نظـام خصخصة مهيأ بذلك شروطا مثالية شاملة للشركات متعددة الجنسيات لتتسلط على اقتصاد الـبلاد . واسـتطاع أن يحقق ذلك بضمانة " الديمقراطية الأمريكية " العظيمة .

بفضل هؤلاء الطغاة العسكريين ، أصبح اقتصاد امريكا اللاتينية ذا اتجاه واحد ، تحيط به تبعيـة سياسـية بسبب قوة الضغط السياسي على السلطات ، الذي يتمثل أحيانا كثيرة بـرفض الاقـراض ، أو العـزوف عـن الاستثمار .

وتابعت الولايات المتحدة ، بعد ذلك هدفها في تحقيق حرية السوق ، بوسـائل أخـرى ، غيـر اسـتخدام الطغاة العسكريين .

لقد أصبح مقبولا ، وصول حكام منتخبين إلى السلطة ، مع استبدال الارهاب الحكومي بالفـساد . وهكـذا شهدنا ارتقاء قادة منتخبين كراسي الحكم مثل كولور في البرازيل ، ومنعم في الارجنتـين . وبعـد اسـتبدال الجنرالات الخونة ، طلب إلى الحكام الجدد مهمة واحدة هي أن يقوموا بتسديد القروض وفوائدها التي عقـدها الطغاة العسكريون ونسيان جرائمهم .

واستطاعت سيطرة صندوق النقد الدولي أن تتجذر بدون مخاطر في هذه الـبلاد التـي قيـدتها الـديون ، وأصبح اقتصادها في أيدي مؤسسات أجنبية .

ويستطيع صندوق النقد الدولي أن يفرض دون عواقب نظام " تنمية أكثر ملائمة للمترويـول العـالمي " ، ليس على العالم الثالث فقط ، بل على العالم كله : ويتمثل هذا التوجه بتنميـة زراعـات احاديـة ، ومنتجـات أحادية ، والتراجع عن الزراعات الحيوية والحرف الوطنية التي تؤمن للمواطنين قوت يومهم، وتتحقـق بـذلك التبعية ، والاستغلال المتزايد لليد العاملة ، وتفاقم الديون ، بسبب تضخم الاستيراد .

والنتيجة الاجمالية ، نتيجة قاطعة : فمنذ بداية الثمانينات ، انخفض دخل الفرد في أمريكا اللاتينيـة ١٥ % وفي أفريقيا ٢٠ % .

ويحمل نظام الهيمنة هذا اسما شائعا هو " خطـة التـصحيح البنيـوي " وبموجبهـا لا تمـنح القـروض والمساعدات إلا في ظل شروط سياسية قاسية . وعندما تطبق برامج صندوق النقد الدولي بحرفيتهـا فـي بلـد ما، تتمتع حكومته حينئذ بالمعاملة المتميزة من جانب الولايات المتحدة واتباعها الاوروبيين .

وتتألف برامج " التصحيح البنيوي " غالبا من العناصر التالية : تخفيض العملة " بغرض تشجيع التصدير، وإعاقة الاستيراد " ، وتخفيض " تنيني " في الانفاق العام ، وبشكل خاص في الميدان الاجتماعي ، أي في اعتمادات التعليم والصحة والاسكان ، والغاء دعم المواد الاستهلاكية بما فيها المواد الغذائية ، وخصخصة مؤسسات القطاع العام ، أو زيادة رسومها " الكهرباء ، الماء ، النقل " ، وإلغاء السيطرة على الاسعار ، و" تنظيم الاحتياجات " ، وبالتالي خفض الاستهلاك ، يدعم ذلك تجميد سقوف الرواتب ، والحد من القروض للمواطنين ، وزيادة الودائع ومعدلات الفائدة ، وكل ذلك بهدف تخفيض آثار التضخم .

تسبب سياسة " التصحيح " هذه انتفاضات ضد تصاعد أسعار الرغيف : كما حدث في المغرب عامي ١٩٨١ و ١٩٨٤ ، وفي كاراكاس عام ١٩٨٥ ، وفي الجزائر في تشرين ١٩٨٨ ، وفي الأردن عام ١٩٩٦.

وبسبب ازدراء اقتصاديات القوت ، وبشكل خاص الزراعات الحيوية للسكان ، وأفضلية الزراعات المهيأة للتصدير ، وهي المصدر الوحيد للقطع الاجنبي الموجه لتسديد القروض بالدولار ، تنتج الدول التي تتلقى المساعدات ، الكثير مما لا تستهلكه ، وتستهلك مما لا تنتجه .

وهكذا يقوم صندوق النقد الدولي ، والبنك الدولي بتدمير نصف الكرة الجنوبي من الارجنتين وحتى تنزانيا، ومن باكستان حتى الفليبين . وابتدأ الآن بتطبيق هذه السياسة على بلدان اوروبا الشرقية ، بغية تكوين هيمنة سوق عالمية متجانسة ، وحدانية حقيقة للسوق ، مؤسسة على وثنية المال . وقد وضع القادة الأمريكيون ، موضع التنفيذ، أساليب مختلفة حسب القارات والأنظمة السياسية المختلفة .

يستطيع المرء في إفريقيا مثلا ، ان يحصي ثلاثة بدائل رئيسية :

عندما زار الرئيس السنغالي عبدو ضيوف ، الولايات المتحدة في ١٠ أيلول ١٩٩٦ ، أعلن هيرمان كوهن ، مساعد وزير الخارجية للشؤون الافريقية ، أن مدة الثلاثين عاما التي حددتها منظمة الوحدة الافريقية لتكامل الاقتصا الافريقي ، فترة طويلة جدا . وقال " نحن نفكر أن إزالة الحواجز التجارية الافريقية يجب ان يتحقق بسرعة . ولأن الرئيس عبدو ضيوف أبدى تفهما لوجهة نظرنا هذه ، فإن الرئيس الأمريكي قرر الغاء ٤٢ مليون دولار من ديون السنغال ".

في الجزائر ، وضعت المسألة بشكل آخر : كان رد الفعل على سياسة صندوق النقد الدولي ، والذي ظهر لأول مرة في انتفاضة الجزائر في تشرين الأول ١٩٨٨ ، قد وجد تعبيره في حركة الاغلبية الإسلامية التي تعارض بصراحة " وحدانية السوق " . وقد طرحت الجبهة الإسلامية للانقاذ مسألة طيبة ، هي المسألة الأولى في عصرنا : رفض وحدانية السوق ، رفض الليبرالية التي تختلق أسباب " العزل " وتطبق التبعية على أربعة أخماس العالم ، وضياع كل معاني الحياة . إنه سباق يجري لمصلحة قادة البؤس ، وضد العدد الوافر من البشر .

ولأن الحلول التي أعلنت عنها الجبهة الإسلامية للانقاذ لا تشكل مشروعا حقيقيا ، أي بديلا صادقا لانحطاط الغرب وهو أن يرفض مبدأ النظام الذي يزعم لنفسه حق الهيمنة على العالم ، معتبرا إياه تجسيدا

للشر . ويجب أن لا ينبع هذا الرفض من دواع اقتصادية فحسب " فالجزائر مدينة بـ ١٢ مليار دولار وتـدفع ٥ مليار سنويا فوائد هذه القروض " وإنما لسبب آخر كبير ، سياسي ، وحتى ديني ، بمعنى أن يـضع موضـع التساؤل غايات المجتمع المؤسس على اقتصاد السوق .

إن ممارسة حفاري قبور العالم للطقوس السرية لوحدانية السوق ، تستدعي حربا حقيقية ضد ديانة ، تـتهم بخدمة الشيطان ، كل من يعارضها : وقد حولوا كل معارض لوثنيتهم وهيمنتهم ، مهمـا كانـت مـصالحه أو أخطاؤه أو جرائمه ، إلى هتلر جديد، سواء كان أصوليا ، عراقيا ، صربيا أو ساندينـستيا ، أو معارضـا مـن البيرو . لقد تقل الديمقراطيون الاصفياء في واشنطن أو باريس بارتياح طرفة برتولد برخـت التـي أصـبحت شهيرة في الجزائر :

لقد صوت الشعب ضد الحكومة . والحل الاكثر بساطة هو " حل " الشعب . ونستطيع اسـتخلاص البـديل الثالث من أحداث الصومال ، وقد أخذ هذا البديل اسما يغمرنا بالاحلام : " حق التدخل الانـساني " . لنتـصور شعبا افريقيا يدعي لنفسه حق التدخل الإنساني للتدخل ضد التمييز العرقي تجاه الزنوج والهنود فـي الولايـات المتحدة بعد الانفجارات الشعبية في لوس أنجلوس " . وهذا الحق الحق قابل للتطبيـق ، إذا اعتمـدنا المعـايير التي استخدمت في الصومال ، في نصف بلدان القارة الافريقية .

يتصف هذا التدخل بانه انتقائي . وقد أوضح الرئيس بوش هذه النقطة بجلاء في آخـر خطـاب لـه فـي الاكاديمية العسكرية في وست بوينت قائلا : " ليس علينا أن نتحرك ، عبر كل حالة من العنـف الاجرامـي .. إذ لا يجب أن تتعارض مثاليات أمة ما مع مصالحها " .

يكشف هذا التمييز الرئيسي بين " المثال " و " المصلحة " ، لماذا اختلق هذا الحـق بالنـسبة للـصومال . هناك على الأقل ثلاثة أسباب :

- أهمية القرن الافريقي في المراقبة القريبة للخليج .
- أعمال التنقيب عن البترول الذي تقوم به أربع شركات أمريكية ضخمة ، إذ يتطلب استمرار التنقيـب ، وجود سلطة مستقرة وقوية .
- وأخيرا ، وعلى الاخص ، إقامة سلطة من الدمى ، تقبل جهارا املاءات أمريكا عبـر صـندوق النقـد الدولي .

ومن الطريف أن المحاولة الخجولة لعدد من السياسيين الفرنسيين الذين يعتقدون أن أفريقيا ما زالـت مـن ممتلكات فرنسا ، لادارة المفاوضات بين المرشحين المحتملين لرئاسة الصومال ، قد استبعدت بنقفـة إصـبع أمريكية .

هذا هو نموذج التدخل الإنساني ، ذو الدوافع الواضحة للمصالح الأمريكية . ويمكن شرح هـذه الانتقائيـة بأمثلة عديدة : كان ضروريا ، نشر أسطول جوي لحماية الاكراد في العراق ، أما أكراد تركيا الـذين يمثلـون

ثلاثة أرباع الاكراد ، فليس لهم أي حق بهذا التدخل الإنساني . وكذلك الفلسطينيون وشعب هاييتي الذي سـقط تحت إرهاب عصابات تونتون ماكوتس ، أو شعب السلفادور الذي أسلم بوحشية إلى " كتائب الموت " .

وتختفي أشكال التدخل الاستعماري الجيد وراء أسـماء مختلفـة ، غيـر الـدفاع عـن الحـق الـدولي والديمقراطية . ومجزرة الخليج هي المثال الاكثر جلاء . فالدفاع عن الكويت كان دفاعـا عـن " الحـق " و " الديمقراطية " . والحق هو الحق الاقوى .

والآن وقد أعيد بناء " الديمقراطية " في الكويت ، وهي ديمقراطيـة تـشبه بقـوة ديكتاتوريـات أمريكـا اللاتينية. فقد أعطت عودة الاسرة الحاكمة ، بعد الضغوط التي مورست على الفلسطينيين وطردهم ، الفرصـة لولادة صورة كاريكاتورية للديمقراطية .

يملك حق التصويت في الكويت ١١ % فقط من السكان ، وتنتمي الغالبية العظمى في هذا البرلمان ، إلـى المعارضة ، أما الوزراء فينتمون إلى الاسرة الحاكمة . وتستوجب نتائج فساد النظام استخلاص العبر .

يقول رئيس البرلمان الكويتي أن مسؤولية الفضائح المجلجلة ، تقع على عاتق الوزراء الذين تعاقبوا علـى وزارة المالية منذ عام ١٩٨٦ .

لقد اختفت المليارات من الدولارات من خزائن الكويت خلال فترة حرب الخليج في فضيحة شـركة نفـط الكويت ، حيث اختلس ما بين ٧٠ و ٩٠٠ مليون دولار ، وفي فضيحة شـركة نـورأس الـشركة الرئيـسية التابعة لمكتب الاستثمار الكويتي وهو جزء من الجهاز الحكومي ، كشف عن ضياع ٤ مليـار دولار ، عقـب سرقة كبرى للودائع في إسبانيا ، أما فرنسا فقد شهدت إفلاس البنك الكويتي ـ الفرنسي في باريس .

وكانت آخر هدية قدمت لبوش مكافأة على ما فعله في الكويت ، صفقة دبابات إبرامـز MIA2 ، وبقيمـة ملياري دولار ، في الوقت الذي كان يموت فيه طفل عراقي كل أربع ساعات بسبب الحظر.

أما ما ألقي على العراق خلال الحرب ، فكان أكبر من قنبلة هيروشيما بثماني مرات ، وقد أبـاد حـسب أدنى الاحصائيات التي أعلنها الصليب الاحمر الدولي ٢١٠ آلاف ضحية .

هذا هو معيار الدفاع عن " الحق الدولي " ، الذي يحمل معنى وحيد الطرف ، إنه حق لم يعرف الرحمـة عندما " ألحقت " الكويت ، ولكنه ينسى إلحاق القدس ، والقدس مدينة مقدسة ، ولكن مدينة الكويت مقدسة ألـف مرة أكبر من القدس ، ما دامت تقع وسط حقول النفط .

كان التدمير الكثيف هو الاسلوب الذي استخدم ضد العراق ، أما الهدف فكان إعطاء " مثال " يقنع العـالم الثالث لأكمله ، وخاصة إيران وليبيا ، الهدفين الاقربين باعتبارهما يملكان مصادر نفـط ، ومـا زالا خـارج السيطرة الأمريكية حتى الآن .

وطبقت الولايات المتحدة اسلوبا آخر ، اقل كلفة ، ولكنه كاف لاضرام نار الخلافـات بـين القوميـات ، والمجابهات المزعومة بين الاثنيات والديانات .

و " القومية " اختراع أوروبي ، ولا حاجة بنا لا ستذكار تاريخ تشكلها في أوربا وخاصة منذ معاهدة وستفال عام ١٦٤٧. لقد قرعت هذه المعاهدة أجراس موت المسيحية التي كانت توحد أوروبا ، فتأسست القوميات على أساس اقتصاد السوق ، وهو اقتصاد تحمية دولة وجيش .

كانت هذه نقطة الفراق ، التي استدعت قيام الوحدات القديمة ، مثل فرنسا ، فالملك تشارلز الخامس " نهاية القرن ١٤ " أصدر أمرا ملكيا ، قرر فيه أن كل الممتلكات في المملكة تعود للملك وحده ، وله وحده الحق أن ينظم كل الاسواق والمعارض ، ويضع تحت حمايته سلامة الذاهبين ، والمقيمين ، والعائدين .

هدف هذا القرار إلى التغلب على كل المصالح الاقليمية للاقطاع . وسيصبح إنجاز هذه " الوحدة القومية " مهمة الثورة الفرنسية ، وعبر عن هذه المهمة ، الخطاب التأسيسي للافاييت ، في عيد الاتحاد في ١٤ تموز ١٧٩٠ ، إذ أقسم على الحفاظ على الدستور ، وضمانة الوحدة السياسية لفرنسا ، ولكنه أيضاً ضمن " سلامة الاشخاص والممتلكات ، والانتقال الحر للبضائع " .

ومن بين الوحدات القومية التي تشكلت في مرحلة متأخرة ، بدءا من القرن التاسع عشر ، الوحدة الألمانية التي بدأت عملية التوحيد فيها ، بإنشاء الوحدة الجمركية " زولفرين ١٨٣٣ " ، كما فعلت إيطاليا في عهد كافور .

وتأكدت هذه الوحدة ، في القرن التاسع عشر ، العصر الذهبي للبورجوازية التجارية والصناعية التي أنهت صراعها مع آخر الامتيازات الإقطاعية ، والتي سيتركز صراعها الجديد ضد المنافسين الخارجيين . لذاك كان عليها أن تبحث عن تبرير أيديولوجي لهذا الصراع .

وادعت كل أمة ملكيتها للتراث الديني المسيحي :

ففي فرنسا ، انطلق شعار " أكمل ا عمله بالفرنسيين " . وفي ألمانيا كانت عبارة " ا معنا " نشيداً تغنى به القوميون الألمان .

ولكن تراجع النفوذ الديني ، دعا إلى ايجاد أسس أخرى للقومية ، فكانت الحدود الجغرافية الطبيعية بديلا عن " ارض الميعاد " ، أو " الجيل الموحي إليه " كما قال باريه ، وتبعتها البيولوجيا أي النظرية العرقية .

لقد استثمروا نظريات جوبينو وشامبرلين ، وبعد ذلك الأساطير التاريخية التي تميل لخلق اقتناع بأن " الأمة " قد وجدت قبل آلاف السنين . وقد وضعت " الارشيفات " الاسطورية للشعوب لخدمة هذه الفكرة : في ألمانيا جنبا إلى جنب مع " الاوابد الألمانية التاريخية " (بيرزت ١٨٢٤) ، أما في فرنسا فكان كتاب جيزو " وثائق أصلية عن التاريخ الفرنسي " (١٨٣٣) ، وفي بريطانيا ظهرت سلسلة " رولز " حول أصول إنكلترا (١٨٣٨) .

وحدد كل مستعمر ، مع ابتداء الغزو الاستعماري في كل القارات ، " ارض صيد " خاصة به ، تحولت فيما بعد إلى " أمة " . ولنضرب مثلا على ذلك :

إن الحدود القائمة لبدان أمريكا اللاتينية تتصل إلى حد بعيد بالخطوط التي رسمها نواب الملـك والحكـام العاملون المنتدبون من إسبانيا والبرتغال . أما الحدود القائمة لبلدان إفريقيا فقـد جـرى تحديـدها مـن قبـل المستعمرين الاوروبيين الذين مزقوا أفريقيا بموجب معاهدة برلين ١٨٨٥ .

وقد جرى تقطيع هذه القارة حسب علاقات القوة بين الاستعماريين ، انطلاقا مـن مبـدأ يقـول : إن مـن يمتلك الشاطئ يمتلك كل البلاد وراءه ، والواقعة ضمن خطوط عمودية مع الشاطئ .

وأدت تجزئة الامبراطورية العثمانية على أيدي غزاة الحرب العالمية الأولى ، إلى رسـم حـدود الـبلاد العربية في الشرقين الأدنى والأوسط ، حسب أطماع الدولتين المتنافستين ، فرنسا وإنكلتـرا ، اللتـين توصـلتا إلى تسوية بموجب اتفاقية سايكس ـ بيكو ١٩١٧ .

ويستطيع المرء أن يضاعف الامثلة لعملية تصدير القومية وأيديولوجيتها فـي العـالم أجمـع مـع بـدء الاستعمار الاوروبي . وبدأ الصدام بين الأمم المحررة مع انحسار الاستعمار . كان الانتـصار الـذي حققـه الاستعمار بعد موته ، استخدام القوميات الواحدة ضد الاخرى . كانت جامعة الدول العربيـة حلمـا إنكليزيـا قديما لفصل العرب ، أثناء تفكك الإمبراطورية العثمانية ، عن الامامة الإسلامية ، في الوقت الذي كانت فيـه أيديولوجيا القومية التركية من صنع أوروبي هو فامبيري .

أما في المخطط السياسي فالتاريخ يعمر بألف مثال ، وسيسمح هذا المخطط لنا أن نشهد بعد فترة طويلـة، إثارة الصراع بين العرب والإيرانيين ، وتجهيز العراق عسكريا بغية إضعاف إيران ، بانتظار تدميره .

ومع انهيار الاتحاد السوفيتي تواصل البلدان تفككها بالأسلوب الذي يناسب الخصوم . ويكتمـل المخطـط بإثارة الحروب الداخلية في البلدان المحيطة : بين المـسلمين والقـوميين فـي طاجاكـستان ، بـين الارمـن والاذربيجان ، وبالمجازر التي ارتكتب ضد الروس في أفخازيا والشيشان .

والمثال النموذجي ، هو مثال يوغوسلافيا القديمة . لم تعرف شعوب يوغوسـلافيا المختلفـة فـي لغاتهـا ودياناتها وتاريخها وبناها الاقتصادية ، وعلى مدى نصف قرن ، اضـطهادا ولا مـصادمات كبـرى . لقـد انفجرت القوميات مع عودة فوضى اقتصاد السوق التي أثارت في القسم الاغنى من الـبلاد ، هـو سـلوفينيا إرادة الانفصال عن الجمهوريات الاخرى الاكثر فقرا في الاتحاد اليوغوسلافي . وكانت الخطة إثارة القـوى البعيدة عن المركز . وقد اعترفت ألمانيا بموجب سياستها التقليدية في الادرياتيك ، ومن جانب واحد باسـتقلال سلوفينيا ، والبوسنة ، وكرواتيا ، وهي الممر المؤدي إلى البحر الأبيض المتوسط . وقبلت الولايـات المتحـدة فورا الموقف الألماني ، وباعتبار أن ألمانيا هي الشريك الأكبر للولايات المتحدة في أوروبا ، وكـذلك تركيـا التي وجدت أنها فرصة لتضع قدمها مجددا في البلقان ، التي خضعت سابقا للامبراطورية العثمانية .

وسمح خضوع تركيا لحاف شمال الأطلسي ، سمح لها أن تضع نفسها في موقف المدافع عـن المـسلمين في البوسنة وكوسوفو ، دون أن تضطر لمجابهة سادة الأطلسي ، وكذلك أضاف الفاتيكـان دعمـه لكاثوليـك كرواتيا .

مال الأوروبيون ـ وفرنسا خاصة ـ الذين استشعروا منذ البداية خطر انفجار يوغوسلافيا ، لحماية الوحدة اليوغوسلافية ، والتراص قبالة الموقفين الأمريكي والألماني ، واتهموا الصرب الذين جهدوا لحماية الوحدة ، بالعدوان والانفصالية . وأخذت وسائل الاعلام على عاتقها مهمة تصويرهم وحدهم بالشياطيين في هذه الصراعات التي لم تقتصر الوحشية فيها على طرف واحد.

وهكذا ابتدأت المجازر ، لأن الامريكيين والأوروبيين ، لم يأخذوا بالحسبان التعقيد في العلاقات بين الشعوب . فباسم حق تقرير المصير " وهو حق لم يول أي اهتمام للأقليات الموجودة في الدول المستحدثة التي اعترفوا باستقلالها " ، لم يعد لأي من هذه الشعوب هم إلاّ الدفاع عن نفسها . أما مسؤولية دول الغرب في هذه الفوضى الدامية فهي مسؤولية مطلقة، فقد جعلوا المشكلة عصية على الحل بمصطلح الحق ، ومميتة بمصطلح القوة .

ولن نورد إلا مثالا واحدا : يضم البوسنيون ٤٤ % من المسلمين و ٣٠ % من الصرب و ١٨ % من الكروات . الصرب يخشون عودة " جمهورية إسلامية " أعلن عنها القائد البوسني عزت بيجوفتش ، والآخرون يخشون هيمنة صربية تدعمها بلغراد ، ويثيرون مواجهات صعبة ودامية بين الكروات والمسلمين، وبين الصرب والكروات ، وبين المسلمين والصرب ، مع ما تحمله هذه الصراعات من وحشية تصفية الحسابات بين شعوب امتزجت ببعضها ، وتشابكت فيما بينها .

أصبح أي تدخل عسكري ضمن هذه الظروف ، صعبا جدا بل مشكوكا في جدواه ، شأنه في ذلك شأن مباحثات السلام ، فلكي يصبح ممكنا ـ مثلا ـ أن تقوم " القبعات الزرق " " جنود الأمم المتحدة " بحماية ضحايا هذا الوضع الفوضوي توجب عليهم أن يقصفوا (انطلاقا من حاملات الطائرات المرابطة في الآدرياتيك) ، البوسنة بالصواريخ ، لتقتل الصرب والمسلمين والكروات على حد سواء .

أما ما يتعلق بمباحثات جنيف ، فقد تعطلت منذ بدايتها ، بسبب الخطأ الأساسي للغرب ، وهو اعترافه بالدول الجديدة دون أن يطلب منها ضمانات لحماية الاقليات فيها . ولهذا بات ، كل طرف من الأطراف يبحث عنها اليوم لحسابه الخاص : فقد أراد عزت بيجوفيتش دولة بوسنية موحدة ، لأن شعبه سيتحول في ظل إطار فيدرالي إلى أقلية ، في حالة تحالف الصرب والكروات . وبالعكس ، فقد تمسك الصربيون والكروات بالحل الفيدرالي الذي سيعطي الأولين ضمانات ضد زغرب ، يضاف إلى ذلك الخلافات حول رسم الحدود ، لأن التشابك بين الشعوب يستبعد التقسيم العرقي . وهكذا تراجعت المشكلة لتصبح تقسيما كميا ، أي استنادا إلى مرحلة علاقات القوى ، كما كانت دائما مشكلة ترسيم الحدود عبر التاريخ .

وهكذا ، تقودنا المصالح العمياء للقوى الغربية الكبرى ، إلى مشاكل القرن الماضي ، المسماة بالمسألة الشرقية ، فقد ازدادت هذه المشكلة عمقا بسبب مخاطر عدم الاستقرار في أوروبا والشرق الأدنى في وقت واحد .

لقد حاولنا الوصول إلى الخيط الاساسي الذي يسمح لنا الربط بين المشاكل الدولية الاساسية في نهاية هـذا القرن ، على الرغم من تنوع مظاهرها : إنه الهيمنة العالمية للولايات المتحدة ، ووحدانية السوق التـي تريـد أن تفرضها على العالم كله .

ولتحقيق ذلك سوف تتابع الولايات المتحدة :

ـ الدعوة لحرية اقتصاد السوق ، حرية بلا حدود ، بأعتبارها المنظم الوحيد للعلاقات الاجتماعية.

ـ الدعوة للتقدم المتواصل في مجال تنمية القدرة العمياء ، للسيطرة التقنيـة والعلميـة علـى الطبيعـة والانسان .

ـ الدعوة لمتابعة تطوير الازدياد الاعمى للانتاج والاستهلاك .

لن تكون هناك حرية وديمقراطية إلا إذا شاركت كل لاطراف باتخاذ القرارات التي تحدد مصائرها .

لن يكون هناك تقدم إلا إذ حل محل هذا الغاب من التزاحم وإرادات القوة ، والنمو الكمي والتنافس علـى الأرباح بين الافراد والجماعات والأمم ، مجتمع حقيقي ، نعني به ، مجتمعاً ، يمتلك كل فـرد فيـه ضـميراً يشعره أنه مسؤول عن مصير جميع الآخرين . وهذا ما لا توفره الفردية .

ليس هناك من تطور إلاّ للإنسان . وبعكس نظام يولد تراكم الثروة لدى قطب واحد في المجتمع ، وتـراكم الفقر المادي والثقافي لدى الغالبية ، فإن مجتمعا متطورا فعلا ، هو المجتمع الذي يخلق شـروطا اقتـصادية ، وسياسية ، ثقافية ، وروحية ، تمكن كل فرد من أفراده ، من التهيـؤ للإنطـلاق ، وفـق فـرص متـساوية ، بغرض تنمية كل الإمكانيات الخلاقة التي يحملها بين جنبيه .

الهوامش

ـ ادلف تيير (١٧٩٧ ـ ١٨٧٧) مؤرخ ورجل دولة فرنسي ، له كتاب " تاريخ الثـورة " ، وسـاهم فـي تأسيس ملكية تموز . كان محرضا على ردود الفعل المحافظة ف ظل الجمهورية الثانية ومعارضـا لـسياسة القوميين . عقد معاهدة فرانكفورت مع البروسيين وسحق الكومونة .

ـ أرض النار: مجموعة من الجزر في أمريكا الجنوبية (قبالة الأرجنين وتشيلي) يفـصلها عـن القـارة مضيق ماجلان .

ـ شارل الخامس (١٣٣٨ ـ ١٣٨٠) ، توج ملكا على فرنسا عام ١٣٦٤ .

ـ لافاييت (١٧٥٧ ـ ١٨٣٤) ، سياسي فرنسي ، كان رئيسا للحرس الوطني مـرتين ، وأحـد مؤسـسي ملكية تموز . حاول التوفيق بين الملكية والثورة .

ـ كافور (١٨١٠ ـ ١٦٤١) ، رئيس الحكومة الإيطالية عام ١٨٥٢. وضع برنامجا لإصـلاح الدولـة ، ونشر الفكر الوحدوي في إيطاليا .

ـ بارره (١٧٥٥ ـ ١٨٧٩) ، روائي فرنسي ، ساهم في إسقاط روبسبيير ، وأصبح عـضوا فـي مجلـس المديرين .

ـ جوبينو (١٨١٦ ـ ١٨٨٢) ، صاحب كتاب مقالة " حول عدم تساوي الأعـراق " ، الـذي تـرك أثـرا كبيرا على المنظرين العنصريين الألمان .

ـ جوزيف شامبرلين (١٨٣٦ ـ ١٩١٤) ، سياسي انكليزي من مشجعي الحركة الاستعمارية .

ـ فرانسوا جيزو (١٧٨٧ ـ ١٨٧٤) ، مؤرخ فرنسي ، أصبح رئيسا للوزراء (١٨٤٧ ـ ١٨٤٨).

ـ آرثر شامبرلين (١٨٦٩ ـ ١٩٤٠) ، سياسي بريطاني عين رئيـسا للـوزراء (١٩٣٧ ـ ـ ١٩٤٠) اتبـع سياسة تهدئة إزاء هتلر وموسوليني .

الولايات المتحدة طليعة الانحطاط

الفصل الخامس

التجارب الخائبة الاشتراكية

توجب مرور قرنين كاملين ، على الثورة الفرنسية ، ليصبح شائعا ما دعاه ماركس في منتـصف القـرن الماضي : تهتك الرأسمالية ولتحقق الوعي في مسألة العودة إلى شريعة الغاب ، لمؤسسة غيـر الأيـديولوجيا والممارسة العملية لحرية السوق ، وهما العاملان اللاذان قادا العالم اليوم للإنقـسام إلـى قـسمين : الـشمال والجنوب ، مع كل نتائج النمط الغربي للتنمية الذي كلف العالم الثالث من الموتى كـل يـومين ، مـا يعـادل ضحايا هيروشيما. أما التباعد بين الشمال والجنوب فما زال يتعاظم يوما بعد يوم .

ولم يتوقف تنامي انقسام مشابه ، حتى داخل البلدان الغنية ، بين الذين يملكون ، والذين لا يملكـون ، مـع تصاعد لا يرحم لمعدلات البطالة ، والتسريح ، وعدم المساواة .. وما زال التفاوت بين هذين الطرفين يتعـاظم يوما بعد يوم .

والواقع أن ثلث العاملين في العالم البالغ عددهم ٢٨٠٠ مليون ، عاطلون ، عن العمـل ، وقـد انخفـض الانتاج في بلدان العالم الثالث بين عامي ١٩٩٠ و ١٩٩٣ ، بنسبة ١٠ % .

وحدث الامر نفسه في مجموعة دول أوروبا الشرقية ، بعد عودة الرأسمالية اليها : فقد انخفضت دخـول ٧٣ % من الاسر البلغارية إلى أقل من الحد الادنى للاجور ، بينما كان عام ١٩٩٠ ، ٤٢ % فقـط ، ووصـل ٥٠ % من الاسر البولونية إلى مستوى الفقر عام ١٩٩٢ ، مقابل ٤٠ % عام ١٩٩١ . وحـدث الامـر نفـسه في الاتحاد السوفيتي السابق ، حيث يعيش ١٠ مليون إنسان عند عتبة الفقر " عام ١٩٩١ " .

وفي البلدان شبه الصحراوية بلغ معدل البطالة ٥١ % ، وهو ضعف ما كان عليه في أعوام الخمسينات.

وفي أمريكا اللاتينية ، ارتفعت البطالة في القطاعات المدنية من ٤، ١٣ % إلى ٦ ، ١٨ % .

وهكذا نجد أن ٣٥٠ شخصا فقط يتمتعون بدخل يعادل دخول ٥ ، ٢ مليار إنسان في العالم .

كانت الثورة الفرنسية قد أحلت محل تراتبية الدم ، تراتبية المال ، إذ اهتمت بموجـب قـانون شـابلير ١٧ حزيران ١٧٩١ بحل المنظمة العمالية ، وكانت قبل ذلك قد جردت الطبقات الاجتماعية المحرومة أن تعـارض التراتبية الجديدة ، من أسلحتها .

ودام منع التنظيم العمالي قرنا كاملا ، إلى أن سمح بتأسيس النقابات عـام ١٨٨٧ . وقـد أشـار بـابوف (١٧٦٠ _ ١٧٩٧) إلى تخوم هذه الثورة التي أسست علاقات جديدة قائمة على مبـدأ الـدفاع عـن الملكيـة الفردية ، وحرية هذه الملكية في النمو على حساب غير المالكين . وكتب بابوف في العـدد ٣٤ مـن " منبـر الشعب " يقول : أي شيء هي الثورة الفرنسية ؟ إنها حرب ناشبة بين النبلاء والعامة ، بين الاغنياء والفقراء.

أمام هذه التراتبية الاقتصادية للنظام الترميدوري ، تحدث العدد ٣٥ من " منبر الـشعب " ، وفـي بـاب " بيانات الفقراء " ، عن القانون البربري الذي يفرضه رأس المال .

وقد انتحر بابوف ، قبل أن ينفذ فيه حكم الاعدام في فاندوم في ٢٨ أيار ١٧٩٨ .

ودعم نابليون من خلال الدكتاتورية ، النظام الذي تأسس باسم الحرية . وقد كتب أحـد وزراءه ، ويـدعى شامبيني والذي يعتبر نموذجا لارستقراطية المال الجديدة كتب رسالة إلى الكونت ومنتراج ، وهو قـانوني بقـي مخلصا للنظام القديم : " يلزمنا ملك يكون ملكا حقا ، لأنني مالك " ٢١ آب ١٨٠١ .

وفي الحقيقة ، فقد وضع نابليون بأسلوب أكثر ما يكون وضوحا ونمطية ، القانون الذي عرف باسمه عـام ١٨٠٤ ، والذي كرس مبادئ الملكية ، وحرية العمل اللتين سادتا منذ عام ١٧٨٩ . وأدرك لـوي بـلان ١٨١٢ ـ ١٨٨٢ هذه الفكرة ، فأشار إليها في كتابه " تاريخ السنوات العشر " بقوله : أطـل نـابليون علـى الجمعيـة التأسيسية ، فانحاز إلى الطغيان المختبئ في ثنايا مبدأ " دعه يعمل " ، وفي كلمة واحدة لقـد حـصن كـل مـا يخدم اليوم ، هيمنة " البرجوازية " .

وفي الواقع أعطى نابليون أول مثال لهذه الحقيقة ، التي طبقت بعد ذلك ابتداء من لويس فيليب ، إلى عهـد نابليون الثالث ، بل وحتى حكم بينوشيه ، تشير إلى أن الحرية الاقتصادية أبعد ما تكون عن الامتـزاج بحريـة الإنسان ، وهي تتفق بشكل جيد مع نظام سياسي ديكتـاتوري ، مثلمـا تنـسجم مـع " ديمقراطيـة " ، تمـوه ديكتاتورية المال .

ويمكن لهذا النظام أن يجد مبررلته في الدين والالحاد على حد سواء . وكان نابليون ، فـي هـذه الحالـة مبشرا أيضاً . ودلل روديرو في " يومياته " عن هذه الثقة لدى نابليون :

" لا يمكن للمجتمع أن يوجد دون التفاوت في الثروة ، ولا يمكن لهذا التفاوت أن يوجـد بـدون الـدين . فعندما يموت انسان جوعا إلى جانب انسان آخر يتقيا من التخمة ، لا يمكن قبول هذا الامر إلا بوجـود سـلطة تقول له : يريد ا   الامر على هذه الشاكلة . ولا بد في هذا العالم من وجود فقراء وعبيد . أمـا فـي الاخـرة فستكون القسمة على شكل آخر " وهذا ما جعل هذا الكافر يحرم من تتويج البابا له .

إنها نفس اللغة التي استعملها شاتوبريان حين عودة الملكية : " إنها دولـة سياسـية ، يملـك أفـراد فيهـا الألوف ، بينما يموت آخرون جوعاً ، أيمكن لهذه الدولة أن تستمر عندما لا يكون هنـاك ديـن يولـد الآمـال خارج هذا العالم ، كي يفسر معنى التضحية ؟ " مذكرات بعد الموت " .

وقال لويس فيبو في وسط القرن التاسع عشر :

عندما لا يؤمن با   ، فلن يؤمن بالملكية حتى يكون مالكا ، " وبهذا المعنى يجب فهـم مقولـة مـاركس : الدين أفيون الشعوب " .

ولدت الاشتراكية أولا من الثورة على الإنسانية نظام الحرية الاقتصادية . وقد وعى مسيحيون ، رفـضوا الاستسلام للتواطؤ ، هذه اللاإنسانية في النظام ، وصاغ الاب لا كوردير ، مثلا ، المبـدأ ذاتـه المتعلـق بـلا إنسانية الإنسان بقوله : " بين القوي والضعيف ، الحرية هي التي تقوم بالاضطهاد والقانون هو الذي يحرر".

وقد ولدت الاشتراكية من خلال البحث عن هذا القانون الذي يسمح للانسان أن يصبح إنسانا .

فشلت محاولات بناء الاشتراكية ، حتى الآن ثلاث مرات . إذ لم تكن عـام ١٨٤٨ إلا انتفاضـة ، فكـان بالامكان اخمادها في ثلاثة أيام . ولم تعش كومونة باريس عام ١٨٧١ أكثر من ثلاثـة شـهور أيـضاً ، فـتم سحقها بقوات مشتركة لبسمارك وتيير . فقد طوق جيش بسمارك باريز ، وأعاد تيير أسراه فـي سـيدان بعـد خيانة بازين ، وطلب من قائد الجيوش البروسية أن يسمح للجيش المحاصر في سيدا بالخروج اسـتعداداً لـصد عصيان محتمل في باريس .

وولد الامل من جديد في الاتحاد السوفيتي بعد ثورة أكتوبر ١٩٧١ ليتداعى بعـد سـبعين عامـا . وقـد عاشت الثورة حالة من الحصار منذ ولادتها ، بإرادة كليمانصو وتشرشل اللذين كانا البادئين بـاختراع فكـرة " الاسلاك الشائكة " والتي تولد عنها فيما بعد " سور برلين " كجواب عليها .

لم يتوقف الحصار الاقتصادي ، منذ أن بذلت الحكومات الأوروبية الرأسمالية الدعم لقادة الثورة المضادة عام ١٩١٨ مثل دنيكين ورانجل ، إلى قيام الحرب الباردة ضد امبراطورية الشر ، إلى حـرب النجـوم التـي أطلقها ريغان ، إلا لمدة أربع سنوات فقط .

فقد رأت هذه الحكومات أن هتلر يشكل أفضل " سد " ضد البلشفية ، فرحبـت بـصعوده إلـى الـسلطة وزودته بالفولاذ والمال ، والتنازلات اللازمة " معاهدة ميونيخ ١٩٣٨ " للسماح له القيام بهذه المهمة .

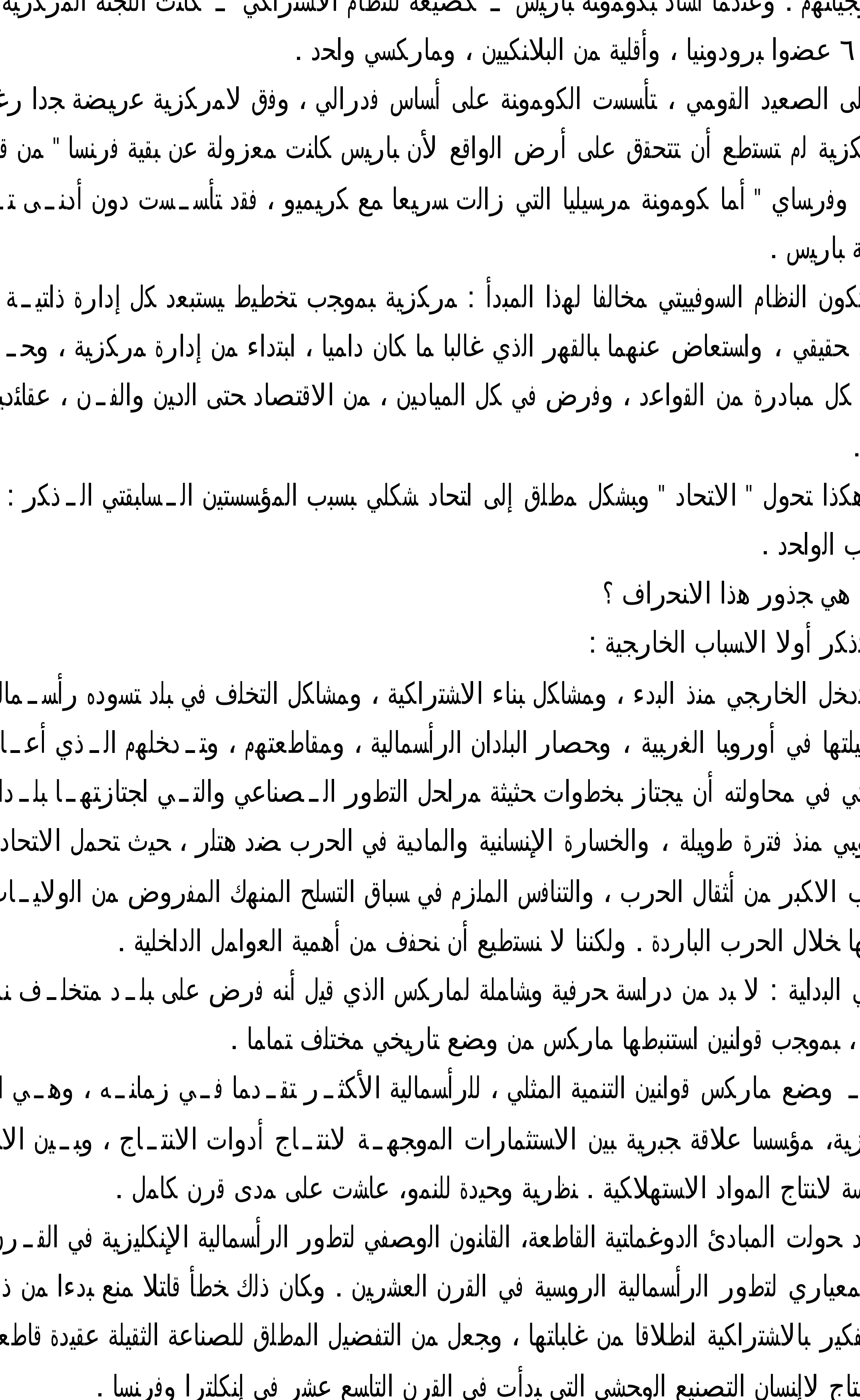
ولكن هتلر ، وبعد أن أصبح جاهزا لتنفيذ هذه المهمة ، تنبه لخطر أن يصبح أسيرا بـين فكـي كماشـة ، الغرب من جانب ، والشرق من جانب آخر ، فقـام بـاحتلال فرنـسا ، وقـصف بريطانيـا . عنـدها أدرك الأوروبيون أن الاتحاد السوفييتي هو منجاتهم الوحيدة فتحالفوا معه .

عانى الاتحاد السوفييتي كثيرا من الغزو والاحتلال الكثيف من قبل ثلثي الجيش الألماني . ثم قام بتحريـر أوروبا بدءا من ستالينغراد وحتى برلين ، محطما الجيش الألماني ، بعد أن دفع في هـذه الحـرب الـضريبة الأثقل : بطولات وتضحيات (١٧ مليون قتيل) . بعد ذلك ضاقت الحلقة حوله ، بدءا من الخطاب الـذي ألقـاه تشرشل في فولتون عام ١٩٤٦ مدشنا الحملة الجديدة .

لم يكن انهيار الاتحاد السوفييتي بسبب هزيمة عسكرية ، إنما انفجار سياسي واقتـصادي ، ولـيس بـسبب أنه اتبع عقيدة ماركس ، بل لأنه خانها .

كان ماركس قد عثر من خلال كومونة باريس على صيغة للنظام الاشتراكي . وكانت كومونة باريس قـد تميزت على المستوى الاقتصادي ، بإدارة العمال أنفسهم للمشاريع التي هجرها مالكوها الرأسـماليون الـذين انضموا لثورة فرساي المضادة بقيادة تيير . وقد دعى لينين في مقالة له في البرافـدا ، هـذا الاسـلوب مـن الادارة بالنظام التعاوني ، وسيدعى فيما بعد ، أي في عام ١٩٦٨ " بالتسيير الذاتي " .

أما على الصعيد السياسي فلم يتوقف ماركس ، منذ تأسيسه الاممية الأولى ١٨٦٤ عن رفض كامل لمبـدأ الحزب الواحد . لقد أدرك أهمية أن يتوحد كل أولئك الذين وافقوا على تحطيم النظام الرأسمالي مهمـا كانـت



أيديولوجياتهم . وعندما أشاد بكومونة باريس ـ كصيغة للنظام الاشتراكي ـ كانت اللجنة المركزية للكومونة تضم ٦٠ عضوا برودونيا ، وأقلية من البلانكيين ، وماركسي واحد .

على الصعيد القومي ، تأسست الكومونة على أساس فدرالي ، وفق لامركزية عريضة جدا رغم أن هذه اللامركزية لم تستطع أن تتحقق على أرض الواقع لأن باريس كانت معزولة عن بقية فرنسا " من قبل جيوش بروسيا وفرساي " أما كومونة مرسيليا التي زالت سريعا مع كريميو ، فقد تأسست دون أدنى تدخل من كومونة باريس .

وتكون النظام السوفييتي مخالفا لهذا المبدأ : مركزية بموجب تخطيط يستبعد كل إدارة ذاتية ، أو نظام تعاوني حقيقي ، واستعاض عنهما بالقهر الذي غالبا ما كان داميا ، ابتداء من إدارة مركزية ، وحزب واحد أقصى كل مبادرة من القواعد ، وفرض في كل الميادين ، من الاقتصاد حتى الدين والفن ، عقائدية خانقة وقاتلة .

وهكذا تحول " الاتحاد " وبشكل مطلق إلى اتحاد شكلي بسبب المؤسستين السابقتي الذكر : المركزية والحزب الواحد .

ما هي جذور هذا الانحراف ؟

لنتذكر أولا الاسباب الخارجية :

التدخل الخارجي منذ البدء ، ومشاكل بناء الاشتراكية ، ومشاكل التخلف في بلد تسوده رأسمالية متخلفة عن مثيلتها في أوروبا الغربية ، وحصار البلدان الرأسمالية ، ومقاطعتهم ، وتدخلهم الذي أعاق الاتحاد السوفيتي في محاولته أن يجتاز بخطوات حثيثة مراحل التطور الصناعي والتي اجتازتها بلدان الغرب الاوروبي منذ فترة طويلة ، والخسارة الإنسانية والمادية في الحرب ضد هتلر ، حيث تحمل الاتحاد السوفيتي النصيب الاكبر من أثقال الحرب ، والتنافس الملزم في سباق التسلح المنهك المفروض من الولايات المتحدة وأتباعها خلال الحرب الباردة . ولكننا لا نستطيع أن نخفف من أهمية العوامل الداخلية .

في البداية : لا بد من دراسة حرفية وشاملة لماركس الذي قيل أنه فرض على بلد متخلف نمطا من التنمية ، بموجب قوانين استنبطها ماركس من وضع تاريخي مختلف تماما .

١ ـ وضع ماركس قوانين التنمية المثلي ، للرأسمالية الأكثر تقدما في زمانه ، وهي الرأسمالية الإنكليزية، مؤسسا علاقة جبرية بين الاستثمارات الموجهة لانتاج أدوات الانتاج ، وبين الاستثمارات المكرسة لانتاج المواد الاستهلاكية . نظرية وحيدة للنمو، عاشت على مدى قرن كامل .

لقد حولت المبادئ الدوغماتية القاطعة، القانون الوصفي لتطور الرأسمالية الإنكليزية في القرن ١٩ إلى قانون معياري لتطور الرأسمالية الروسية في القرن العشرين . وكان ذلك خطأ قاتلا منع بدءا من ذلك الحين، من التفكير بالاشتراكية انطلاقا من غاياتها ، وجعل من التفضيل المطلق للصناعة الثقيلة عقيدة قاطعة ، معيدا بذلك انتاج لاإنسان التصنيع الوحشي التي بدأت في القرن التاسع عشر في إنكلترا وفرنسا .

بدت الاسبقية المطلقة للتنمية الصناعية في ظروف التخاف الاقتصادي عام ١٩١٧ ، ومن ثم إعـادة بنـاء ما خربته الحرب الثانية ، وكأنها ضرورة تاريخية لمواجهة حصار القوى الرأسمالية .

لم يتضح هذا الدمار الانساني إلا بعد الاقلاع الصناعي (١٩٣٧ والعمليات الكبـرى) ، ولكنهـا حجبـت بالضرورة خلال الحرب ، بسبب المواجهة ، ولم تقع الانتفاضات الاولى فـي ألمانيـا وهنغاريـا ومـن ثـم تشيكوسلوفاكيا ، إلا بعد إعادة البناء .

٢ـ تضمن التحريف الثاني الخلط بين بناء الاشتراكية وبناء الدولة . لقد سخر ماركس من أولئـك الـذي عرفوا الاشتراكية بأنها التأميم وقال : بهذا المعنى يصبح بسمارك أعظم اشتراكي في أوروبا لأنه أمم البريد .

وعرف لينين في مقالته الاخيرة في " البرافدا " عن الحركة التعاونية ، البنـاء الاشـتراكي وكأنـه إيجـاد شبكة من التسيير الذاتي التعاوني . وقال : في الريف ، يمكن للفلاحين أن يستخدموا ممرا لعـشر أو عـشرين سنة ، ويصبح واقعا على أساس الخبرات الناجحة دون أن يدخل في وعي الفلاحـين قيمـة النظـام . وعنـدما ادعى ستالين أنه حول الزراعة إلى النظام التعاوني في بضعة شهور ، وبطريق سـلطوي ، فقـد وجـه إلـى الزراعة ضربة لم تشف منها حتى اليوم .

وقد قاد تحويل وسائل الانتاج في بلاد رأسمالي متخلف إلى الوضعية الاشتراكية ، إلى تحقيـق التـصنيع ، ليس بدءا من التسيير الذاتي التعاوني ، ولكن من " لأعلى "، ونقصد بذلك ، عن طريق الدولـة والمركزيـة . وبدلا من أن تكون .

وأما " الخطة " فبدلا من أن تكون وسيلة لأنسنة الاقتصاد ، وتوجيه الانتاج لتلبيـة الحاجـات الإنـسانية ، وليس للربح فقط ، فقد تحولت لتصبح مؤسسة تراتبية ، ذات أسلوب شبه عسكري ، دون أشـراك القواعـد أو الفنيين . أما البيروقواطيون وأعضاء الجهاز الحزبي ، فقد احتفظوا لانفسهم بكل السلطات واتخـذوا قـرارات باسم العمال الذين لم تجر استشارتهم ، أو استشيروا شـكليا فقـط ، دون أن يـؤثر ذلـك علـى التوجيهـات المركزية. هذا المفهوم عن دور الدولة ، يتناقض جذريا مع مفهوم ماركس .

٣ ـ يتضمن التحريف الرئيسي الثالث ، خلط التخطيط ، الذي لم يكن له دور أكثر مـن التوجيـه ، مـع أسلوب الادارة من " أعلى " والذي يقرر الاستثمارات ، الاسعار ، أنمـاط الانتـاج ، والتوزيـع التجـاري ، وحصر السلطات بأيدي بيروقراطية مركزية ، وأجهزة محلية معينة من قبلها .

قادت هذه لانحرافات الثلاثة الاقتصاد إلى الفوضى ، والحرية إلى الزنزانة . ولكن ما هو أسوأ في تطـور هذه الاشتراكية هو استعارتها للمسلمات الاساسية للراسمالية ، أي اعتقاد الغرب بوجود نموذج واحـد وحيـد للتطور ، يمتزج مع النمو الكمي تسانده تقنية الغرب وعلومه .

ليست الماركسية ، هي التي ماتت مع الاتحاد السوفييتي بل صورتها الكاريكاتورية المأساوية .

ولم يكن استشراف ماركس للمستقبل ، في يوم من الايام أوضح منه الآن .

وبالمقابل ، لم يتأكد بطلان استشراف آدم سميث لهذا المستقبل و " الحريته الاقتصادية " في يوم أكثر منـه الآن .

كانت " المقدمة الكبرى " لآدم سميث : " لو أن كل فرد تبع مصلحته الفردية ، لكان الرفاه العام مؤكدا ".

لقد تم دحض النظرية عبر قرنين من استقطاب أيد قليلة للثروة ، بينما كان نصيب الاغلبية المتزايـدة مـن البشر:

البؤس والبطالة والتسريح ، ليس فقط في بلدان الاستعمار القديم ،ولكن في بلـدان المـستعمرين القـدامى والجدد .

أما " المقدمة الكبرى " لماركس فكانت أن الرأسمالية تخلق الثروة (ولا يقدم ماركس هنا الكثير من المديح لهذا الانجاز) ولكنها تخلق البؤس أيضاً ، بسبب التفاوت الذي تولده بالضرورة .

ويتصف الميزان المأساوي للنصر المؤقت الذي تحرزه الليبرالية بصفتين :

ـ هناك عام منقسم ، يكلف أربعة أخماس العالم ، كل يومين خسارة تعادل ضحايا هيروشيما .

ـ هناك عالم منقسم ، حيث لا يتوقف في البلدان الغربية ازدياد عدد العاطلين عن العمـل والمطـرودين واليائسين .

من معه الحق ؟ آدم سميث أم كارل ماركس ؟

لقد أصدر التاريخ حكمه في ذلك : إن ما يطبع القرن العشرين ، هو فشل الليبراليـة الاقتـصادية ولـيس الاشتراكية .

أما القرن الحادي والعشرين ، فلن يتواصل بخير إلا إذا هجر بشكل جذري مقولـة آدم سـميث ، وإلا إذا عرف أن يبدع صيغة جديدة للاشتراكية (مهما كان الاسم الذي يعطيه لها) ، ليخرج مـن وحـشية مـا قبـل التاريخ ، حيث كان الإنسان ذئبا للإنسان ، كي يدخل في تاريخ له وجه إنساني مقدس .

اشتراكية كهذه تدعو لخلق الوحدة " السيمفونية " للعالم انطلاقا من مبدأ التبادل الخلاق بين كل الثقافـات ، لا يمكن أن تكون نتاج حضارة واحدة هي الحضارة الغربية .

يذكرنا لينين ـ وهو محق في ذلك ـ أن فكر ماركس قد تغذى من ثلاثة مصادر :

ـ الفلسفة الألمانية .

ـ الاقتصاد السياسي الانكليزي .

ـ الاشتراكية الفرنسية .

وكان ماركس نفسه يعي أن المسار التاريخي الذي رسمه (الشيوعية البدائية ـ العبوديـة ـ الاقطـاع ـ الرأسمالية ومن ثم الاشتراكية والشيوعية) لا يمكن تطبيقه عند الاقتضاء الا على حضارات البحـر الابـيض المتوسط . وتوجب لهذا أن تؤخذ بالحسبان الخصائص الجرمانية .

ولم يتوقف ماركس عن نقد القراءات الدوغماتية (ونسميها نحن الاصولية) لاعماله . فقد هب مثلا لينتقـ ذ تفسيرا كهذا لكتاباته قدمه صحفي روسي يدعي ميخايلوفسكي ، فكتب إلى رئيس تحرير المجلة عـام ١٨٧٧ : " لقد أحس ناقدي أنه ملزم بتحويل النبذة التاريخية حول تشكل الرأسمالية في أوروبـا الغربيـة إلـى نظريـة تاريخية فلسفية للمسيرة العامة يمكن فرضها على مصير كل شعب كائنة ما تكـون ظروفـه التاريخيـة - أو أينما وجد هذا الشعب - بحيث أنه يستطيع أن يصل فيما بعد إلى الشكل الاقتصادي الذي سيـضمن لنـا مـن خلال التوسع الكبير لقد رأت العمل الاجتماعي الانتاجية ، سيضمن تحقيق التطور الاكثـر كمـالا للإنـسان . انني أطلب منه المعذرة ، إنه يمنحني شرفا كبيرا ، وكثيرا من الخجل " .

وقال في رسالة وجهها بتاريخ ٨ آذار ١٨٨١ إلى فيرازاسوليتش ، أنـه لا يعتـرف بأولئـك الماركـسيين الروس الذين لا يأخذون بالحسبان التطور التاريخي الخاص لبلادهم ، وخاصة وجود المجتمعات الريفيـة التـي تستطيع أن تخلق لنفسها - ربما - اشتراكية لا تنبع من تناقـضات رأسـمالية متطـورة جـدا ، كرأسـمالية انكلترا. وذكر بأن مشروعه إنما كان وبشكل صريح وواضح لبلاد أوروبا الغربية حصرا .

وتحدث مرارا ، وبشكل خاص في مقدمته لكتاب " مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي " ، عن خـصوصية نمط الانتاج الاسيوي الذي ابتدأه بدرسة عن المجتمع الهندي . وقد نبذ المنظرون الروس هذا الاتجـاه رسـميا باعتباره توجها لاماركسيا ، من خلال المناقشات التي جرت في تفليس ولينغراد في عامي ١٩٣٠ و ١٩٣١ .

في حين أن ماركس قد مهد لدراسة أنماط الانتاج ما قبل الرأسمالي ، وأنماط الملكية في كتابـه " مبـادئ نقد الاقتصاد السياسي " ١٨٥٧ - ١٨٥٨ ، منطلقا من المعلومات القليلة جدا أيام مـاركس عـن الحـضارات غير الغربية .

مهما كان الرأي الذي نكونه عن استقراء ماوتسي تونغ لهذه الفرضيات مستبدلا بشكل ضمني أو صـريح، المصادر الغربية الثلاث التي استقى ماركس منها أفكاره . فقد اسـتعاض بـ ديالكتيك " ىـاو" ، عـن الفلـسفة الالمانية ، والاخلاقية الكونفوشية بدلا من " حرية التجارة " عند آدم سميث ، وبـالثورات الفلاحيـة الـصينية ، بدلا من الاشتراكية الفرنسية ، لا نستطيع أن نعتبر ذلك معاديا للماركسية بل كمحاولة لعدم اعتبار الماركـسية كفلسفة للتاريخ شبيهة بتلك التي عند هيغل الذي لم يعالج في تاريخه عن الفلسفة أي جـزء مـن الفكـر غيـر الغربي ، بل بدأ مباشرة بدراسة الفكر الاغريقي .

من الضروري اليوم أن نجري من جديد نقاشا جوهريـا للثقافـة والحـضارة الغـربيتين ، ومـسلماتهما ودورهما في تدمير الثقافات الاخرى ، انطلاقا من الفكرة الشريرة " للشعب المختار " (الذي يرفض الآخـر ، بل وحتى يلغيه) . لقد حاصر الغرب نفسه بإنكـاره الآخـر أو تـدميره الاشـكال الاخـرى للانـسانية . إن انحطاطه النهائي سيضع موضع الفناء حتى مستقبل الإنسان .

لقد اكتمل زمن الحوار الثقافي الذاتي عند الغرب ، وانتهى زمن انشقاقه عن الآخرين ، وسيطرته.

واليوم ، جاء زمن الحوار بين الحضارات ، إذا شاء الإنسان أن يتخطى دون أن يمـوت ، العتبـة الثالثـة من تاريخه .

كانت العتبة الاولى ولادة الإنسان مع الاداة ، وكانت العتبة الثانية ولادة الحضارة مع الزراعـة ، وأمـا الثالثة ، فهي معالجة الذرة في قلب المادة ومعالجة الجينات في قلب الحياة .

يملك الإنسان الآن القدرة على إلغاء كل الانجازات السابقة ، ولديه القـدرة التقنيـة لمعالجـة الجينـات ، وكذلك إعادة الإنسان إلى حياة الحيون التي كانها قبل اكتشاف الادوات . لديه القدرة التقنية في معالجـة الـذرة للقضاء على كل أثر للحياة على الأرض .

أما أحلام السيطرة التي راودت مخيلة ديكارت وفاوست فهي تقود إلى عالم مجنـون بالعـار ، واسـتنفاذ المصادر الطبيعية .

أما دوغماتية آدم سميث فقادت إلى تحويل الإنسان إلى انسان آلي " روبوت " فارغ ، والى خداع العقـول والقلوب .

أما الحضارات الاخرى ، حضارات آسيا والهنود الأمريكيين ، وأفريقيا وحضارة الإسلام ، فقـد عرفـت وعاشت روابط اخرى مع الطبيعة والانسان والإله .

والمشاكل المطروحة على مستوى الأرض كلها ، تتطلب إجابات على مستوى الأرض أيضاً .

ولن نستطيع حل هذه المشاكل إلا إذا نجحنا باعادة الملامح الإنسانية التـي مزقتهـا أربعـة قـرون مـن الاستعمار والهيمنة الغربية . لن نستطيع حلها الا إذا نجحنا في تطوير حوار حضارات حقيقي بين كل ثقافـات العالم .

والهدف الرئيسي لحوار الحضارات هذا ، هو المساهمة في تحقيق الوعي (لـيس بـين عـدد قليـل مـن المختصين أو المشتغلين بالفلسفة ، إنما بين الجماهير الشعبية الواسعة) ، بالمشكلات العالمية الراهنـة والتـي نتج أهمها من السيطرة الغربية المطلقة ومنذ زمن طويل ، والوعي بأن حلها لا يمكن أن يتم إلا بـالحوار مـع الحضارات غير الغربية، من أجل إنجاز وإحياء علاقات جديـدة بـين الإنـسان والطبيعـة ، وبـين الإنـسان والانسان ، وبين الإنسان والإله .

هكذا فقط ، نستطيع أن نبدأ استشراف ثقافة كونية ، مؤسسين وحـدة إنـسانية حقيقيـة ، لـيس بـالخلاط الكهربائي ، ولكن وفق مفهوم التخلي عن فكرة الهيمنة الثقافية، من أجل التناغم الثقافي الشامل .

الهوامش

- بابوف (١٧٦٠ – ١٧٩٧) ، ثوري فرنسي أعدم بسبب تآمره على حكومة المديرين . تقتـرب أفكـاره من الشيوعية من خلال اقتراحه تأسيس نظام تعاوني للأرض .

- شامبيني .

ـ شاتوبريان (١٧٦٨ ـ ١٨٤٨) ، كاتب فرنسي شهير تـأثر بأفكـار الثـورة ، وشـارك فـي حـرب الاستقلال الأمريكية .

ـ لويس فيليب (١٧٧٣ ـ ١٨٥٠) ، أصبح امبراطور فرنسا بين عـامي (١٨٥٢ ـ ـ ١٨٧٠) ، ومـارس سلطة مطلقة بين عامي (١٨٥٢ ـ ١٨٦٠) . حارب بسمارك وأسره الألمان عام ١٨٧٠.

ـ لويس فايو (١٨١٣ ـ ١٨٨٣) ، كاتب وصحفي فرنسي ، رئيسي ، رئيس جريدة يونيفرس التـي جعـل منها لواء للتعصب الكاثوليكي .

ـ مشيل بازين (١٨١١ ـ ١٨٨٨) ، مارشال فرنسا ، أسر في معركة ميتز ، ثم حكم عليه بالإعـدام عـام ١٨٧٣ . فر من فرنسا والتجأ إلى مدريد .

ـ جورج كليمنصو (١٨٤١ ـ ١٨٢٩) ، سياسي فرنسي أصبح رئيسا للوزراء مرتين . قاد فرنـسا إلـى النصر في الحرب العالمية الأولى .

ـ أنطون دنيكين (١٨٧٢ ـ ١٩٤٧) ، أحد قادة روسيا البيضاء ، حارب الثـورة البلـشفية وخاصـة فـي أوكرانيا (١٩١٩) .

ـ البارون رانجل (١٨٧٩ ـ ١٩٢٨) ، جنرال روسي خلف دينيكلين في قيـادة جـيش الـروس البـيض (١٩٢٠) . حارب الجيش الأحمر في أوكرانيا وكريميو.

الولايات المتحدة طليعة الانحطاط

الفصل السادس

أحلام الغرب وأكاذيبه

إنه الطريق العريض لتتخلص الشعوب التي خضعت طويلا للغرب ، من قوانين تنمية خارجيـة وغريبـة عن ثقافتها الخاصة ، ومفروضة من الاستعمار .

وليس المطلوب أن ننكر إسهام الغرب ، إنما المطلوب أن نعطيه مكانه الصحيح ، كل مكانـه ، ولكـن لا شيء أكثر من مكانه ، وبشكل خاص أن يسخر بشكل خاص قوة العلم والتقنية لخدمة غايات إنسانية .

وهكذا فقد نستطيع أن نتواصل وبشكل إنساني ، الملحمة الإنسانية التي بدأت قبل ثلاثة ملايين عام.

وقد كتب رجل فضاء ، وطأت قدماه تراب القمر ، عند عودته إلى الأرض : " بـدت الأرض مـن هنـا جميلة ومضيئة . . بدت موحدة وهادئة ".

للمرة الأولى لمحت عين بشرية الأرض في كليتها ، دون حدود تقسمها ، سـابحة فـي فـضاء لا نهايـة لآفاقه .

أننجح في التشبث بها في الوقت المناسب ؟ في وحدة تاريخها ؟

منذ فجر الحضارات الاولى ، منذ عمليات التوهج الأولى في الفكـر والحـب ، إلـى أملنـا الحاضـر ومشروعنا للوحدة الإنسانية ؟

يمكن لنا منذ الآن كي نغير جذريا العلاقات الاجتماعية :

- أن نخلق نموا جديدا ، غير النمو الذي يسحق البشر ، وحرياتهم ، نموا لا يقود بعد الآن إلى مـزاعم " توازن الرعب " ، التهديد الرئيسي لأمن الشعوب وسلامها .

المطلوب نمو نوعي لا كمي ، يشبه حلم الام بنمو طفلها ، أو حلم كل منا ، فيما يتعلـق بالـذين نحـبهم .

المطلوب نمو بالمعنى الذي قصد إليه القديس غريغوري دونيس عنما قال : " ا هو الاكتشاف الابدي للنمـاء الابدي " .

- أن نفتح أبواب أوروبا للعالم ، للعالم الثالث بشكل خاص ، مع الاصغاء للحـضارات الاخـرى ، لان المشكلات التي تنتج عن النمط الغربي للتنمية أصبحت مشكلات العالم كله ، ولن تحل الا بالاهتمـام بثقافـات وحكمة شعوب العالم الثالث . إنه أحد الشروط الجوهرية لقيام سلام حقيقي لا يشوبه ظلم أو سيطرة .

- أن نجري تبديلا جوهريا في علوم التربية والتعليم ، وتسخيرها لتكييـف الإنـسان لا لحاجـات النظـام القائم ، بل لبناء المستقبل ، ويجب من أجل ذلك تعليم الطفل أن العالم ليس حقيقة مكتملة وقبليـة ، ومتـصلبة ، ولكنه عمل علينا نحن صياغته .

نعتقد أن الواجب الأول للمثقفين ، هو إزالة القناع عن اللغة الكاذبـة للكراسـات المدرسـية ، ووسـائل الاعلام التي تخدم الغرب ، كي يحقق سيادته بواسطة أيديولوجيات خداعة تحت اسم " الحداثة " .

ليس هناك مسلمة واحدة من هذه المسلمات التي يزعم أنها عصرية إلا كاذبة ، وفي المقدمة منها مسلمات الديمقراطية ، والدفاع عن حقوق الإنسان ، والحرية .

كانت الديمقراطية دائما ، خدعة الاقلية التي تملك العبيد والثروات .

وما يسمونه " الديمقراطية الاثينية " في زمن بيركلاس ، ويقدمونها لنا مثالا يحتـذى ، " مثـل ديمقراطيـة المرسيدس " ، كانت في حقيقة الامر حكومة تمثل عشرين ألف مواطن حر ، مقابل مئة ألف عبـد محـرومين من كل حق . كان المطلوب تراتبية مبنية على الاستعباد ، عمدت على أنها ديمقراطية .

إنها ديمقراطية الاسياد، ولا ديمقراطية للآخرين .

نادى إعلان " استقلال الولايات المتحدة " بالمساواة في حقوق كل البشر ، وبعد هذا الاعـلان المهيـب ، حافظت الولايات المتحدة ولمدة قرن كامل على الرق . أما التمييز العنصري ضد السود فما زال قائما حتـى يومنا هذا .

إنها ديمقراطية للبيض فقط ، ولا ديمقراطية للسود .

أما إعلان حقوق الإنسان والمواطن الذي صدر عن الثورة الفرنسية ، فقد أكد بكل شموخ أن " كل النـاس يولدون أحرارا ومتساوين في الحقوق " ، ولكن الدستور الاقطاعي الذي شكل الاعلان مقدمة له ، استبعد مـن حق التصويت ثلاثة أرباع الفرنسيين لأن فقرهم جعل منهم " مواطنين سلبيين " .

إنها ديمقراطية الاغنياء ولا ديمقراطية للفقراء .

ونجد الموقف نفسه في ميدان حقوق الإنسان .

لقد جرى تعداد هذه الحقوق في " الاعلان العالمي لحقوق الإنسان " الذي صدر عن الأمم المتحـدة عـام ١٩٤٨. كانت كل هذه الحقوق تعابير متناقضة بشكل جلي مع الواقع ، وسنكتفي بايراد مثالين فقط :

ـ المثال الأول يتعلق باعلان " حق العمل " ، بينما يخلق النظام القائم ملايين العاطلين عـن العمـل ، ولا يتوقف عددهم عن الازدياد .

ـ المثال الثاني ، هي المادة التي تتحدث عن " حق التصويت " ، بينما نرى أن الحساب المـصرفي ، قـد حل محل بطاقة الانتخاب ، ليس فقط في الولايات المتحدة ، حيث تكلف الحملة الانتخابية المرشح إلى مجلـس الشيوخ أو النواب ٥٠٠ مليون دولار ، بل في الكثير من البلـدان حيـث تـسمح الثـروة بـشراء الاداتـين الضرورتين للوصول إلى السلطة : وسائل الاعلام بقصد التلاعب بالرأي العام ، وصناعة السلاح لقهر الـرأي العام كحل أخير .

ويقولون عن هذا " الاعلان " أنه " عالمي " .

ويستطيع كل الناس الادعاء أنهم يعملون وفق حقوق الإنسان : المساواة الكاملة أمام القـانون ، فالعاطـل عن العمل والمليادير ، كلاهما يتمتعان بحق متساو في تأسيس صحيفة أو سلسلة من المحطـات التلفزيونيـة .

وتتجلى هذه المساواة مرة أخرى أمام القانون عندما نعلم أن كليهما ممنوعان من سرقة رغيف خبز ، لانهما سينالان نفس الجزاء .

هؤلاء الذين يدعون لانفسهم أنهم المدافعون عن حقوق الإنسان على امتداد العالم كله هم الاكثر ارهابا في العالم ، والاشد انتهاكا لحقوق الإنسان ، ليس فقط من خلال ماضيهم البعيد " مجزرة هنود أمريكا ، معاهدات الرقيق الاسود ، الاستعمار بشكل عام " وإنما أيضاً من خلال جرائمهم حديثة العهد ، كما جرى عندما أمطروا أرض فيتنام بالنابالم ، وزودوا بالمال والسلاح والمدربين ، جلادي رواندا ، وكما جرى في العراق ، حيث يتحملون مسؤولية موت ٤٠٠ ألف انسان ، وهم المذنبون الحقيقيون في وفاة ٢٥٠ ألف طفل في المستشفيات في أقل من خمس سنوات " أرقام منظمة الصحة العالمية "، وفي وفاة عدد مماثل خارج المستثفيات بسبب استمرار الحصار على العراق .

بهذا المنطق اجتمع رؤساء مجموعة السبعة ، وهي الدول الاكثر غنى في العالم ، في ليون ١٩٩٦، لمحاوبة الارهاب ، برعاية الولايات المتحدة ، ولن تكرر ذلك كثيرا ، فأولئك الذين يريدون فرض نمط التنمية الليبرالية على العالم ، يعادل هذا النمط وفاة عدد مشابه لضحايا هيروشيما كل يومين .

هؤلاء الاساتذة الغرباء عن الاخلاق ، يعطون العالم مثالا للاصولية الاكثر تطرفا .

تعني " الاصولية " الزعم بامتلاط الحقيقة المطلقة ، وبالتالي ، ادعاء الاصوليين بحقهم " بل بواجبهم " في فرض هذه الحقيقة على الاخرين . وأكمل مثال على الاصولية هو الاستعمار ، إذ تحرك المستعمرون تحت راية زعم مزدوج :

أولا التبشير بالنصرانية لفرض مفهومها الخاص عن الدين على العالم . وقد حمل العسكريون والتجار مسؤولية ما تبقى وهو المجازر والاستغلال . وبعد ذلك ، وبعدما تراجعت مقولة التبشير، زعموا بأنهم يحملون " الحداثة " إلى العالم .

وعندما توحد الاستعمار تحت قيادة الولايات المتحدة ، تبين أن " النظام العالمي الجديد " ، ليس الا تكرارا للفوضى الاستعمارية القديمة ، والتي أطلق عليها منذ ذلك الحين " الليبرالية الاقتصادية الشاملة " ، والتي أعطت فاعلية أكبر للهيمنة على العالم ، وإهلاكه ، بطرق اقتصادية " دون استبعاد التدخل العسكري " . وأصبحت إسرائيل بعد الغاء التمييز العنصري في اتحاد جنوب إفريقيا وهي في الاساس لاحسن حليف لهذا النظام ، أصبحت الممثل الاخير للاستعمار التقليدي ، أي العنصري .

أما الاصوليات الاخرى فقد نشأت من خلال انتفاضات ضد الاصوليات الغربية الاساسية ، وضد المتواطئين معها " من إسرائيل حتى السعودية ومن إيران الشاه حتى زائير موبوتو " . وكانت الثورة الثقافية في الصين المثال الأول لرفض كلي للغرب بكل أبعاده " بدءا من الضغط الوحشي حتى موسيقى بتهوفن التي اعتبرت برجوازية " .

وكانت إيران الخميني قد شكلت ظاهرة مماثلة في رفض نظام حياة غريب على ثقافتها التـي تعـود إلـى آلاف السنين .

وتعتبر كل الاصوليات الاخرى ، بتطرفها ، وأحيانا بلغتها المهجـورة ، ردود فعـل علـى الاصـوليات الغربية الاساسية ، دفاعا عن هويتها . غالبا ما كان رد الفعل هذا عودة إلى الماضي لأنها تحلم فـي مواجهـة الغزو الثقافي ، بعصر ذهبي سابق على هذا العدوان ، ونادرا ما نتجه نحو المستقبل وفق مشروع حقيقي .

الولايات المتحدة طليعة الانحطاط

الفصل السابع

الحضارة ومعتقدات العوالم الأخرى

لاهوتيات التحرير

تعتبر مشكلة الإنسان ـ لا مشكلة اجمالي الانتاج الوطني ـ هي أحدى أصعب المشكلات التـي تواجـه البلدان غير الغربية، لاكتشاف المبادئ الاساسية لانجاز تنمية حقيقية . وهي مشكلة استعادة الثقافـات المتوقفـة بفعل خمسة قرون من الاستعمال ، والتي أعطات هذه البلدان عظمتها الاولى ، وهي قـادرة اليـوم أن تعلمنـا كيف نبني حضارة مؤسسة على علاقات أخرى ـ غير العلاقات السائدة حتى الآن ـ مع الطبيعة ، والانـسان ، وا .

أولا، في علاقاتنا مع الطبيعة : فبدلا من اعتبارها مخزنا ومستودعا ، مخزنا نـستطيع أن نـستخرج منـه بدون نهاية ، مصادر الطاقة والمواد الاولية ، ومستودعا لفضلاتنا ، علينا أن نستعيد شعورنا بـأن الطبيعـة ، ليست جزء منا ، بل نحن جزء منها .

ذات يوم ، قال لي صديق أفريقي أسود : تعود الطبيعة إلى مجتمع كبير جدا ، مات جزء منـه ، وجـزء مازال حيا، وجزء ثالث لم يولد بعد ، نحن مسؤولون أمام الجميع .

ونحن ؟ أنفكر بأحفادنا الذين عليهم بعد قرون أن يحموا انفسهم من أشعاعات مخلفاتنا الذرية.

أجاب زعيم هندي أمريكي من إقليم " ميلك ريفر" القريب من حدود مونتانا ، أجاب الغـزاة الأمـريكيين الذين حثوه للاسراع بتوقيع " ميثاق إقليمي " من أجل التخلي عن الأرض :

" مازال هناك وقت طويل تتألق فيه الشمس ، وتجري الانهار ، وتبقى الأرض ، لتهـب الحيـاة للإنـسان والحيوان . بما تفكرون أن الخالق قد أرسلكم ، لتنظيمنا حسب إرادتكم ، ولكـن افهمـوا جيـدا سـبب حـبي للإرض. أنا لم أقل ابدا أن هذه الأرض ملكي استخدمها على هواي . إنما وضـعت هنـا مـن قبـل الـروح العظمى لخدمتها، ولذلك لن نستطيع بيعها لأنها ليست ملكنا .

في نظام يباع فيه كل شيء ويشري ، أين نحن من الاحترام للطبيعة والإله ؟

وفي لوحة صينية تعود لعصر سونج (القرن الثالث عشر) ، نعيش تحت تأثير مبـدأ " تـاو " : " أن تكـون واحدا مع الكل " ، إن شبكات الانهار وسلاسل الجبال ، والغيوم ، والاشجار ، وهذا الإنسان الضئيل فـي سـلم

الاحجام ، كل ذلك يعطينا الاحساس أن ما يحيط بتفاصيل اللوحة ليس العين الجيومتريـة للإنـسان الغربـي ، لأن المشهد يمثل رمزا مرئيا لعالم بأكمله ، مع قوى تأتينا من كل أنحاء اللوحة ، فنغـوص فـي نـوع مـن الشمولية الكونية ، تقرب من الصلاة عند رسامي اللانهاية.

ماذا يبقى في حياتنا ، وفي الفنون التي يسمونها معاصرة ، من هذه المشاعر الغامرة ؟ !

وفي علاقتنا بالآخر، فقد اكتشفنا أنه إلى جانب " الانا " الصغيرة ، وهي مركز ومقياس كل شيء ، هنـاك الاحساس بالوحدة ، أي بالشمولية الإنسانية ، التي يشعر فيها كل إنـسان أنـه مـسؤول عـن مـصير جميـع الآخرين .

كانت تجربة أربعة شهور قضيناها في كوخ صغير ، على الحدود بين غينيا والسنغال ، علـى بعـد ألـف كيلو متر من الشاطئ ، حيث لا يسكن المنطقة مسيحي أو مسلم ، بل من نسميهم ، لافتقارنا لمفـردة أخـرى " بالحيويين " ، قد تركت في نفسي أثرا عميقا جدا . وحتى في باريس ، تدلنا معاشـرة المجموعـات المهـاجرة من المغاربة والسنيغاليين ، على ما بقي لنا أن نتعلمه مـنهم ، طالمـا أن المـساعدة المتبادلـة ، والمجتمـع الإنساني ، يكملان " الكرم " المؤسساتي لمنظماتنا .

أما علاقتنا مع ا ، فنحن بحاجة لإيمان الآخرين ، وكذلك لشكهم وكفرهم ، كي نتحرر من آلهة القـوة ، الملوحة بالصاعقة مثل زيوس وجوبيتر أو آلهة الحرب مثل الهاف ، وكل الاصنام المتشبهة بالآله ، مثل آلهـة المدن القبلية أثينا ، أو الآلهة الصغار التي تهب النصر - أو تأمر بالمجازر لحماية " شعبها الامختـار " مـن الآخرين . إن هذه الآله القبيلة تتوعد بالجحيم من يعصيها وبالنعيم من يطيعها .

أما المسيح الآسيوي فقد ظهر كشهادة إلهية على القدرة والعوز، والانفصال الجذري عـن كـل الآلهـة السابقة ، ولترديد أصداء كل حكمة الشرق: حكمة كتاب " فيدا " الذي ابتدئ بكتابته انطلاقا من الألـف الثـاني قبل الميلاد ، والذي مكن حكيما هنديا أن يقول : إن ديانتنا " الفيدية " الخالدة ، هي منبع كل الـديانات ، وكـل الثقافات وكل الحضارات .

وقال الأب الجزويتي مونشانان عن الفيدا : إنه " الترنيمة الطقـسية المطلقـة " ، لأنهـا تعلـن أولا عـن وحدانية الكون كله، وتوحد الإنسان مع ا .

وتصدح ترانيم الرانيم الفيدا : " أسماء ا كثيرة ، ولكنه واحد " . إنها تسبح بوحدانية ا ، ووحدة الكـل، منذ ألفي عام قبل كل الحركات الروحية الأخرى . إن ترانيم الفيدا وتفاسيرها في كتاب " الاوبانيـشاد " الـذي ظهر بعد الفيدا بقرون ليعبر عن نفس الرؤيا ، إنما هي استبطان للإنسان المـسكون بالإلـه : " أنـت ذاك " أي إن " البراهمان " وهو الوحدة الكلية وهو ما ندعوها يوجد بكليته في الإنسان ، إن " الأنـا " الاكثـر عمقـا فينا، تتطابق معه والبرهمان أبعد مما يكون وما لا يكون ، إنه في أعماق كل ما هو كائن ، وخـارج كـل مـا هو كائن ، شأنه شأن الملكوت الذي وعدنا به المسيح ، هذا الملكوت الذي لا ندخله بالغزو وإنما بالزهد .

ونفس التعاليم يحملها إلينا " الريشيس " ، أي زهاد الهند الذين يحثون على نبذ كل ما هو خاص بنا ، كل ما هو " ملكيتها " : أي رغباتنا الجزئية ، وأشياؤنا التي تجعلنا نشعر بالرضى ، وذلك كي لا نعمل إلا بما هو الحقيقة الباقية في العالم : الوحدة المطلقة ، وهي كائن لا يمكن تجزئته ، وضمير ، وبهجة علوية . هذه الصيغة الأولى للثالوث : صمت الرب ، الاب غير المرئي ، ثم كلام الرب ، الابن ، الذين اصبح مرئيا عن طريق حياته وكلامه وأفعاله ، وكل ما نستطيع أن نعرفه عن الإله غير المرئي ، المحتجب ، وأخيرا وجود ا ، الروح التي جعلت من كل إنسان وعدا من ا ، الذي جعل من نفسه بشرا ، لكي يستطيع الإنسان أن يصبح الها ، كما قال آباء الشرق .

كتب طاغور :

" إن الحالة ، التي تتحقق فيها اللحمة مع الجميع وتنفذ إلى كل الاشياء ، من خلال الاتحاد بالإله ، هي الهدف الاسمي ، واكتمال الإنسانية " .

هذه هي أيضاً رسالة " التاوية الصينية ، مستبعدة كل ثنائية ، وقد كتب تشوانج تسو في القرن الرابع قبل الميلاد : " كل الكائنات وأنا ، كنا في الأصل واحدا . أن تكون واحد مع الكل ".

هذا الايمان ، الوجه الداخلي لكل عمل انساني بحث ، ونعني بذلك أنه ليس له من دافع إلا خدمة " الكل "، متخليا عن كل رغبة جزئية (ويسمى اللاهوتيون ذلك Knenose) . سواء كانت رغبة تتصل بالشخص نفسه ، أو بجماعة جزئية : كالعرق ، أو الأمة ، أو الكنيسة أو الحزب . وتعتبر هذه الفكرة نقيضة للمفهوم القبلي ، للشعب المختار " في العهد القديم ، الذي حطمه المسيح بشكل جذري . هذه هي اليقظة التي كان بوذا شاهدا عظيما عليها .

ولقد ربطت اراديا ، دعوات الحكمة السابقة هذه برسالة السيد المسيح في حياته ومماته ، لأنه الاقرب الينا منها ، وأقرب في ايمانه الموحد للبشر ، لقد جسد هذه الحكمة في شخصية واحدة . شخص واحد غيرتنا محبته ، وأعطت معنى لحياتنا . كان موته بعثا لكينونتنا . وقد كتب أحد الروحيين البيزنطيين : " أنا أحب ، إذن أنا موجود ".

المسيح هو أولا التخلي عن الذات ، والتخلي عن انتماءاتنا الجزئية والقطيعة المطلقة : أولا مع " العهد القديم " الذي نقض ناموسه كله . أضف إلى ذلك بأننا ندرك أن القديس بولس الذي لم يرجع إليه في حياته وأعماله وأقواله ولم يبدا الاهتمام به إلا بعد موته محولا صليبه إلى مركبة للنصر وقيامته معجزة القدرة الإلهية كي يعيد في رسائله السابقة على الأناجيل بناء هذه الحياة انطلاقا من مقطع في العهد القديم وكأنه - أي المسيح - لم يأتي لنا بجديد . " لقد تنبأ الأنبياء وموسى بمن عليه أن يأتي وأنا لا أقول شيئا بعد ذلك "، وكأن المسيح كان سعيدا أن يلعب دورا في سيناريو كتبه الأنبياء . إن مسيح بولس ، ليس يسوع . فالمسيح إنما هو ترجمة يونانية للمسيا اليهودي الذي توجب عليه إعادة بناء مملكة داوود . ولهذا توجب عليه إذن أن

يكون سليلا ومكملا لداوود هذا ، الرئيس الحربي لعصبة من المرتزقة الذين يـروي لنـا سـفرا صـاموئيل والملوك لنتهاكاتهم الدامية وأعمال الدناءة التي ارتكبوها .

ليس يسوع داوود جديدا ولا هو لبن رب (الجنود) . وليس الحب الذي وعظنا به لنجازا لثأر العهد القـديم، ولا حتى تضامنا قبليا كما جاء في سفر اللاويين حيث يحب كل واحد الآخر إنما في حدود القبيلة فقـط ، كمـا يؤكد التلمود . عندما شرح كلمة " قريبك " في إطار التشريع في الكتاب المقدس ، حـدد التلمـود أنـه يعنـي الاسرائيلي فقط لأن النص الكتابي يقود إلى هذا التفسير .

وسيكون هذا كما قال يسوع أمرا جديدا لأنه لم يظهر في ألواح موسى . هذا التحويل من " حقيـر جـدا " إلى " سام جدا " لقائد حربي ومن أسلوب داوود ويوشع ، سيجعل من المسيحية يهودية مصححة ، ومن يـسوع إكمالا لوعد قطع " للشعب المختار " وهكذا ستمحى الجدة الجذرية لرسالة يسوع من خلال مسخ حياته البائـسة المتواضعة عن طريق تمجيد وظيفته كمسيح ، حاملة خاتمة منتصرة للتاريخ اليهودي .

وكتب المفسر الكبير " داوود " في كتابه (مؤسس المسيحية) ما يلي : " تترافق المسيحية اليهوديـة بـدور سياسي وعسكري " لإبن " داوود ، ولخر ما كان يتمناه المسيح أن يلعب هذا الدور ".

ويضيف في كتابه الثاني " حكم مملكة الرب " : ليس لكلمات يسوع ما يوازيها فـي التعـاليم اليهوديـة ، ويجب أن لا تعتبر رسالة يسوع وكأنها محاولة لتصحيح اليهودية ، فهو يحمل رسالة جديدة تمامـا ، لا يمكـن توافقها مع النظام الواوث آنذاك ".

وقال آلبرت ستوفر وهو شارح آخر يعمل في كلية لاهوت زيوريخ ، بلغة اكثر تطرفـا " يبلـغ يـسوع رسالة جديدة من ا ، ديانة جديدة ، خلق جديد ، لا رابطة بينه وبين التوراة . " من كتاب يسوع وتاريخه ".

وكتب لاهوتي آخر هو جونزالس ماوس : " إن الرب الذي دعى له يسوع ، غير الموجـود فـي العهـد القديم " .

أما بولس الذي أعاد تهويد المسيحية ، فقد كان السلف لكل الذين ربطوا بين الكنيسة والسلطة منـذ القـرن الرابع الميلادي : الصليبيون ، ومحاكم التفتيش ، والاستعمار الذي أخذ صـيغة " التنـصير " والتعـاون مـع فرانكو، وكذلك مع بيتان ، وما سمي بالاصلاح " الاحياء " الذي تعارض مـع الانفتـاح النبـوي للفاتيكـان ، وادانة لاهوتيات الحرية التي هي - ربما - لحد أعظم الامال في عصرنا ، لأنها تحقق السمة الإلهي بعـد أن توقفت عن التفكير بمصطلحات خارجة عن وعي الإنسان ، والتي تعفيه من مسؤولياته أمام ا الذي ينظم مـن خارج ومن أعلى ، مصائر البشر .

وعلينا الاعتراف أن التجارب التاريخية لبناء الاشتراكية والتي حملت إسما مغتصبا هـو الماركـسية قـد فشلت . والى جانب إخفاق الإنسان فإن الخطأ النظري الرئيسي لما يسمونه " الاشـتراكية التاريخيـة " يمكـن يكمن في الزعم أنه بالامكان تحرير الإنسان عن طريق تجريده من " بعده المتعالي " .

لكن لاهوتيان التحرير لم تشاطر هذا المفهوم رأيه في التقليل من قيمة الإنسان . إنها تشارك فـي القناعـة أن كل معركة في سبيل التحرير ، تحتاج إلى اكثير من التعالي ، أكثر مما تحتاج إلى الحتمية .

لقد فتحت هذه اللاهوتيات طريقا جديدة لاتحاد لا ينفصم بين الايمان والتاريخ .

وبنفس التوجه ، تذكر هذه اللاهوتيات الافراد ، بتعالي التاريخ ، وتذكر أفرادا آخـرين بالبعـد التـاريخي للتعالي . وبهذا الشكل تجاوزت ثنائيتين مقلوبتين ونمطيتين تسدان الطريق أمـام الحريـة المطلقـة للإنـسان : الاولى : بالتعالي الذي ينظر إليه كخارجية أخروية مقللة بذلك أهمية الصراعات التاريخية للإنـسان ، والثانيـة إلستزام بالتاريخ دون مرجعية مطلقة .

فقد قادت هاتان الثنائيتان الجزئيتان في الغرب إلى عجز مضاعف : عجز المسيحية عن الفهـم التـاريخي للحركات الاساسية لتحرير الإنسان ، والعجز الناتج عن فشل أولئك الذين حاربوا في تاريخ مغلق .

وبدات لاهوتيات التحرير الجهد المعاصر الاكبر لوضع نهاية لهذا الطلاق .

وليست ص\فة تاريخية أن لاهوتيات التحرير هذه قد ولدت في البلاد التي سادها الاستعمار .

أولا : أمريكا اللاتينية ، هذا الاديم الإنساني الذي تشكل من المجتمعات الاصلية ، حيث ترعـرع الـوعي لدى المجتمعات الاكثر فقرا ، بأن الكائن الفقير ليس كائنا أبدا . وكان مفهوم للحب ، قد حـول مأسـاة سـحق الجماهير كشرط لغنى بضعة أفراد إلى نوع من التجريد ، ضمن استمرار الوضع القائم .

انطلاقا من هذا الوضع التاريخي الواقعي ، الذي وجد بأكثر ما يكون حدة في أمريكا اللاتينيـة وإفريقيـا ، تعهد لاهوتيو الحرية في كنيسة تابعة للمجتمع الديني للفاتيكان ، والبابا يوحنا الثالث عشر ، اللذين جـاءا الفـتح العالم بغية خدمته وليس لحكمه ، تعهدوا بفك رموز هذا العالم على ضوء أوامر السيد المـسيح ، مـن أجـل أولئك الذين أرادوا أن يتبعوه : التخلي عما يملكون ليس فقط لنجدة الفقراء ، بل ليجعلوا من أنفسهم فقراء بـين الفقراء ، الفقراء بالمعنى الاكثر عمقا للكلمة : أي الذين ألغتهم جسديا الطبقة المسيطرة والمستلبة روحيا عبـر الايديولوجيا المهيمنة .

وتأكد هذا " الاختيار الذي أخذ جانب الفقراء " ، بفضل لا هويتي الحرية ، عـام ١٩٦٨ فـي ميـدلين ـ كولومبو ، عند انعقاد المؤتمر الاستثنائي لاساقفة القارة في المجلس الاسقفي لأمريكا اللاتينيـة . وقـد مـزق الاجتماع خدعة قاتلة وهي أنه باسم الحياد السياسي للدين والحب ، جرى ضـمان إبـادة الهنـود ، واسـترقاق السود ، اليوم يضمن انقسام العالم بين أقلية من المالكين ، وغالبية من المستعبدين .

هذا الوعي لوضع تاريخي محدد تعاليم السيد المسيح ، وكذلك الوصول إلى موقف لمحاربـة اللامعنـى ، في عالم سخرت فيه الغالبية من صورة الإله على الاقل في العالم الثالث (ولكن ليس هناك فحسب) ـ قد قـادا إلى قراءة جديدة للأناجيل ، والى قلب جذري للمسيرة اللاهوتية التقليدية في الغـرب . فبـدلا مـن الادعـاء باستنتاج عقيدة اجتماعية أو سياسية من نصوص الأناجيل ، دون الاخذ بعين الاعتبار الحقائق التاريخيـة لكـل

حقبة ، فقد انطلقوا من هذا الوضع التاريخي الواقعي ، كي يحلوا رموز المعنى على ضوء رسـالة يـسوع ، التي اعتبرتها السلطات الدينية والسياسية في زمانه ، مدمرة جدا مما قاده إلى الصلب .

تمثل هذه الثغرة الفريدة التي فتحها السيد المسيح في تاريخ الإنسان ، النموذج الخالد للتعالي المعاش فـي التاريخ .

وتمثل كتب " لاهوت الحرية " للأب جوتيريز في البيرو ، و " المسيح محررا " للأب ليوناردو بـوف مـن البرازيل ، و " تاريخ لاهوت الحرية " لانريكو دوسل من الارجنتين ، نقاط علام بـارزة فـي مـسيرة اعـادة البحث هذه في عملية القلب العظيمة في فهم رسالة السيد المسيح .

ونلاحظ أن نقدهم للماركسية هو الاعمق ، إذ ليس هناك من نظرية قد فندت بمنتهـى الجديـة واسـتخرج منها آخر نقطة من الحقيقة التي تحملها ، وأعمق جذور الأخطاء فيها ، مثلما جرى للماركسية .

وقد ولدت الماركسية ، شأنها مشاريع اليوتوبيا الاشتراكية التي سبقتها ، في القرن التاسـع عـشر ، وفـي السياق التاريخي للثورة الصناعية ، حيث أسبغت المظاهر التقنية على الرأسمالية لباسا أسطوريا علـى شـاكلة فاوست أو بروميثيوس ، وإيمانما مسيحيا بالتقدم . هكذا دفع إلى الظل ملايين من البشر المسحوقين في المـدن التي جعلتهم ضحاياها ، حيث يمسخ الإنسان إلى زائدة ، ملحقة بآله أو بالسوق .

ويسمح لنا هذا الاختيار وحده أن نعطي معنى لحياتنا ، عن طريق تحميلها مـسؤولية قهـر الانحرافـات المميتة .

ولا تحدد لاهوتيات الحرية هذا التعالي بالتعالي باعتباره مسلمة لكـل عمـل تحريـري ، وكأنـه مـسألة خارجية ، بل كإمكانية دائمة للإنقطاع عن الماضي وتجاوزه . وقد أعطانا يسوع النمـوذج المطلـق ، عنـدما كرس حياته وموته للصراع ضد أشكال الهيمنة التي أعطيت صفة التقديس . ولكن القراءات التقليدية للرسـالة الإلهية قد جرت من " أعلى " ، من قبل أصحاب النفوذ الاقوياء .

إن قراءة اللاهوتيين للحرية ، إنما هي قراءة من " أسفل " ، أي انطلاقا من المحرومين ، من أولئك الـذين يعملون ، ويعانون ، ويعيشون ويموتون دون أن يعرفوا هدفا لعملهم ومعاناتهم ، وحياتهم وموتهم . والمـستقبل عند هؤلاء هو الأمل الوحيد لهم بالبعث ، أي الانتقال من ممر الموت إلى الحياة الحقيقية ، حياة تحمل معنـى وهدفا .

ولا يكون ذلك في " الإطلال " عليهم من فوق ، وإنما بالتحول ليصبح المرء واحـدا مـنهم ، يـشاركهم وجودهم وآلامهم ، ولا يكون في أن يعيش اللاهوتي ، لاهوتيته وكأنها حرفة حرة وإما كشاهد مجنـد للرسـالة التي واجه المسيح الموت من أجلها .

وما هو جديد ، وما هو باعث للقوة في لاهوتيات الحرية ، العثور على ما هو ضـروري لهـذه الرسـالة التي لا بديل لها ، والتحرك حسب ندائها . فالأب غوستاف جايتيريز في كتابه " لاهوت الحريـة " يـرى فـي رمز الحساب الاخير الذي يشير إليه ماثيو " خلاصة الرسالة الأنجيلية " ، فـنحن لـن نحاسـب فـي محبتنـا

للآخرين ، وفق قانون أو حكمة ، أو حتى من خلال إيمان لا يتفتح في شكل عمل حـددده المـسيح : أن نطعـم الجوعة ، ونكسي العراة ، ونكرم الغريب . وقد جاء في إنجيل متى:

" في كل مرة تفعل ذلك من أجل واحد من هؤلاء الصغار فإنما تفعلها لاجلي (٢٥ـ ٤٠) " .

يقول الاب غوتيير : إن هذه الانجيلية تتحقق انطلاقا من اختيار مبـدئي ، وهـو الانحيـاز للفقـراء : أي الصراع ضد كل أشكال الظلم والافساد والاستغلال، والمشاركة في خلق مجتمع تسوده أخوة وإنسانية أكبـر . إنه يعني أن نعيش حب يسوع وشهادته .

ويضيف : " فقط أولئك الذين يضعون الانجيل في خدمة الاغنياء ، سـيرون فـي هـذا الموقـف قهـرا سياسيا".

طرح لاهوتيو الحرية مسألة رئيسية : إن التحول الجذري الذي يحتاجه العـالم كـي يتجـاوز اللامـساواة والعنف الذي يتولد عنها ، لا يمكن أن يتحقق وفق آيديولوجية حتمية سـواء عـن طريـق " التقـدم " لـدى الليبراليين أو نقيضه الديالكتيكي عند " أصوليي " الاشتراكية التي وصفت بالعلمية وهـي فـي حقيقـة الامـر اشتراكية وضعية " لأن العلوم تزودنا بأفضل الوسائل لكنها لا تعلمنا أن نضع الغايات الاخيرة للحياة " .

ادينا كل الامل في التغيير ، مسقطين انحرافاتنا الجديدة ، مستخدمين مـا هـو نقـيض للحتميـة ، وهـو التعالي، أي إمكانية الإنسان في قطع علاقته بالغايات الاخيرة التي يرسمها النظام القائم ، أو بـالاحرى غيـاب هذه الغايات .

والايمان بالتعالي ، هو برهان ، مسلمة ، تماما مثل الايمان بالحتمية الكونية للتشابك الذي يكون فيه عمـل لانسان ، حالة خاصة ، ضمن حركة الاشياء .

وقد أخذ لاهوتيو الحرية مأخذ الجد ، إعلان البابا الذي اعتبر فيه العالم أنه يعيش " وضع الخطئية " .

واعتبروا أن " حالة الخطئية " هذه هي مفتاح كل تفكير سياسي أو ديني ، ومفتاح كل عمـل ، لانهـا قـد شوهت " صورة الإنسان الذي خلق على مثال ا " عند الغالبية من الناس ، وإيماننـا بـأن " الكـل للكـل " . وليس التاريخ المقدس والتاريخ القصير جدا ، إلا تاريخا واحدا للتحرير ، يجتمع فيه الالهي والـدنيوي فـي آن واحد .

إن الفصل الخادع بين خطة " الآخرة " وخطة التاريخ ، يضع الانجيل في الحقيقة في خدمة الاقوياء .

وقد ترجم هذا التناقض في كنائس أمريكا اللاتينية بشكل أخاذ من خلال صورتين ليـسوع ظهرتـا علـى شكل لوحات أو تماثيل . كانت الصورة الاولى للمسيح المنتصر والسيدة العذراء بلباس ملـك وملكـة . أمـا الصورة الثانية فتمثل " المسيح المغلوب " العاري والهزيل حتى برزت عظامه . تلك كانـت صـورة الغـزاة والاغنياء والاقوياء ، وهذه صورة الفقراء والمذلين والمهانين .

وكتب الأب ليوناردودوف :

" وصلتنا شخصية يسوع مثقلة يسوع مثقلة ، محاطة بالالقاب والشروح الدوغماتية ... التي تهدف لحجب أصالته وإخفاء وجهة الإنساني ، ونفيه من التاريخ بغية تحويله إلى أقنوم ، وكأنه نصف اله يعيش خارج عالمنا . يجب على الايمان أن يحرر شخص المسيا من الاغلال التي قيدوه بها وقللوا من شأنه . والاعلان بأن يسوع ، هو المسيح ، السيد ابن داوود ، ابن ا لن يشير إلا إلى ما يعتقدونه ، إذا لم يهتموا مسبقا ، بما تعنيه هذه الاسماء لنا في حياتنا ... إن الايمان بالمسيح لا يمكن أن يختصر إلى صيغ من الكلمات المهجورة، حتى ولو كانت جليلة ، ولا إلى علم التراث الانجيلي . إن الايمان بالمسيح ، بالمعنى الذي يتطلب عملا يلتحم بوجودي ، ويرسم لي منهجا في العيش بحيث تضاهي حياتي الشخصية والاجتماعية والكنسية والثقافية والشاملة حقيقة المسيح ".

بهذه الطريقة فقط ، يتوقف الدين عن أن يصبح أفيونا واستلابا . بهذه الطريقة فقط يصبح الايمان خميرة المستقبل بوجه إنساني ، أعني إلهي ، عن طريق المشاركة في مجيء الملكوت . ويعتبر وضع نهاية لهذا الاستعمار الديني للاهوت الذي يقدم نفسه وكأنه إتمام للتاريخ اليهودي ، أحد الوجوه الاكثر تجديدا في لاهوت الحرية ، بعد ما أصبح هذا التاريخ أوروبيا عبر الفلسفة اليونانية ، منظما حسب الطراز الامبرطوري الروماني . ولم تستطيع بقية العالم أن تتلقى رسالة يسوع الاسجينة هذه الثقافة الوحيدة التي تدعى أنه ليس هناك من " تاريخ مقدس " إلا تاريخ الشعب اليهودي ، ولا لغة دينية إلا العبرية أو اليونانية أو اللاتينية .

وكما كتب " انريكو دوسل : " كانت الكنيسة المسيحية في أمريكا اللاتينية كما هي في أفريقيا وآسيا " استطالة لتاريخ البعثات التبشيرية ".

ويضيف : الاوربيون ، هم الذين " اكتشفو " المسكونيين الآخرين ، الذين وقعوا تحت السيطرة ، بقوة السلاح والبارود والخيول والقوارب . وبقدر ما يكون المستقبل القريب شاملا وحقيقا ، بقدر ما يكون المشروع القادم انسانيا ، فهل سيعمل الاوربيون أنفسهم ، على ازدهار مثل ذلك المشروع ؟ أمريكا الهندية أمنا واسبانيا أبونا ، ولكن الطفل الجديد ، ليس أمريكا الهندية ولا أسبانيا ولا أوروبا ولا الانكا ولا الازتك ، إنه شيء جديد: ثقافة جديدة ومولدة ومختلطة .

وهكذا ولد في أمريكا اللاتنية مفهوم متماسك عن الكون ، . كانسا بذلك التوجه الشرير " للشعب المختار " الذي استخدمه الاستعمار باسم نشر المسيحية .

وامتد هذا التحرير إلى قارتين أخريين، كانتا تخضعان للاستعمار ، أحيانا بواسطة التجارة وأحيانا بقوة السلاح ، ولكنهما استعمرتا بشكل دائم روحيا بواسطة الكنائس .

وخلال القرون الخمسة التي مضت على السيطرة المستمرة للاستعمار الديني الذي تضمن فرض المسيحية على القارات الثلاث من خلال صيغ ثقافية ألبست لبوس الغرب ، قدمت هذه الديانة للشعوب وكأن ا لم يخلق الإنسان ، وإنما خلق الإنسان الغربي فقط .

وستصبح الصلة با أكثر يسرا إذا افترقنا عن الثقافة اليهودية - الاغريقية المتفردة ، واقتربنا أكثر من وحدة الثالوث - بعد أن نكون عشنا النموذج الذي يقدمه لنا الأب بانيكار ، وهو تطابق الذات الفردية مع الذات الكلية ، كما ورد في الاوبانيشاد ، وتأملات " أنكارا " ، أو أن نصغي إلى الصوفيين مثل ابن عربي حين رأى في يسوع " قربة القداسة " ، والذي توحي لنا حياته من خلال خضوعه المطلق للرب ، كل ما يمكن أن يرى من ا المتعالي الذي لا يرى . عن هذا الإله قال روزبهان الشيرازي : " قبل أن توجد الأكوان ، ومصائر الأكوان ، كانت الذات الأبدية هي وحدة الحب ، وحدة الحبيب والمحبوب " .

وبدأ لاهوت جديد يبرز من الظل ، وفي واحد من أهم الاصقاع الروحانية في العالم : الهند . فمنذ بضعة سنوات أطلق لاهوتيون هنود أسس لاهوت يستند إلى تأمل وممارسة إيمان عاش في ارجاء البلاد. ففي ١٢ آذار ١٩٩٢ ، وفي هونغ كونغ افتتحت ندوة ، شارك فيها لاهوتيون وفدوا من انحاء مختلفة من آسيا . وعقب انتهاء الندوة ، نشرت وثيقة نقدية حول موضوع : " مستقبل التفكير الاجتماعي المسيحي " وقعها كل المشاركين . واستنكر اللاهوتيون في هذه الوثيقة ، بشكل خاص ، المركزية الأوربية للتعاليم الاجتماعية للكنيسة ، التي لا تعرف أو تجهل إنجازات المؤتمرات المسكونية الاقليمية ، وخصوصيات الكنائس المحلية .

وقد حاول كهنة آسيويون وبأسلوب مبدع الربط بين التعاليم الكاثوليكية والصعوبات التي يواجهها الوضع الأسيوي . ولسوء الحظ تسعى بعثة تبشيرية إصلاحية قادمة من روما ، أن تنفذ هذه الأيام إلى آسيا . وتقيم البعثة المذكورة الوضع في آسيا بشكل تبسيطي ، ودون التوغل في أعماق المشكلات ، متوهمة - بأسلوب خاطئ - أن الأساقفة لا يتحدثون إلا عن الحوار ، والتحرير ، والجهل .. إلخ ، مهملين دعوة السيد المسيح . وقد حرضت بعثة الاصلاح هذه على التوقف عن تنمية وتطوير التفكير المتناسق لاتحاد مؤتمرات المجامع المسكونية في آسيا . وقد علق لاهوتي هندي هو فيليكس ويلفريد على هذه النوايا بقوله : " يجب أن نأمل أن إرسال الفاتيكان لبعثة كهنوتية إلى آسيا ، أمر موقت ، وظاهرة عابرة ، وأن يتابع اتحاد المؤتمرات المسكونية في المستقبل الخط الذي تشير إليه وثائق وفيرة ، وأن ينجز بنفسه ظهور صورة جديدة للمسيح مطابقة لعبقرية آسيا " .

وعلق راهب ملئ بالحماسة والنشاط في الحركة المسيحية على جدار كنيسته الرعوية لوحة كبيرة كتب عليها : " يسوع هو الجواب " ولكنه استيقظ في اليوم التالي ليكتشف أن شبانا أشرارا قد كتبوا تحت العبارة : " ولكن ... ما هو السؤال ؟ " .

لقد حاول المسيحيون عبر قرون ، اكتشاف شخصية المسيح ، وحياته ورسالته ، من خلال أسئلة خاصة بهم ، نبعث من طبيعة كل مرحلة من مراحل تطور المجتمعات التي ينتمون إليها . ونتساءل هل نرفض نحن الاحتمال ذاته أي أن تطرح آسيا اليوم أسئلتها الخاصة بها ؟ أعلينا نحن أن نحمل إليها الاجابات دون أن نلقي بالا لأسئلتها ؟ لندع آسيا إذن تكتشف ، ثم تعيد اكتشاف صورة المسيح الفضلى ، والاكثر ملائمة للاجابة

على تحديات القارة . وقد تنبه الفاتيكان إلى تصميم لاهوتيي آسيا ، على التفكير بمـستقبل الكنيـسة فـي هـذه القارة ، بطريقة غير الاكتفاء بنقل الخطابات الرسمية من روما .

إن إرادة تجذير رسالة المسيح في الحضارات والثقافات غير الغربية ، هي واحدة من أهم الوعود الخصبة للمستقبل .

ولد آلوسيوس بيريز وهو كاهن جزويتي في سيرلانكا . وهو مؤسس ومدير مركـز أبحـاث تولانـا فـي كيلينيا بالقرب من كولومبو . وهو منطقي هندي تقليدي مختص بالفلسفة البوذية، كمـا اشـتغل فـي برنـامج واسع للبحث في الادب الفلسفي البوذي الوسيطي في بالي . ويرأس تحرير مجلة " حـوار " المجلـة الدوليـة للبوذيين والمسيحين ، التي يصدرها المعهد المسكوني في كولومبو . وقد كتب بغزارة عن التبشير ، ولاهـوت الديانات ولاهوت الحرية الآسيوية والبوذيين .

أما ريمون بانيكار ، فقد ولد من أب هندي ، وأم من كاتالونيا ، وبذل جهدا كبيرا ليبرهن أن " إحدى البدهيات الاكثر عمقا في حكمة الهند " تلتقي في بعض وجوهها مع الثالوث المسيحي .

وفي محاولته لتفسير عقيدة الثالوث من خلال التأمل المعاش لـ ادفاليتا الفيدية " نسبة إلى فيدا " " وهي عقيدة لا ثنائية " ، قال أنها تعلمنا أن الغاية الاخيرة لكل إنسان هي معرفة أن " اتمان " " الذات الفردية " تتطابق مع براهمان (الذات الكلية) من خلال عبارة (الاوبانيشاد) : أنت ، ذلك . وتساعدنا الهندوسية على تجاوز وهم خادع بان التفكير المتعالي هو " خارجانية " .

أعطى كتاب " الثالوث في التجربة الدينية " وهو أحسن أعماله ، تعبيرا نموذجيا لحوار حقيقي حول الإيمان ، بريء من كل نزعة عرقية .

وتكون في أفريقيا وعي يشابه هذا الوعي الآسيوي ، بضرورة أن يكون الايمان كونيا ، وهو شرط الاستمرار في القرن الحادي والعشرين .

وكان ساحل العاج قد شهد عام ١٩٧٧ ، مؤتمرا للاهوتيين المسيحيين والكنيسة الكاثوليكية في أفريقيا السوداء عقد برئاسة مطران ابيدجان " ميجرياغو " وتحت شعار : " حضارة سوداء ، وكنيسة كاثوليكية " . وتحدث في المؤتمر الأب جان مارك إيلا ، من منطلق المسيحية الشاملة قائلا ما زالت الثقافة اليهودية المتوسطية تحمل المسيحية حتى الآن ، وهي ليست إلا ثقافة بين الثقافات وليست المسيحية مرادفة للرومانية .

تهدف هذه الإرادة في تحرير الإيمان من الاستعمار ، وفي جعل الثقافة الغربية نسبية ، إنقاذ القيم الكونية المسيحية . وقد عبر عن هذه الارادة وبقوة الأب هجيا ، الجزويتي من الكامرون ، في كتاب له بعنوان : انعتاق الكنيسة من الوصاية جاء فيه : " ليست المسيحية ديانة غربية ، إنما هي ديانة شرقية انتقلت إلى الغرب فطبعها بطابع لا يمحى من فلسفته ، وثقافته ، وقوانينه ، وقدمت إلى الشعوب الاخرى بهذا الشكل . علينا الآن ، أن نطبع نحن آثارنا التي لا تمحى على الديانة نفسها ، عن طريق التوقف عن إصباغ الالهام

الإلهي على فلسفة أرسطو ـ توما ، والفكر البروتستانتي الجرماني ، والانجلو ساكسوني أو أشكال التفكير والأعراف الغاليت أو الأغريقية ـ الرومانية ، أو اللوسيانية ،والاسبانية أو الألمانية .

واستنتج الاب أوزانا من كلام مجرزويا أسقف يواندا:

" نحن الورثة الشرعيون للديانات الأفريقية التقليدية التي هيأت الإنسان الأفريقي ، كما لم تهيئ إنسانا آخر لقدوم يسوع المسيح ، فقد لعبت هذه الديانات دورا مشابها لدور العهد القديم ".

ونعتقد أن التفكير الجديد بالوحدة المتعالية ، كل اشكال الحكمة والديانات في العالم ، ضروري لتأسيس اقنومية غير محدودة بالطوائف المسيحية ، والتي ستزدهر بمساهمة كل الثقافات ، وإيمان كل الشعوب من أجل قدوم الإنسان الكامل .

وبهذا الشكل نجنب دعوة الحركات الروحية في العالم لإعادة قراءة رسالة المسيح ، من الارتباط بالاصطفائية أو التوفيقية ، إذ يتطلب الامر أن نطلق من ثقافاتنا الخاصة الحقائق الكونية الدائمة التي تقودنا إلى حياة كونية ، وتمنحنا الوعي بخصوصية شهادة يسوع في الملكوت .

لم يأت المسيح فقط ليتم وعودا وردت في العهد القديم ، إنما جاء ليرد على تساؤل كبير طرحه كل البشر حول معنى الحياة والموت .

إن الإيمان هو في البداية ، قطيعة وتعال ، وممارسة القطيعة والتحرر .

أما ما هو أكثر إثارة للحماس ومسببا للحيرة ، في أفعال المسيح ، وأقواله ، أنه لم يكن هناك أبدا حيث ننتظره ، فنحن ننتظر دوما قولا أو عملا ، يبرر عواقب غرائزنا البيولوجية ، ورغباتنا ومصالحنا وتاريخنا الفردي وثقافتنا وقوانيننا .

ولكن السمة الاكثر أسرا في حياة وموت السيد المسيح أنهما برئيا من كل تجهيز للشروط البيولوجية والنفسية والاجتماعية . إنها حياة لم تعرف الروتين يوما ، ولم يكن فيها شيء ينتج عن ماض ببساطة . كانت كل أفعاله اختيارا حرا مجردا من الأنانية أو ربقة التقاليد . إنه قرار جديد، وانبثاق شعري للإنسان .

وأنا لا أدعو للعيش وفق " قانون " المسيح ، ولكن وفق ما أسميه " شاعرية المسيح " ، أي الوعي بأن طبيعتي تملك القدرة على تجاوز الطبيعة ، والوعي أن كل فعل من أفعالي ، وكل حادث أكون شاهدا عليه ، أو أشارك فيه ، وبأن حياتي الشخصية ، وكذلك حياة المجتمع الذي أعيش فيه ، والتاريخ الذي أعاصره ، ليست كل هذه الامور إلا حلقات في سلسلة من الاسباب والنتائج ، إنها على ما هي عليه بسبب صلتها بالغاية النهائية ، وتقاس بموجبها ، فتعطيها دلالتها . إنها المعنى العميق لقدوم ملكوت يسوع .

ولا يجب وضع الملكوت في الفضاء البعيد أو بالزمن الآتي ، مثل أي يوتوبيا ، وإنما في اختبار الضرورات الآتية ، كأن ما أعتقده هاما في العالم وفي واجباتي سينهار في اللحظة الآتية ، وكأن عليّ أن أعيد النظر بكل تصرفاتي وأحكامي وفق هذه الحقيقة الاكثر عمقا والاقرب الينا من حبل الوريد ، ما دام

الرب هو الآن هنا، في داخلنا ، وفي الخارج عنا . ملكوت لا يحتاج فيه العدل إلى قانون ، بل يسود في الحب كمبدأ .

وينبثق الايمان من داخلي حالما أتوقف عن سؤال نفسي : كيف ؟ أو أطالبها بالاجابة على : لماذا؟ وعندما أتساءل عن الغايات النهائية وليس عن الوسائل فقط :

- فإنما أتساءل عن المسألة الاساسية المتعلقة بأهدافي الشخصية والاجتماعية .
- اما فعل الايمان فيكسر حلقة عاداتي ومسلماتي .
- وعندما يتوقف السياسي عن الاهتمام بالوسيلة للتوصل إلى السلطة فقط أو حماية هذه السلطة ، ويتابع التساؤل عن الغايات الاخيرة للمجتمع البشري ، إمكانيات ابتكار ما يبرز في أعماق كل إنسان ، القدرة على اختيار هذه الغايات والمشاركة الفعالة لتحقيقها ، عندها يصبح هذا السياسي نبيا .

وعندما يتوقف الفنان عن الاهتمام فقط بتأكيد تميزه الفردي ، والعمل على هيمنة أسلوبه ، وانطلاقا من مهارته التقنية خاصة ، ويستعد للاصغاء ليصبح ضمير المجتمع ، ويجعل الوعي لمشروعه وأمله ومستقبله ، عندها يصبح الفنان خلاقا .

عندما يرى المحب في حبه وسيلة عطاء لا أخذ ، لا عطاء ما عنده ، بل عطاء نفسه وذاته وعطاء حياته إلى درجة تفضيل حياة الآخرين عليها ، عندها سيتعلم ما قاله روزبيهان الشيرازي : " أن يفسر في كتاب الحب الإنساني ، لغة الحب الإلهي ".

ومع ذلك فهذا الانقطاع وهذا التعالي ليسا بعد ، الايمان .

فالايمان هو فعل التخلي عن الذات . هكذا كانت تجربة التخلي عن الذات والليلة الظلماء للقديس جان دولاكروا :

" أن أحول إلى صمت ، الرغبات التي تعتمل في داخلي بقوة ، أن انتزع نفسي من حدود وسطي الاجتماعي ، أن أمحو الصور التي تبهرني دون أن تستضيء بها نفسي ، أن انفصل عن كلمات ومفاهيم صنعت بغية التلاعب بالاشياء " .

- عمل التخلي هذا ، التخلي عن " الانا " الصغيرة ، بغية التخلي عن الذات ، والذي يدعوه اللاهوتيون المسيحيون Kenose والذي يدعوه بوذا في موعظة بينارس ، بالحقائق الاربعة المقدسة التي ترينا الطريق ، كما تعطينا تأملا زا - زن الخبرة ، هذا العمل من الزهد ، هو المقدمة الوحية الممكنة ليقظة حياة جديدة " اسم بوذا نفسه يعني اليقظة ".

تعني الحياة الجديدة أولا الوعي بأني لا استطيع الاكتفاء بذاتي ، وبأني لست موجودا إلا من خلال ترابطي مع الآخر وكل آخر ، حسب الصيغة الساطعة للصوفي البيرنطي كاليست (القرن الرابع عشر) : أنا أحب إذن أنا موجود .

ونحن هنا بعيدون عن فقر الديكارتية في مقولتها : أنا افكر إذن أنا موجود ، لانها تختصر الإنسان إلى مجرد فرد والروح إلى مجرد عقل .

وكشف الشيخ ابو سعيد وهو صوفي اسلامي من القرن الثالث عشر ، عما سماه سر الشيطان : " إذا قلت أنا تصبح شبيها بي " . والتجربة الاساسية هنا ، هي تجربة الصليب التي تنقطع عن كل الصور التقليدية للاله : القوة والجمال والعقل والعدل .

معرفة ا وشكره من خلال هذا المصلوب ، والمحبط ، والمعزول الضعيف الذي هجره الناس طالما لم يبد واحد منهم اشارة للدفاع عنه ، وطالما أن اقرب رفاقه إليه أنكره ، والضعيف جدا لأنه هجر أيضاً من قبل " أبيه " . وأمام الصرخة الاخيرة من الالم قبل أن ينتزعه الموت أطلق السؤال الممزق : لماذا هجرتني ؟

إن تجربة الايمان باكملها هي محاولة للاجابة على هذا السؤال المحير الذي يسمح لكل إنسان أن يعيش بشكل إلهي حياته كانسان ، أي حياة مع مسوولية كاملة عن مصيره الخاص وتاريخه الخاص : ليس فعل الايمان ، هو تأمل الصليب ، بل هو أن نحيا هذه التجربة المريعة والتي تحررنا من الصليب . من هنا فقط يبدأ الطريق الجديد ، طريق البعث . لأن المسيح لم يمت ، بل قتل . لقد اختار رجال أن يقتلوه وأختار هو أن يموت . هذا الفعل وهذا الاختيار يعطيان كامل معنى انبعاثه ، فموته ليس كموت كل الناس ، إنه اختيار لحياة جديدة ، ولن يكون بعثه عودة إلى حياة بيولوجية ، ولكنها بداية حياة جديدة .

والايمان هو فعل استقبال هذه الحياة الجديدة ، وانتشار هذه القوة ، ونبوع هذه البهجة .

الايمان هو تجربة الينابيع . فالايمان ليس تجربة حدودي ، إنما تجربة القدرة غير المتوقعة لتجاوز هذه الحدود . إنها ليست تجربة النقصان ، وإنما تجربة النماء في المركز وليست على الاطراف كما يقول بونهوفر .

الهوامش

ـ سونج : سلالة ملكية حكمت الصين من ٩٦٠ إلى ١٢٧٩ ، قضى عليها المغول .

ـ تاو ـ التاوية : ديانة شائعة في الصين ، وهي مزيج من روح الطبيعة ، وروح الاجداد ، وعقائد لاوتسو ومعتقدات أخرى مختلفة . وتاو في الفكر الصيني هو المبدأ الأعلى وتجسيد لوحدة الكون والنظام . تشير عقيدة لاوتسو وتشوانج تسو إلى ضرورة تحرير الإنسان من العالم المادي الذي يعيش فيه كي يستطيع الوصول إلى العالم الحقيقي لتاو ، وهذا يعني الانخراط في تجربة روحية صوفية يستطيع المتعبد بموجبها الوصول إلى العالم الحقيقي .

ـ وقد صبغت هذه الديانة الحضارة الصينية بشكل عميق .

ـ زيوس : إله أسطوري يوناني ، هو جوبيتر عند الرومان فرض على الأرض العدل والنظام.

ـ جوبيتر : إله أسطوري عند الرومان ، يعتبر رب الأرباب وإله السماء والضوء والعاصفة والرعب ، وموزع خيرات الأرض وحامي المدينة .

ـ الفيدا: كتابات الهند المقدسة وهي كلمة تعني المعرفة ، كتبت في عصور متلاحقة ، وتتضمن مبادئ الديانة الهندوسية ويضم أشعارا وصلاوات وأدعية وتعاويذ وتسابيح ، كما تنظم بعض أقسامه الحياة اليومية للإنسان . وتعتبر الرمايانيا والمهابهارتا المصدران الرئيسيان المكتوبان للهندوسية وخاصة القسم الاخير من كتاب المهابهارتا والمعروف باسم باغافا جيتا . تقوم الفلسفة الهندوسية على فكرة إتحاد روح الفرد " الأنا " بالروح المطلقة ، بعد تخلصها من أدران الحياة المادية . ولكن الروح الفردية تعجز عادة عن الوصول إلى هذه الطهرية خلال حياة الإنسان القصيرة . وكي تحقق هذه الغاية النهائية على الروح أن تمر بمراحل متعاقبة ، وتطرد خلالها كل الشرور الموجودة فيها ، هذه الشرور التي تعيق الروح الفردية عن الذوبان في الروح الكلية أو المطلقة . على هذه الروح التي تسعى للوصول إلى الطهارة الكاملة أن تكفر عن كل أفعالها حتى يصبح بإمكانها الوصول إلى الحرية والخلاص . تنقسم الهندوسية إلى مرحلتين أساسيتين : المرحلة الملحمية والمرحلة البورانية . ويمثل كتاب أدفاييتافيدانتا المرحلة الثانية : ويدعوا إلى الايمان بوحدانية الوجود والعقل والمادة ويتضمن أفكار الفيلسوف الهندي سنكارا آشاريا " ٨٢٠ ـ ٧٨٨ ؟ ق . م " ، الذي كتب الاوبانيشاد وهو مجموعة مقالات فلسفية عميقة وسامية وتأملات ميتافيزيقية حول طبيعة وجوهر روح الكون . والعالم الظاهر بالنسبة لسنكارا وهم ، والحقيقة الوحيدة هي البراهمان أي الكائن المطلق الذي تستطيع الروح المطهرة وحدها أن تماثله . وتعتبر فكرة " أنت ، ذاك " أو " هو ، أنت " مفتاح تعاليم الاوبانيشاد . والمعرفة الصحيحة هي التي تقود النفس إلى التخلص من وهم أن لها وجودا مستقلا عن روح الكون . والمعرفة التي يقود إليها الفيدا هي التي تقود إلى زوال هذا الوهم والوصول إلى " النيرفانا " أو البركة الابدية .

ـ طاغور (١٨٦١ ـ ١٩٤١) ، شاعر الهند العظيم . منح جائزة نوبل للآداب عام ١٩١٣ .

ـ يبدو أن الآيات التي تترجم رسالة يسوع والرسل إلى " خراف إسرائيل الضالة " :

١ ـ لا توجد هذه الآيات إلا في إنجيل متى ، بينما لا نراها أبدا في مرقس أو لوقا .

٢ ـ يقول لنا شارحو السنوبس (بيريز بينو ـ بولنارو) أن هذه الآيات هي إضافات أدخلها متى مباشرة .

٣ ـ خالف أكثر مفسر لانجيل متى هذا التصور ، إذ أشار أن يسوع نفسه ، قد أضعف من شأن هذا الرفض لكل رسالة إلى الوثنيين عندما شفى ابنة امرأة كنعانية وثنية قائلا لها ! أيتها المرأة ، إيمانك كبير . (الاصحاح العاشر ـ غارودي) .

جاء في إنجيل متى (الاصحاح العاشر :

ـ " ثم خرج يسوع من هناك ، وانصرف إلى نواحي صور وصيدا . واذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة ارحمني يا سيد يا ابن داوود . ابنتي مجنونة جدا . فلم يجبها بكلمة . فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين اصرفها لأنها تصيح وراءنا . فأجاب وقال لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة فاتت وسجدت له يا سيد أعنّي فأجاب وقال ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب فقالت نعم يا سيد

والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذي يسقط من مائدة أربابها . حينئذ أجاب يسوع وقال لها : يا امرأة عظيم إيمانك ، ليكن لك كما تريدين . فشفيت ابنتها من تلك الساعة " .

ـ بوذا (٥٦٣ ـ ٤٨٣ ق . م) ، فيلسوف هندي مؤسس الديانة البوذية ، كرد على البراهماتية . يدعو بوذا إلى التخلي عن الشهوات والتي هي سبب آلام الإنسان ومعاناته ، وسيكون ذلك عن طريق إنكار الذات . يعتبر الدارسون موعظته الأولى ـ مشابهة في روحها وسموها الاخلاقي وأهميتها التاريخية بموعظة الجبل للسيد المسيح . تركت البوذية أثارا عميقة في معتقدات الهندوسية نفسها . قدر عدد البوذيين عام ١٩٦٠ بـ ـ ٣٥٠ مليون إنسان منتشرين في الهند واليابان وتركستان وكوريا وبورما والتيبت وكمبوديا وغيرها . تأثر انتشار البوذية بالفتح الإسلامي في القرن الثاني عشر . تستند البوذية إلى مبدأين أساسيين : الآنا (الآتما) والكائن المطلق (براهمان) . وتتميز البوذية بالتسامح وانفتاحها على الطبقات ، وعلى الرجال والنساء على حد سواء ، والابتعاد عن التعصب الطائفي .

ـ جاء في أعمال الرسل ـ الاصحاح السادس والعشرين : " لأجل ذلك أمسكني اليهود في الهيكل وشرعوا في قتلي فإذا حصلت على معونة من ا بقيت إلى هذا اليوم شاهدا للصغير والكبير . وأنا لا أقول شيئا غير ما تكلم الأنبياء وموسى .

ـ فرانكو (١٨٩٢ ـ ١٩٧٥) ، جنرال إسباني ورئيس دولة (١٩٣٩ ـ ١٩٧٥) شارك في الحرب الأهلية (١٩٣٠ ـ ١٩٣٩) التي قادته إلى إقامة حكم مطلق في إسبانيا .

ـ فاتيكان II : هو المجمع المسكوني الثاني ، عقد ما بين عامي ١٩٦٣ ـ ١٩٦٥ ، وبرعاية البابا يوحنا الثالث والعشرين ، وبولس السادس ، هدف هذا المجمع إلى تجديد الكنيسة أمام تطورات العالم المعاصر ، ولإستعادة المسيحية . وقد تميز أيضاً بحضور مراقبين غير كاثوليك ، كان المجمع المسكوني الأول قد عقد بين عامي ١٨٦٩ ـ ١٨٧٠ .

ـ التعالي Transcendamce : تفوق ، سمو ، عظمة ، وبالمعنى الفلسفي تعال (الوقوع وراء نطاق المعرفة أو الخبرة ، كينونة فوق الوجود المادي ومفارقة له . Tramcendant، فائق ، مفارق (وصف يطلق للدلالة على سمو ا على المخلوقات ومفاوقته لها) .

ـ إنجيل متي : (الإصحاح الخامس والعشرون) : " ثم يقول الملك للذين عن يمينه تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملكوت المعّد لكم منذ تأسيس العالم . لأني جعت فأطعمتموني ، عطشت فسقيتموني ، كنت غريبا فآويتموني ، عريانا فكسوتموني ، مريضا فزرتموني ، محبوسا فأتيتم إلىّ فيجيبه الابرار حينئذ قائلين : يا رب متى رأيناك جائعا فأطعمناك ؟ أو عطشانا فسقيناك ؟ ومتى رأيناك غريبا فآويناك ؟ أو عريانا فكسوناك ؟ ومتى رأيناك مريضا أو محبوسا فأتينا اليك ؟ فيجب الملك ويقول لهم : الحق أقول لكم . بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الاصاغر ، في فعلتم ".

ـ بالمقارنة مع المسيحية الأولى ، في دراسة س . هـ . دود : " رموز ملكوت ا " التي جاء فيها : " لأن الوضع يتطلب تضحية ، فيبقى السؤال مطروحا . أتريد أن تقبل ملكوت ا ؟ أتريد أن تجازف بحياتك من أجله ؟ " (غارودي) .

ـ جاء في سفر اللاويين : " لا تغضب قريبك ، بالعدل تحكم لقريبك . لا تسع في الوشاية بين شعبك . لا تقف على دم قريبك . أنا الرب . لا تبغض أخاك في قلبك . إنذارا تنذر صاحبك ، ولا تحمل لأجله خطية . لا تنتقم ولا تحقد على أبناء شعبك بل تحب قريبك كنفسك ".

ـ انجيل يوحنا الاصحاح ١٣ ، الآية ٣٤ : " يا أولادي أنا معكم زمانا قليلا بعد . ستطلبونني وكما قلت لليهود حيث أذهب أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا . أقول لكم أنتم الآن وصية جديدة أنا أعطيكم .

الولايات المتحدة طليعة الانحطاط

الفصل الثامن

كيف الخروج من المأزق ؟

انطلاقا من كشف حساب الثقافة الغربية الذي نستنتج منه الخسارة والفشل ، ومن هذا الحج إلى الايمان وثقافة الآخرين " ونعني بذلك ايمان وثقافة أربعة أخماس سكان الكرة الارضية " يتوجب علينا أن نبرز الرؤى التالية :

ـ كيف الخروج من التناقضات والطرق المسدودة لنظام لا يستطيع قيادتنا إلا إلى الموت ؟

ـ أية استراتيجية يمكن أن تسمح لنا ببناء عالم بوجه إنساني ، نواجه به القرن الحادي والعشرين؟

يجب علينا ، من منظور " فلسفة الفعل " التي تحررنا من اشكال الهيمنة وليدة فلسفات الكائن الغربي علـى امتداد خمسة وعشرين قرنا ، الخروج من قياس أقرن ـ حسب تعبير المناطقة ـ كل حد من حديـه خـاطئ ، فحد يقول : يجب تغيير الإنسان بغية تغيير العالم ، وحد يقول : إذا غيرنا البنى ، فسيبزغ بالـضرورة إنـسان جديد .

لم ينجح الاخلاقيون ، وبشكل خاص المسيحيون أتباع بولس ، والمؤمنون بـالطريق الاولـى أي تحريـر الإنسان من الهيمنات والعزل والحروب ، عن طريق الموعظة . لقد استمر هذا الفشل ألفي عام .

أما الآخرون فقد سلكوا الطريق الثاني معتقدين أنهم أكثر واقعية . وقد حملـت " المـسيحية " الـسوفيتية خلال ثلثي قرن وهما شبيها بأوهام الأولين : إذا بدلنا في بنى الاقتصاد ، ووضـعنا نهايـة للملكيـة الخاصـة لوسائل الانتاج ، وألحقناها بالدولة ، فسيؤدي ذلك إلى ولادة الإنسان الجديد .

ولكنه لم يولد . أما عودة الرأسمالية ، فقد سمحت بولادة المافيا ، ونـشوء ثـروات مـصارية وطفيليـة بسرعة نمو الفطر السام ، رافقها البؤس والفساد والبغاء والمخدرات ، وكل الرذائل التي يتسم بهـا الانحطـاط الليبرالي .

وأصبح واضحا أننا لا نستطيع الفصل بين الخيارين : هذا الذي تأسس على تعالي الفعـل الخـلاق ، وذاك الذي يطلب من المبدع أن يحدد تخومه ، في هداية بعض الأرواح حتى ولـو صـاروا قديـسين ، ولكـنهم لا يملكون من الخيارات إلا الانعزال في " صومعة " أو العيش على هامش المجتمع .

في فلسفة الفعل لا يمكن فصل هاتين الصيغتين ، فليس الايمان والفعـل إلا الظـاهر والبـاطن للإنـسان الكامل . فالايمان المنفصل عن الفعل سيتبخر إلى تقوى صافية ، إنما شخصية . أما الفعـل المنفـصل عـن الايمان فيقود الإنسان إلى حيوانيته الأولى .

تنصهر الروحانية في الصراع من أجل تغيير البنى وتتشابك معه ، ولكنهـا لا تفقـد أيـا مـن أبعادهـا الباطنية.

وفي العودة اليومية للتأمل في الغايات الاخيرة لفعلنا ، ولوحدتنا الصوفية " مع الكل " ، نحمي عملنا مـن أن يختزل إلى البحث عن الوسائل والانتاجية والكفاية ، وسنعي أن الطبيعية بأكملها هي أجسادنا، وبـأن روحنـا مسكونة بكل الثقافات الإنسانية في تاريخها الكلي ، لا بـ " أنا " معزولة ، وبأن إيماني الذي يعبر عـن نفـسه بالثقافة يلتقي مع إيمان الآخرين الذين يعيشونه عبر ثقافاتهم ، دون رغبة " بهداية الآخر " ، أعنـي دون رغبـة أن أختزل الايمان الاساسي للآخر ، إلى طريقتي في الحياة .

وغالبا ما يفسرون ويشوهون الصيغة التي لاختصر بها لوكيه ، هذه الرؤية للإنسان : " يعمل ، ويتـصرف بما عمل ، ولن يكون شيئا آخر غير ما عمله ".

ولن تشوه هذه الصيغة ، إلا عندما يحرم الفعل من بعده الباطني أو فاعليته .

واذا ما بدأت معركة بناء عالم آخر - وليس عالما آخر من الشطحات أو أحلام المدن الفاضـلة - فـإن عليها أن تتطور في ثلاثة مستويات : التربية ، والفن ، والسياسة ، وبطريقة ينصهر فيها فعل الايمـان وفعـل الخلق الفني ، والفعل السياسي ، في حركة فاعلة واحدة .

- قلب التربية :

ليس المطلوب اقتراحا " لإصلاح " النظام التربوي ، لأن محتوى وبنى التعليم القائم لا يحتاج إلـى مجـرد إصلاح ، بل إلى قلب جذري .

ولا نريد هنا أن نكتب تاريخا للتربية ، بل لنسجل فقط أنها لا تهدف حتـى الآن ، إلا إلـى إعـادة إنتـاج النظام القائم .

وينطلق نظامنا القائم من مفهوم نابليون الذي كان أول من وضع تصويبا لمجمل الـدور التربـوي ، بعـد الثورة الفرنسية . كان همه الأول من تأسيس المدارس ، ايجاد الكوادر لجيـشه ، وإدارتـه ، وإعـادة إنتـاج التعليم .

ومنذ ذلك الحين ، وبدءا من المونسينور فاتيمسنيل حتى وزراء التربيـة الحـاليين ، جـرت إصـلاحات متعددة للاستجابة الافضل لاحتياجات النظام ، آخذين بالحسبان تطوره والمتطلبـات الجديـدة . فمـع تطـور

الصناعة مثلا ، ازدادت الحاجة إلى تقنيين من كل المستويات ، وادى ذلك إلى ديمقراطية التعليم : الابتدائي أولا لمن لا يستطيعون أن يرتقوا إلى اكثر من ذلك بسبب ازدياد تعقيدات التنمية ، وتأهيل الآخرين ليصبحوا كوادر أو مهندسين . وقادت هذه الحاجة إلى إصلاح محتوى التعليم ، فأنزلت اللاتينية عن عرشها ، وكانت حتى ذلك الحين بطاقة المثقف ، واستبدلت بالرياضيات والعلوم الاساسية للتقنيات الجديدة .

ولكن هذا التكييف التربوي المتعاقب مع الاحتياجات الجديدة للنظام الاجتماعي ، حافظ باستمرار على ما هو ضروري : بقاء هدف النظام التربوي تكوين ، " نخبة " أصبحت متخصصة أكثر فأكثر في ميادين مثل الفيزياء النووية ، وعلم الوراثة ، والاقتصاد السياسي ، أو المعلوماتية ، ولكنها بقيت محرومة من ثقافة ، لا نقول عنها عامة ، وإنما شاملة ، أي أن تطرح هذه الثقافة مسألة الغايات الاخيرة للابحاث والمنجزات .

لهذا نقول أن الامر لا يتطلب اصلاح النظام وإنما قلبه وبشكل جذري . ولن يتحقق ذلك بمئة عملية اصلاحية ، سواء جاءت هبة من الحكومة ، أو قرارا من الهيئات الانتخابية والتشريعية . والطريق الصحيح هو تبديل العقليات التي تعمل على استمرار النظام القائم الذي لا يملك غايات إلا زيادة إجمالي الناتج القومي، والاستهلاك ، والقوة، وغزو الاسواق .

أيتطلب الأمر أن : نفبرك " في مدارسنا اطباء اسنان ومهنيين أو عسكريين ، أم علينا أن نهيئ الإنسان كي يكون إنسانا ، نعني بهذا أن يكون خلاقا .

لهذا يتطلب الأمر تغييرا جذريا شاملا لمحتوى وبنى التربية .

وفي البداية علينا المساعدة في معالجة تراجع تعليم ثقافات الاخرين لابنائنا ، بالنسبة لثقافتنا الغربية ولا نعني أن يكون ذلك ، فقط في الكوليج دوفرانس ، أو " الدراسات العليا " ، أو اللغات الشرقية ، إنما لدى الجماهير ، لتعليمها ثقافات الاخرين ، وليس في المدرسة فقط باضافة ملحق للبرنامج المدرسي ، وإلا فلن يكون لدينا معلمون قادرين على تنفيذ هذه المباردة ، طالما أننا لا نكونهم إلاّ في " المدرسة الاوروبية " .

وسنكتفي بمثال واحد يعود إلى زمن قريب منا، وهو مثال الفلسفة ، نتساءل متى أدخل في برنامج " الاستانية " وخارج الخط الذي يصل بين أفلاطون وهايدجر ، فلسفة تشوانغ تسو ، وفلسفة سنكارا والغزالي .

وأثناء ذلك ، وخارج المدرسة ، لن تعوز الفرص للالتقاء باولئك الذين يحملون تلك الثقافات : فليس الصينيون غائبين عن أمريكا وأوربا ، ولا الهنود عن إنكلترا ، والا العرب عن فرنسا ، ولا الترك عن ألمانيا .

الوراثة ، والاقتصاد السياسي ، أو المعلوماتية ، ولكنها بقيت محرومة من ثقافة ، لا نقول عنها عامة ، وإنما شاملة ، أي أن تطرح هذه الثقافة مسألة الغايات الاخيرة للابحاث والمنجزات .

لهذا نقول أن الأمر لا يتطلب إصلاح النظام وإنما قلبه وبشكل جذري . ولن يتحقق ذلك بمئة عملية اصلاحية ، سواء جاءت هبة من الحكومة ، أو قرارا من الهيئات الانتخابية والتشريعية . والطريق الصحيح

هو تبديل العقليات التي تعمل على استمرار النظام القائم الذي لا يملك غايات إلاّ زيادة اجمالي الناتج القـومي، والاستهلاك ، والقوة ، وغزو الاسواق .

أيتطلب الأمر أن : نخبرك " في مدارسنا أطباء أسنان ومهنيين أو عسكريين ، أم علينا أن نهيـئ الإنـسان كي يكون إنسانا ، نعني بهذا أن يكون خلاقا .

لهذا يتطلب الأمر تغييرا جذريا شاملا لمحتوى وبنى التربية .

وفي البداية علينا المساعدة في معالجة تراجع تعليم ثقافات الاخرين لابنائنا ، بالنسبة لثقافتنـا الغربيـة ولا نعني أن يكون ذلك ، فقط في الكوليج دوفرانس ، أو " الدراسات العليا " ، أو اللغـات الـشرقية ، إنمـا لـدى الجماهير ، لتعليمها ثقافات الاخرين ، وليس في المدرسة فقط باضافة ملحق للبرنامج المدرسـي ، وإلا فلـن يكون لدينا معلمون قادرين على تنفيذ هذه المبادرة ، طالما أننا لا نكونهم إلاّ في " المدرسة الاوروبية " .

وسنكتفي بمثال واحد يعود إلى زمن قريب منا ، وهو مثال الفلسفة ، نتساءل متى أدخـل فـي برنـامج " الاستانية " وخارج الخط الذي يصل بين أفلاطون وهايدجر ، فلسفة تشوانغ تسو ، وفلسفة سنكارا والغزالي .

وأثناء ذلك ، وخارج المدرسة ، لن تعوز الفرص للالتقاء بأولئك الذين يحملـون تلـك الثقافـات : فلـيس الصينيون غائبين عن أمريكا وأوربا ، ولا الهنود عن إنكلترا ، ولا العـرب عـن فرنـسا ، ولا التـرك عـن ألمانيا.

ربما كان هذا هو المستوى الذي يجب أن تبدأ منه الاشياء : توجه مختلف نحو المهاجرين الـذين يحملـون معهم ، واعين أو غير واعيين ، قيم مجتمعاتهم وإيمانهم الخاص .

وهكذا يصبح ممكنا ، في صفوف الجماهير، أن يبدأ التنبيه لوجود الاخر ، والغنى الإنساني الـذي يحملـه بداخله ، والوعي بأننا نستطيع أن نتعلم منه شياء ، لا أن نبحث من أعلى مركزيتنا الاوروبيـة ، عـن طريـق لاستيعابه ، أو تكامله مع انطاطنا :

- حيث أصبح العلم علموية .
- حيث أصبحت التقنية ، تكنوقراطية .
- حيث أصبحت السياسة ، مكيافيلية .

والعلموية : هي شكل من السحر ، أو بالاحرى أصولية شمولية ، تاسست على المسلمة التالية :

يستطيع العلم أن يحل كل المشاكل، أما مالا يستطيع العلم قياسه ، أو يخضعه للتجربة ، أو يتنبأ بـه فهـو غير موجود . وتقضي هذه النظرية الوضيعة ، على الابعاد الاكثر سموا في الحياة : الحب ، الخلـق الفنـي ، والايمان .

والتكنوقراطية : شبيهة بالسير أثناء النوم . فالتقنية من أجـل التقنيـة ، دون أن تطـرح اطلاقـا مـسألة الغايات. وتأسس هذا التفكير من مسلمة تقول : كل ما هو ممكن تقنيا ، مرغوب فيه وضروري.

هذا " العقل " يولد أسوأ اللامعقول . إنه يحتوي على السلاح النووي ، وحرب النجوم ، وديانة الوسيلة .

والميكافيلية هي هذه الحيوانية التي تتصف بها سياسة محددة بتقنية الوصول إلى السلطة ، لاهـداف غيـر الاستجابة لغايات المجتمع الإنساني ، فتوضع الوسائل ، التي تؤدي إلى تحقيق هذه الغايات.

أمن أجل هذا نحن نفخر باستيعاب هؤلاء المهاجرين وتكاملهم معنا ؟ أليس من الافضل أن نـضيف إلـى إنسانية حقيقية " وعيا بأن فرنسا ، تغني ثقافتها منذ قرون بثقافات مزيج من عشرين عرق ، كما يقـول ميـشليه أو رينان .

ليست فرنسا " كينونة " سابقة على الفرنسيين . نحن نقول : أجدادنا الغاليين ، وكأننا لا نحمل فـي عروقنـا إلاّ دم " فيرسنجتوري " . أو لا نحمل في ثقافتنا إلاّ هدي " كلوفيس " . إنها اساطير تستخدم حتـى اليـوم مـن أسوأ القوميين ، وكأننا لم نكن أيضاً رومانيين عندما استعمروا بلاد الغال ، أو جرمانيين مع الفرانك ، سـلتيين مع البروتونيين والغزوات النورماندية ، أو عربا مع ما حمله شعراء الاندلس إلى شـعراء التروبـادور فـي الغرب .

ربما توجب علينا كي نحول - وعلى مستوى الجمـاهير - درب المفهـوم الاسـتعماري ، إلـى درب المفهوم المتناغم للتواصل بين الحضارات ، أن نبدل نظام التصدير الثقافي " للمتعاونين " . لقد حلمت طـويلا، ومن الخطورة أن يمتد هذا الحلم طويلا ، إلى ارسال " متعاون " من أصل آسيوي ، في الالف الثالـث للمـيلاد ليقوم بوضع دراسة عن الاجناس التي تعيش في شبه الجزيرة هذه ، الواقعة في " أقصى آسيا " والتـي تـدعى أوروبا . وسيكرس عالم الاجناس هذا الذي كونته مبادئ البوذية في السيطرة على الشهوات ، أو علـى الاقـل الحد منها ، تقاريره الأولى عن تقنيات تطور الطمع في عالم ما قبل التاريخ " لهذه القبائل البدائية " ، وتقنيـات الترويج والاعلان والتسويق .

وسوف يذكرنا هذا العالم من خلال حرصه على الامانة العلمية في ذكر مراجعه ومصادره أن الصوفيين في أثينا ، وحسب أقوال أفلاطون ، اعتبروا أن الخير هو امتلاك أقوى الرغبات ، وإيجاد الوسـائل لاشـباعها . ويمكن لهذا العالم أن يضيف أنه وجد في نظام التنمية السائدة في " الحقبة الآثارية " للنصف الثاني من القـرن العشرين نظام تنمية مازال يستند إلى مفهوم التنمية عند الصوفيين الاثينيـين . لقـد نجحـت تقنيـة الطمـع " الترويج ، التسويق ... الخ " في خلق حاجات نمطية فأفـسحت المجـال بـذلك ميـدانيا للمـشاريع المتعـددة الجنسيات في العالم كله .

وسيلجا من خلال معالجة المظهر الطقسي لوحدانية السوق ، وديانة النمو في المناطق المعمورة مـا قبـل التاريخ ، إلى دراسة أنماط التربية لهذه العصبة المقدسة من التكنـوقراطيين ، وأسـاتذة الحلقـات الدراسـية الجشعين ، والتلفزيون ووسائل الاعلام الاخرى ، انطلاقا من عقيدة اساسية : استبعاد كل ما يتعلـق بالـسؤال " لماذا ؟ "، وبالغايات الاخيرة للإنسان ، وسيصل من خلال بيولوجيا عصرنا ، مستفيدا من أبحـاث لا يـوري ، إلى نتيجة تفيد بأن تفوق شبه الجزيرة ، لم يكن نتيجة شيء آخر غير " دماغها الضخم " .

وسيتحدث لنا هذا العالم " المستغرب " ، " عن الاستشراق " هذه الحقبة ذات المركزية الاثنية ، وسيكون قرار اتهامه قاسيا ، وربما عموميا جدا ، لكنه مبني على بعض الامثلة المشهورة ، إنما مع الاسف ، بلا تعليل .

على سبيل المثال : كان المستشرق الأول ، سيد المستشرقين ، سيلفستر دوساسي الذي أطلع غوته على حضارات الشرق ، هو نفسه الذي كتب بيانات بـ ونابارت عند غزوه مصر ، وبيانات الجيش الفرنسي عند غزوه الجزائر .

أما ماكس مولار ، وهو أحد الرجال الاكثر اهمية في تاريخ الاستشراق التقليدي ، فقد نظم في كامبردج فصولا دراسية بهدف اعداد إداريين انكليز للعمل في مستعمرتهم الهند . وكتبت السيدة روث بينديكت ، كتابها الجميل " السيف والاقحوان " عن اليابان ، بأمر من المكتب الحربي للجنرال ماك آرثر ، بغية الوصول إلى شكل افضل لدمج اليابان في النظام السياسي الأمريكي .

ويخشى أن تتحول هذه الفكرة المرعبة عن الاستشراق " إلى استغراب " ، أي الوقوف في موضع ينظر منه إلى الغرب بالمجهر ، بما يشبه فعل علماء الحشرات الذين يواقبون حشراتهم بالمجهر ، وكما نظر الغرب حتى الآن إلى البلدان غير الغربية .

انطلاقا من التعامل مع المهاجرين يجب أن لا يبدأ تبديل التوجهات نحو الثقافات الاخرى في المدرسة أو الجامعة ، بل بين الجماهير ، منطلقين من المثالين اللذين أوردناهما ، أي المهاجرين والمفهوم أحادي الجانب للمتعاونين .

ولن نستطيع النفاذ إلى التعليم المؤسساتي إلاّ من " الاسفل " ، لان الحكومات ، اليسارية منها واليمينية والاحزاب ، وحتى الطبقة الدينية ، لا يذهب أحد منها في هذا الاتجاه .

وسيكون الأمر نفسه بالنسبة للتاريخ الذي تحدث عنه بول فاليري في كتابه " نظرات على العالم المعاصر " حين يقول :

" التاريخ هو الانتاج الاخطر لكيمياء المثقف " ، فهو يجعلنا نحلم ، ويجعل الشعوب تتمثل ما يولد لديها من ذكريات كاذبة ، ويفجر ردود أفعالها ، ويلامس جروحها القديمة ، ويعذبها في فترات راحتها ويقودها إلى معاناة آلام العظماء ، أو آلام الاضطهاد ، ويعطي الأمم المرارة ، والعجرفة باطلة وغير محتملة .

ويبرزون من التاريخ ما يريدون تبريره . إنه لا يعلم شيئا على الاطلاق لانه يتضمن كل شيء ، ويعطي أمثلة على كل شيء " .

وقد رأينا سابقا الدور الذي لعبه التاريخ الرسمي في الآيديولوجيا القومية .

ويلعب نفس الدور في تبرير الاستثنائية الغربية ما داموا يقدمون لنا بشكل منسق ، معارك الماراثون ، وبواتييه ، مشوهة إلى حد كبير، فيتحدثون عن انتصارات خادعة للغرب على الشرق . فبعد قرن من نزاع الماراثون الذي افرط هيرودوت كثيرا في تقدير اهميته ممالأة للاثينيين ، الذين نقدوه أجوره فورا كما أوحى

بذاك بلوتارك ، املى تيرميباز عام ٣٨٦ باسم كسرى الفرس ، وبلغة السيد شـروطه علـى المـدن اليونانيـة بكثير من التعالي الذي أغضب ايزوقراط فخطب يقول:

" إنه هو الذي ينظم شؤون اليونان ، ويأمر بما يجب أن يفعله كل واحد منهم ، ويمانع تماما فـي تأسـيس الحكومات في المدن .. ألن ندعوه بعد ذلك بالملك العظيم ، وكأننا سراه ؟ " .

وبعد قرون من معركة بواتييه ، كان العرب في ناربون ، فزحفوا مجددا إلى وادي الرون ، تـشهد علـى ذلك كتابات لها طابع صوفي في كاترائية بوي وستصبح قراطبة خلال ستة قرون مركز الاشعاع الثقـافي فـي أوروبا كلها ، ومركز اشعاع علمي كما يشهد بذلك روجر بيكون ، وشـعري ، كمـا يـشهد بـذلك شـعراء التروبادور في الاوكسيتاني ، وكذلك دانتي .

أما الجزء من البناء النفعي للتاريخ والمتعلق بالغايات السياسية ، لمرحلتنا المعاصرة ، فهـو أكبـر مـن سابقه بكثير ، لانه يسعى لتبرير - كمثال - الافراط في التسليح والهيمنة الاقتـصادية . انهـم " يفبركـون " تاريخا للعدو كي يجعلوا منه شيطانا : كان الاتحاد السوفيتي، مثلا هو امبراطورية الشر ، وبعد انهيـاره وجـد بوش في الإسلام بديلا لهذا الشيطان ، كي يجد مبررا لانتهاج نفس السياسة .

وبالمقابل فقد " الفوا تاريخا مقدسا " ، كان في البداية تاريخ العبريين ، ثم استأثر بـه المـسيحيون الـذين أرادوا أن يصبحوا هم ورثة هذا التاريخ ، كي يبرروا حروبهم الصليبية واستعمارهم للشعوب الاخرى .

يجب أن تعاد كتابة التاريخ ، لا من قبل هؤلاء المؤرخين الذين كونتهم هذه المدرسة ، وإنما انطلاقـا مـن تبديل حقيقي في علاقات الشعوب ، وبشكل خاص مع الشعوب غير الغربية .

ويجب أن يترجم هذا الاقصاء الضروري للمركزية الاثنية الغربية ، عن مناهج التعلـيم ، إلـى اعتـراف بمنجزات كل شعب في مسيرة أنسنة الإنسان . ولكننا سنرى فيما بعد أن المدرسة لا تكفي وحـدها للوصـول إلى هذا الهدف .

ويلعب التاريخ الرسمي دورا قاتلا . وسوف نرى ذلك جليا عندما نتذكر كل الابداعات الصينية والهنديـة والاسلامية ، وكلها سبقت الغزو الغربي للعالم ، والذي وضع كل هذه الابداعات في خدمة ارادته فـي القـوة والثروة .

إن التاريخ الرسمي الذي يعلموننا إياه في المدرسة أو في الموسوعات ، قد كتب دائما من قبـل الغـزاة . كانوا دائما يسعون لتصوير هيمنتهم ، أنها إنتاج تفوق ثقافتهم ، ولـيس فقـط أسـلحتهم . وفـي وسـط كـل الاحتمالات الإنسانية ، فلم يحكى لنا إلاّ عن المنتصرين ، وعن التاريخ باعتباره تاريخ الهيمنة والسيطرة .

وينقسم التاريخ ، حسب المنظور الغربي إلى مراحل تحددها الاكتشافات التقنية . ويمكننا تقسيم حتـى مـا قبل التاريخ إلى عصر الحجر المقطوع ، وعصر الحجر المصقول ، وعصر البرونـز، وعـصر الحديـد . وبهذا المنظور نفسه ، يدعون أن التاريخ الحديث بدأ عام ١٤٩٢ ، مع بدايات الاستعمار ، ثـم هنـاك عـصر الآله البخارية ، والكهرباء ، ثم الذرة .

إنه المقياس الوحيد للتقدم والهيمنة ، لأن تقسيم التاريخ إلى عصور بـدأ مـع تـشكل الإمبراطوريـات ، ووجود سلالات حاكمة : في مصر أو الإمبراطورية الرومانية ، التي بنت لنفسها سدا ضخما مـن الحـصون والجيوش ، واعتبرت كل من هو خارجه من البرابرة .

وماذا لو اختاروا معيارا آخرا ؟!

مثلا ، ولكي لا نذكر إلاّ ما ترك أثرا باقيا : الفن ، لكانت التواريخ ، والطبقات الحاكمة شيئا آخرا.

عندها يصبح رسم لحيوان البيزون للاسكو معاصرا لاقواس ماتيس ، ولوحة رولو صـينية مـن عـصر سونج في القرن الثالث عشر تكون متقدمة أو متخلفة عن أعمال روشـنبرغ أو آنـدي فـاروك ؟ وكاتدرائيـة تشارترز ، أليست ـ إنسانيا ـ اكثر تفوقا وأسمى من أعمدة بورن في القصر الملكي؟

أيستأهل باني تاج محل " تغليفا " من كريستو . أين سيكون موقع الراماليانا في تسلسل التـاريخ والطبقـات، بالمقارنة مع ملاحم طرزان وبطولات لا التسرمينيتور المـلاحق ؟ وايـن سنـضع بروميثيـوس لأسـكيلوس بالمقارنة مع كتاب " سوف أبصق على قبوركم " لبوريس فيان .

وستتغير معايير التقديم أيضاً ، لو قارنا الاخلاق ببعضها وكذلك الديانات ، ولدينا عنها الكثير فـي الآثـار المخطوطة .

ولدينا هنا أيضاً ، واحدة من اهم الثغرات في تعليمنا . لقد خلط مفهوم خاطئ للعلمانية فـي العلاقـة بـين مؤسستين : الكنيسة والدولة ، حيث اعتبر فصلهما عن بعضهما في فرنسا غزوة كبرى شهدتها بداية القـرن ، وكذلك قاد خطأ في مفهوم آخر إلى الفصل بين بعدين للانسان : الايمان الذي هو بحث عن الغايـات الاخيـرة للحياة ، والسياسة التي هي اعمال الوسائل لتحقيق الغايات ما قبل الاخيرة والاكثر " بشرية " .

حرم هذا المفهوم المدرسة من التفكير بالغايات ، بحذفه نصوصا دينية أحادية الجانب (وهذا امر جيد لانـه ضد المذهبية الضيقة لديانة ما) . ولكنه حذف مع هذا الاجراء كل النصوص المقدسة ، من الباجادافيتـا إلـى أنبياء إسرائيل ، ومن الانجيل إلى القرآن .

وليس من ضرورة لتضمين هذه النصوص في برنامج مدرسي ، لاننا لن نجد إلاّ القليـل مـن المعلمـين القادرين على التجرد عن الانحياز إلى دياناتهم الخاصة ، أو إلحادهم ، كي يستطيعوا مـساعدة الطالـب علـى التأمل في الغايات الكبرى التي تتوج كل الثقافات . المطلوب وضع هذه النصوص فـي متنـاول اليـد ، فـي قاعات مخصصة لهذا الغرض يؤمها البالغون من كل الاعمار ، ومن كل المستويات الثقافية ، وسيتكون هنـاك معلمو المستقبل ، للتدريب على هذا التأمل للغايات الاخيرة ، أو على الاقل لخلق مـواطنين واعـين لمـشكلة معنى الحياة .

٢ ـ الفنون " التاريخ المقدس " للإنسانية " .

إن التدريب على هذه المسألة ، التي تجعل من الإنسان انسانا ، يمكن أن يتحقـق أيـضاً عبـر الاعمـال الفنية. ففي كل لحظة ينكسر فيها التاريخ ، تشع أمام الإنسان مجموعة من الاحتمـالات تنتـشر كالمروحـة ،

حيث ينتصر لاحتمال واحد فقط ، وهو ما يسجله التاريخ . أما الاحتمالات الاخرى ، فليس لـ ديها شـ هود ، إلاّ أعمالا تتنبئ عن المستقبل . ولا نتحدث هنا فقط عن أعمال العالم المستعمر ، التي كان مكانهـ ا والـ ى عهـ د قريب في متاحف الاجناس كاعمال " بدائية " ، مثل الاقنعة الافريقية ، أو البولينيزية ، وانتهاءا بالتكعيبـ ة التـ ي أيقظوها ، أو الفنون الهندوأمريكية التي أعجب بها دوهرر ، والتي أحرقها الاسـ قف ديغودولانـ دا بإعتبارهـ ا رموزا للكفر ، على غرار محاكم التفتيش ، بينما كان يطالب بأشعار مقدسة ، وكذلك " البويـ ول فـ و " التـ ي دمرت وكأنها أوثان ، لانها كانت محفورة من الحجر أو التماثيل التي أذابها مرتزقة بيزار في سـ بائك لانهـ ا كانت من ذهب .

وحتى داخل أوروبا فقد ، انعكس الحصار المفروض على الأمم على المدرسة نفسها إذ لم يكن مـ سموحا احياء الاعمال التي تطرح مسألة معنى الحياة .

وتوجب انتقاء الخيار الروسي لإحياء دراما الممسوسين عند دوستوفسكي في الاخـ وة كرامـ ازوف ، أو " الأبله " المهيب ، يسوع الذي بعث في عالم لا يمكن العيش فيه ، وكما هـ و فـ ي دون كيـ شوت لـ سرفانتس ، الفارس النبي الذي آمن أن المثالية هي اكثر حقيقة من الواقع . وعلينا انتقاء الخيار الانكليزي لإحيـ اء درامـ ا عصر النهضة عبر شكسبير أو الخيار الألماني مع وليم مايستر لغوته ، أو مع إشعار هولدرلين .

وحتى في الادب الفرنسي ، تفسح الكتب المدرسية مكانا لجان جينيه ، مثلمـ ا تعطـ ي لرومـ ان رولان أو برنانو أو موريياك ، وأحيانا مكانا أوسع .

ونادرون أولئك الذين تجرأوا أن يصرخوا أمام ضلالات بوبورج ، المركز الاكثـ ر اسـ تقبالا للـ زوار : الملك عار! ، كما جعله ـ وبكل جرأة ـ الرسام ماثيو أو البروفيسور فورمارولي الذي استنكر ما سمي بـ ـ " سوق الفن ".

من يتجرأ أن يقول خلسة أو همسا ، أن الديسكو بقوة ١٢٠ ديسيبل إنما يدخل في تـ اريخ الـ ضجيج ولـ يس في تاريخ الموسيقى .

سيمضي وقت طويل من القرن الحادي والعشرين ، حتى يجرؤ مؤرخ بعيد عما هو شائع ، وعن التفكيـ ر الاحادي ، والارهاب الثقافي ، أن يقيم الثلث الاخير من القرن العشرين من منظور الثقافة ، مثلمـ ا اسـ تطاع التلفزيون ، والحانات ، وصالات العرض ، أن يقنعنا بأن نيكي دوسانتغال كان نحاتا وبرنـ ارد هنـ ري ليفـ ي كان فيلسوفا ، وأن كونينج كان رساما ؟

إنه عدوان تحت شعار الحداثة المزعوم ، طالما هناك " أطفال شيوخ " يحملون أفكـ ارا باليـ ة ، يـ شوهون ساعة اللوفر في باريس ، والقصر الملكي ، أو الجسر التاسع بمساعدة وزراء معادين للثقافة .

يجب أن يبدأ تكوين الحس الجمالي الحقيقي لدى الإنسان من المدرسة ، ومنذ الطفولة. ويجـ ب أن يكـ ون لتعليم القراءة والكتابة والحساب واستخدام النظام الآلي ، والهدف عدم تراكم المحفوظـ ات ، لإفـ ساح مكـ ان

للروح الخلاقة بدلا من الآلة ، إذ يمكن للآلة أن تمارس أفضل منا ، كل مناهج الحفظ والتركيب ، ماعدا العمل الخلاق الذي يعطي لكل أفعالنا غايات كونية .

ولكن التربية ، لا تستطيع حتى في بنيتها أن تنمو منفردة في المدرسة ، ولا في السنوات الأولى من العمر فقط .

ولقد أصبح تطور العلوم والتقنيات المختلفة ، والعلاقات فيما بين الافراد والشعوب على مستوى العالم سريعا جدا ، بحيث نستطيع القول أن رجلا في الثمانين من عمره قد ولد في وسط التاريخ الإنساني ، إذ أن ما حدث من تطور في هذا القرن ، أكبر من ستة آلاف عام من التاريخ البشري.

ولنضرب مثالا على ذلك : يمكن لأستاذ في الطب وصل إلى عمر الثمانين أن يقول لي : أنا لم أتعلم كتلميذ أكثر من ٣ % من المعارف التي استخدمها اليوم . ويمكن لفيزيائي ذرة من نفس العمر ولكنه معاصر لعلوم فيزياء الذرة الآن ، أن تكون معلوماته مساوية لمعلومات فيزيائي ذرة في الخمسين من عمره ومعاصر للعلوم ذاتها .

ولن نتحدث عن طلبة عام ١٩٦٨ الذين وضعوا على مدخل السوربون لافتة كتبوا عليها : " كلية الآداب والعلوم اللاإنسانية " ، وهم محقون في ذلك .

إذن لا يمكن أن تبقى المدرسة محددة ببداية حياة الإنسان فقط ، بل لابد من وجود فترة تكون فيها الحاجات الإنسانية مشبعة ، من خلال عمل يمتد ثلاث ساعات يوميا فقط . عندها تستطيع المدرسة أن تمتد على مدى العمر كله لتخلق شعراء في كل الفنون وتلبي أعلى احتياجات الخلق لديهم .

ويجب أن يتكون التدريب ، بدءا من تدريب العمال اللازمين للصناعة ، مرورا بتشكيل الكوادر الفنية والباحثين ، هناك حيث يكون تكوين المعرفة تحويلا مستمرا : في المصنع ومراكز الادارة ومراكز الابحاث في جبهة خلاقة ، من العمل الإنساني متجددة باستمرار .

أما المدرسة ، بما هي عليه اليوم فهي مؤسسة بالية ، تتصل باحتياجات مرحلة معينة من التاريخ ، ولكنها لا تلبي الاحتياجات الحقيقية للإنسان .

وهذا هو السبب الرئيسي لسخط التلاميذ والطلبة شأنهم في ذلك شأن المعلمين والمدرسين ، ولن يستطيع أي " إصلاح " لهذا النظام أن يجعل منه أداة لتكوين المستقبل .

والمبادرة في الفعل الخلاق ، لها مكانتها المميزة في الفنون ؛ عندما لا تكون هذه الفنون ، زمن الانحطاط ، انعكاسا للفوضى المحيطة ، أو تمردا سلبيا عليها .

ومن المهم أن نتذكر دوما الدعوة الاساسية للفن : خلق إمكانيات جديدة لتقدم الوحدة الإنسانية . ويتوقف الفن عن كونه فنا عندما تغيب عن وعيه هذه الرسالة النبوية ، وهذا النداء للتعالي الإنساني ، لجوهره الصلب والخلاق ، مثلما فعل شعراء المهابهارتا ، ورسوم تاو الصيني ، والرهبان الذين ترجموا الحماسة الصوفية رسما ولونا ، ومثل روبيليو الذي أبدع أيقونة الثالوث ، ومثل الذين أبدعوا معبد بوروبودوار ، ومساجد

قرطبة وكاتدرائية تشارترز ، ومثل فإن كوخ المصلوب على صليب الفن . أو سادة التجريد الغنائي مثل مانسييه أو ماتيو .

من سيعطينا من جديد حماسة بروميثيوس منحوتة في لوحة " العبيد ، مقيدين " لمكلانج ، أو التركيز على الكينونة " للحي اليقظ " لبودادوماتورا .

ومن المحتمل أن توضع أيضاً خارج المدرسة أو باستخدام تقنيات النسخ الدقيق ، وفي أيدي الجميع نسخ من الاعمال لنحاتين من كل أنحاء العالم باستخدام خلائط من الصموغ التركيبية التي تسمح بنقل المعالم بدقة نظام الميكرون . وستسمح لنا أعمال كهذه ، توضع تحت ناظرينا على الدوام ولا تكلف اكثر من ثمن وجبة طعام ، أن نتخلص من سموم موجات الرعب ، و " التأثيرات الخاصة " ، وأعمال العنف التي ترسلها هوليود إلى شاشاتنا الصغيرة ، فهذا النوع من المشاهد ، يدمر الفكر الناقد ، ليس أمام الحلم ، وإنما أمام الكابوس الامريكي ، بما يحلمه من أوهام بشعة في مسلسلات دالاس ، ورعب الديناصورات ، ورجال شرطتهم ، أو " التأثيرات الخاصة " ليوم الاستقلال الخالية من كل إنسانية .

٣ ـ السياسة وغائية الإنسان :

لا نرى هذا الكابوس فقط على شاشاتنا ، إنما في قلب الحياة ذاتها ، وعلينا أن نصارعه في هذا الميدان بالذات . عندها لا تصبح السياسة إلاّ الظاهر من باطن الفنون والايمان .

إن نية الولايات المتحدة في الهيمنة على العالم كله ، أصبحت واضحة جدا ، (عن طريق تدمير الحياة التي يزعمون أنهم يصدرونها ويفرضونها على العالم كله) ، وتثير غضب العالم بأكمله . وحتى أوروبا ، التي تشاركها في امتيازات الغرب ، بدأت تستيقظ من خدرها الطويل الذي منعها من أن تعي أنها بدأت تصبح تابعا إن لم تكن مستعمرة .

ويملك القادة الاسرائيليون ، الملهمون للسياسة الأمريكية وسادتها ، القدرة للوصول إلى الرأي العام في البلدان الدائرة في فلك الولايات المتحدة ، عن طريق وضع اليد على وسائل الاعلام من السينما إلى النشر ، ومن الراديو والتلفزيون إلى الصحافة المكتوبة . ويستطيعون بهذا الشكل أن يموهوا ولو لفترة من الزمن ، الانحرافات القاتلة في السياسة الأمريكية ، الهادفة إلى الهيمنة . وقد رسموا لها أهدافها المتعاقبة : العراق لتدميره أولا بالسلاح ، ثم بالحصار الذي قتل من البشر اكثر مما قتل السلاح ، وهم يطمعون بعد العراق ، في فرضها على إيران ، وليبيا ، وكوبا ، وكل الدول التي ترفض إملاءات صندوق النقد الدولي ، القاتلة لكل الشعوب .

كانت الشيابا في المكسيك ، الانتفاضة الأولى ، وهي نمط من الانفجارات الاجتماعية التي تقع بسبب سياسة الحرية الاقتصادية التي تسمح للاقوياء بالسيطرة على الاكثر ضعفا واستغلالهم . كما تبدت بأعمال العصيان ضد سياسة صندوق النقد الدولي التي تتطلب إضافة إلى الخصخصة وكل الاجراءات التي تسمح

للولايات المتحدة بغزو البلاد الخاضعة لإملاءات الصندوق ، تتطلب ضغط الانفاق الاجتماعي ، بهدف تـسديد القروض وفوائدها .

وأخذت المقاومة اتساعا خاصا في المكسيك ، لأن سياسة الهيمنة فرضت عليها بموجـب اتفاقيـة التبـادل الحر " المعروفة باسم ALENA بين الولايات المتحدة وكندا والمكسيك ، والتي ألغـت كـل قيـود التبـادل التجاري والاستثمار .

لنتذكر معا علاقة القوى الاقتصادية بين البلدان الثلاثة :

	الولايات المتحدة	كندا	المكسيك
التصدير " بمليارات الدولارات "	٣٩٣ ، ٨	١٢٧ ، ٧	٢٧ ،٢
الاستيراد " بمليارات الدولارات "	٤٩٤ ،٨	١١٦ ،٧	٣٨ ،٤

وأخذ العجز التجاري للمكسيك مع الولايات المتحدة يتصاعد بعد رفع الحواجز ، سنة بعد سنة . وتتوقـع المادة ١٠٢ من الاتفاقية :

١ ـ إلغاء العقبات في وجه التجارة ، وتسهيل حركة الممتلكات والخدمات .

٢ ـ تشجيع ظروف المنافسة الشريفة .

٣ ـ الزيادة الجوهرية في فرص الاستثمار .

إذ لا تكتفي المعاهدة بالتبادل التجاري ، فالاستثمار يشكل جزءا من الاتفاق (المادة ١٠٣) الذي يـنص أن يمنح كل بلد العضوين الاخرين ، شروطا تفضيلية للاستثمار علـى الاقـل بـنفس القـدر الـذي تتمتـع بـه الاستثمارات المحلية ، وذلك فيما يتعلق بالتأسيس ، والتملك ، والتوسع ، والادارة ، والبيـع ، وكـل الاحكـام الاخرى التي تتعلق بالاستثمار .

اتجه ٦٠% من رأس المال الاجنبي في المكسيك إلى اسواق البورصة ، وكرس ما تبقـى منـه (٤٠ %) لشراء المشاريع الحكومية التي أخضعتها الحكومة للخصخصة .

ولم تكن النتيجة فقط أن رأس المال الأجنبي، لم يؤسس أية صناعة جديدة ، ولا فرص عمل جديدة ، إنمـا العكس هو الصحيح ، فقد أدت الخصخصة إلى انخفاض فرص العمل . أما الارباح التي تتحقق بـسرعة فـي البورصة ، وكذلك تبخر رأس المال فهما خاضعان لظروف اليوم الواحد . فما أن تحدث مشكلة صـغيرة ، أو تنخفض الارباح ، حتى تفر الرساميل بسرعة من البلاد ، لقد ادى اعتماد الاقتـصاد المكـسيكي علـى رأس المال الاجنبي إلى فقدان البلاد لسيادتها .

فاد الفارق الكبير في مستوى التطور بين المكسيك من جانب ، وكندا والولايات المتحدة من جانب آخـر ، إلى لجوء الرساميل الاستثمارية الاجنبية للعمل منفصلة عن رأس المال الوطني ، مستخدمة تجهيـزات تقنيـة اكثر تطورا من التجهيزات المحلية ، مما دفع بالمشاريع الوطنية إلى التوقف عـن العمـل واختفـاء الايـدي الماهرة العاملة في هذه المشاريع .

أما ما يتعلق بالزراعة ، فقد قادت الاجراءات التي اتخذتها المكسيك ، لتصبح مؤهلة للمشاركة في اتفاقية (ALENA) إلى تعديل لجراءات واحكام انتقال الأرض ، وتنظيم الملكية الزراعية التي حددها الدستور ، فتحت مزاعم زيادة الانتاجية وفق منطق الحرية الجديدة ، توجب على الفلاحين مواجهة الملكيات العقارية الضخمة ، والشركات متعددة الجنسيات العاملة في ميدان الزراعات الغذائية ، ففقدوا بذلك وسيلتهم الوحيدة للقوت .

وفي سياق هذا الوضع ظهر جيش زاباتا للتحرير الوطني .

كان منع المساعدات المالية عن الانتاج الزراعي بموجب المادة ٧٠٤ من اتفاقية (ألينا) . قد ترك المنتجين المتوسطين في المكسيك دون فرص أو إمكانية لمجاراة الزراعة الواسعة في الولايات المتحدة وكندا.

ونورد في هذا المجال جزءا من خطاب ألقاه احد قادة عمال النسيج المكسيكيين في المؤتمر الدولي للعمل في سان فرانسيسكو (١٩٩٥) :

" ينكر القانون الجديد على كل العاملين المكسيكيين حقهم في الاضراب للمطالبة بزيادة الاجور . وأما المسموح به فهو فقط الاضرابات المتعلقة بالاخلال بنصوص العقود .

وتخضع المكسيك كلية ، لإتفاقية (ألينا ALENA) وبدأنا نشهد إغلاق مئات المشاريع الصغيرة . لقد قيل لنا بأن " معلمي " هذه المشاريع لن يستطيعوا بعد الآن مجاراة المنتجات الاجنبية . واذا أردنا أن نساعد أصحاب هذه المشاريع كي تستمر توجب علينا نحن العمال أن نتعاون معهم . ثم استخدم التهديد بإغلاق المصانع لفرض تنازلات على العمال ، تنازلا بعد الآخر ".

وطبقا لنصوص (ألينا) فقد جرت سلسلة من عمليات الخصخصة للمشاريع الوطنية والخدمية .

كما تكاثرت الاتفاقات الانتاجية بين الحكومة وأصحاب المشاريع والنقابات الرسمية .

لم يقتصر اتفاقيات (التعاون) هذه على القطاع العام والخاص الانتاجيين ، بل أمتدت إلى قطاعي الصحة والتربية . فقد ارتفع عدد طلاب الصفوف المدرسية عمّا كان عليه ، وجرى الأمر نفسه بالنسبة للأطباء والممرضين والممرضات العاملين في الدولة ، إذ ضوعفت واجباتهم تقريباً ، مما أداى إلى انحدار مستوى الخدمات الصحية ، بشكل درامي . أما الاجازة المرضية للعاملين فقد ألغيت .

إن التنافس بين بلدين غير متساويين يؤدي إلى تدمير الاضعف منهما ، وهو منطق فقط الاربعة وعشرون مليارديراً مكسيكيا (فوق المليار دولار) .

وتولد هذه الخبرة الاولية التي نستخلصها من قيام التبادل الحر بين بلدان قوية اقتصاديا ، وبين بلدان ضعيفة بسبب تبعيتها ، تولد ما سوف يحدث على مستوى العالم كله ، فيما لو نجح القادة الأمريكان في (عولمتهم) الاستعمارية .

كما تهدينا التجربة نفسها إلى دروب التحرير : وحدة كل القوى العاملة ، والفكر المعادي للاضطهاد.

كانت جماعات هندية قد حملت السلاح في شيانا في ١ / كـانون الثـاني ١٩٦٤ باسـم (جـيش التحريـر الزاباتي) . وزاباتا هو اسم القائد الموهوب للعصيان الهنـدي الفلاحـي الأول عـام ١٩١١ ، حيـث أعطـت المقاومة من خلاله ، الامل لكل المضطهدين .

تلقت الحركة مساندة طيبة من أسقف شيباباس (شيباباس ، هي المدينة التي دافـع أول أسـقف فيهـا ، عـن الهنود بعد الغزو بقيادة كورتز) .

كان اسقف شيباباس هو المونسينيور ساموبل رويز قد وصل إلى شـيابناس عـام ١٩٦٥ . وشـارك عـام ١٩٦٨ في مؤتمر أساقفة أمريكا اللاتينية الذي ولدت من خلاله لاهوتيات التحرير . وفـي عـام ١٩٧٥ نـشر المونسينيور رويز كتابه " اللاهوت الانجيلي للتحرير" الذي قدم فيه المسيح يسوع كنبي ثـوري ، وأنـشأ فـي أبرشيته ٢٦٠٠ مجموعة قاعدية ..

إن وضع منصب ذو طبيعة معادية للعنف ، في خدمة جيش زاباتا دفع الحكومتان المكسيكية والامريكيـة في آن واحد إلى اتهامه بإثارة الهنود ، ثم طلب البابا يوحنا بولس الثاني عـن طريـق مبعوثـه البـابوي فـي مكسيكو ، من الاسقف أن يقدم استقالته . ولكن الحكومة المكسيكية وأمام اتساع الحركـة المـسلحة ، وجـدت نفسها مرغمة على الاستعانة به كوسيط . لذلك بقي في منصبه ، وشرح في مؤتمر عـام أسـباب العـصيان ، فقال :

" لقد تعب السكان الاصليون في البلاد من الوعود الحكومية ، واعتقدوا أنه لم يبق أمامهم طريق آخـر إلاّ حمل السلاح . لقد دُفعوا دفعا لينفد صبرهم " .

يعود تركيزنا على المكسيك إلى ثلاثة أسباب :

١ ـ لا يمكن فهم الوضع الحالي للمكسيك خـارج الـسياق التـاريخي لأمريكـا اللاتينيـة ، والتوسـع الاستعماري للولايات المتحدة ليشمل القارة بأكملها . ويرسم وضع المكسيك المسار الاكثـر نمطيـة لتـاريخ بلدان أمريكا اللاتينية .

٢ـ تعتبر الازمة الحالية ، الظاهرة الأولى التي تحمل دلالة فعلية على انهيار تـدريجي لـنمط الليبراليـة الجديدة ، المرتكزة إلى وحدانية السوق بسبب تناقضاتها الداخلية . وبسبب المعارضة المتزايدة للشعوب التـي فرضت عليها . وما انتفاضة الشيباباس إلاّ نموذج لما سيحدث آجلا أم عاجلا في عالم المضطهدين كله .

٣ ـ أنشأت اتفاقية (آلينا) " وهي نفسها اتفاقية ناقية بلغة الاطلسي " ، سوقا حرة بـين الولايـات المتحـدة وكندا والمكسيك ، مستلهمة نفس المنطق الذي أوحى إلى أوروبا بوضع معاهدة مايـستريخ ، وبعبـارة أكثـر عمومية بنفس المنطلق التجاري الحالي الذي تريد الولايات المتحدة فرضه على العالم كله .

ومنذ ذلك الحين ، أخذت حركة شيباباس النموذجية ضد الهيمنة الأمريكية ، أبعادا جديدة .

قرر كلنتون لأسباب انتخابية قذرة ، وهي منافسة الجمهوريين في قاعدتهم الانتخابية ، عن طريـق كـسب أصوات الكوبيين المعادين للثورة ، والاقوياء في ولاية فلوريدا ، إلى تشديد الحصار على كوبا بتنفيذ القـوانين

التي وضعها الجمهوريون أنفسهم وبشكل خاص القانون المعروف بـ هلمز - بورتون ، والذي يعاقب المؤسسات الاجنبية التي تنشئ استثمارات لها في إيران وليبيا . ولم يثير الاجراء غضب ضحاياه الاوائل من أبناء الشعب بسبب تدخله في المكسيك فحسب ، بل أثار أيضاً غضب شركات متعددة الجنسيات لها استثمارات في كوبا " كما في إيران وليبيا " .

وإنه لأمر ذو دلالة أن قانون هلمز - بيرتون الذي أقره الكونغرس بمبادرة من الجمهوريين في ٣ كانون الثاني ١٩٩٦ ، قد وقعه كلينتون في ١٢ آذار والقاضي بفرض عقوبات دولية ضد حكومة فيدل كاسترو، بغية المساعدة في وصول وشيك وبالطريق " الديمقراطي " لتشكيل حكومة جديدة في كوبا .

ويكشف هذا الموقف عن خداع ودجل ما يسمى بالتعددية الحزبية في الولايات المتحدة ، إذ يحكمها بشكل دائم حزب واحد ، هو حزب المال (ويكشف دخول الملياردير روس بيرو حلبة الانتخابات الرئاسية عن حقيقة هذا الخداع . ويحمل قادة حزب المال سواء كانوا ديمقراطيين أو جمهوريين ، الهم الاكبر نفسه ، وهو فرض الهيمنة على العالم كله ، لفتح الاسواق لمشاريعهم بدون عوائق .

وكانت المكسيك التي قبلت نير وعبودية (ألينا) ، هي الضحية الأولى . كانت مجموعة دوموس الاختصاصية بالاتصالات اللاسلكية قد استثمرت في كوبا ٧٠٠ مليون دولار ، فمنع مديرها مع عائلاتهم ، وحتى أطفالهم من الاقامة في الولايات المتحدة ، منذ أن وضع قانون هلمز - بورتون ، موضع التطبيق في ٢٤ آب ١٩٩٦ .

وهكذا أصبح قانون أمريكي ، له قوة القانون خارج الولايات المتحدة ، تشريعا للعام كله .

ولم يتوقف تدخلهم عند هذا الحد . ففي نفس اليوم أي في ٢٤ آب ، ومن خلال تطبيق نفس القانون الاحادي الجانب ، وجهت ضربة للمؤسسة الكندية شيريت (انترناشيونال) ، فقد تسلمت الشركة إنذارا مدته ٤٥ يوما لتضع حدا لاستثماراتها في مناجم كوبا " وبشكل خاص استخراج ومعالجة النيكل " . واذا تجاوز الأمر هذه المدة دون تنفيذ مضمون الانذار ، ستقوم سلطات البوليس والجمارك بمنع مديري هذه المؤسسة وعائلاتهم من دخول الولايات المتحدة ، علما أن اثنين من المديرين من بريطانيا .

أثار هذا الاجراء غضب حكومة كندا ، لانها الشريك التجاري الأول لكوبا ، إذ يبلغ حجم التبادل بين الدولتين ٥٠٠ مليون دولار سنويا .

هنا ، تعطينا " اتفاقية ألينا " كل معناها الحقيقي ، إنها التجربة الأولى التي توضح كيف تؤذي الهيمنة الأمريكية شركائها " الاتباع " .

وأعلنت الحكومة المكسيكية ، يدعمها القطاع الخاص في الاقتصاد المكسيكي رفضها لهذه الاجراءات المخالفة للحقوق الدولية . كما اقترحت الاحزاب الرئيسية الاربعة التصويت على قانون للرد على مثل هذا الاعتداء على السيادة الوطنية . وقال بيان الاحزاب : (علينا أن نطبق قانون المعاملة بالمثل : " العين بالعين

والسن بالسن ") لحماية المشاريع الوطنية من التوقف بسبب ضغوط خارجية ، ولبناء نظام معونـة لمـصلحة الذين سيرفضون الخضوع للضغوط الاجنبية .

وحتى حكومة زيديك ، المعروفة بخضوعها التام لأوامر واشنطن ، قامت بالتشاور مع الحكومـة الكنديـة لتشكيل جبهة مشتركة لمواجهة مثل هذه الانتهاكات والتشاور حول الاتفاقية التـي تـنص المادتـان ١١٠٥ و ١٦٠٣ على التعامل بحقوق متساوية بين الاطراف الثلاثة ، في الاستثمار وحرية تنقل رجـال الاعمـال فـي الدول الاعضاء ، وهما مادتان انتهكتا بمنتهى الوضوح في قانون هلمز ـ بورتون .

كما قررت الحكومة المكسيكية أن تعرض الأمر على منظمة الدول الأمريكية ، والاتحاد أوروبي ، لدعم هذه الجبهة ومواجهة الاطماع الأمريكية . وكانت منظمة الدول الأمريكية قد عارضت مرارا تشديد الحـصار على كوبا .

أما أوروبا ، فقد مستها أيضاً وقاحة القادة الامريكان الذين ينوون فرض قوانينهم على كـل " حلفـائهم " ، والذين أرادوا أن يجعلوا منهم أتباعا ، كما توحي بذلك النصوص الملحقـة بمعاهـدة مايـستريخ " لا يمكـن لأوروبا إلاّ أن تكون الركيزة الاوربية لحلف الاطلسي ".

وأعلن الناطق الرسمي باسم المفوضية الاوربية كلاوس فإن دريا ، معلقا على قرار وانشطن بمنع خمـسة من قادة مجموعة الاتصالات اللاسلكية المكسيكية " دوموس " من دخول الولايات المتحدة قائلا :

(إن عمليات كهذه غير مقبولة ، ونحن لن نقلبها) .

أما على المستوى القانوني ، فالحصانة الدبلوماسية ، والتصرف من جانب واحـد ، يـشيران إلـى مـدى انحراف قانون هلمز ـ بيرتون . لقد قررت الولايات المتحدة دون أن تستشير أحدا أن تطبق أحكـام القـانون بحق مواطنين ليسوا أمريكيين ، وتتعلق بأعمال تجري خارج أرضها . ويجري كل ذلك في الوقت نفسه الـذي تدرس فيه الغالبية العظمى من البلدان ، وعبر المنظمة الدولية للتجارة تأسيس قواعد مشتركة لتشجيع التجـارة العالمية . وهذا ما دعى إلى ظهور رد فعل أوربي جماعي لرفض هذا القانون ـ قانون هلمـز ـ بورتـون ، بما فيه الحكومة البريطانية .

وفور الاعلان عن قرار المنع ضد المؤسسة المكسيكية أدلى الناطق الرسمي باسـم الخارجيـة الفرنـسية بالتصريح التالي :

" أعلنت الولايات المتحدة في إطار تطبيق القانون المسمى هلمز ـ بورتون ، عن نيتها منـع قـادة أحـد المشاريع المكسيكية من الدخول إلى أراضيها ، بسبب استثمار هذه المؤسسة أموالا لها في كوبا .

إن تصرفا أحادي الجانب كهذا ، والمناقض لقواعد التجارة الخارجية ، غيـر مقبـول . وتأسـف فرنـسا لتطبيق هذا التشريع الذي تعارضه بحزم ، مثلما تعارضه شريكاتها الاوروبيات . وتقوم الحكومـة الفرنـسية بالتشاور مع السلطات المكسيكية حول هذا الموضوع .

وسوف يستطيع المرء قريبا التحقق إن كانت هذه الاقوال الحازمة ، ستؤكدها الافعال ، لأن القانون طـال أيضاً مؤسسة اوروبية ، وهي المؤسسة الايطالية " ستيت " ، التي اشترت من (دوموس) جزءا مـن مـشروع الاتصالات الهاتفية في كوبا ، وهو ما يقع تحت طائلة المادة ٣ من القانون والذي يجيـز للولايـات المتحـدة المتابعة القضائية للمؤسسات الاجنبية التي تستخدم ممتلكات صادرتها الثورة الكاستـروية . وقـد دخـل هـذا القانون حيّز التنفيذ في الأول من شباط ١٩٩٧ .

(لنتصور أن فرنسا لديها نفس الحق لاستخدام هذا النوع من العقوبات ضد مؤسسات أمريكية ، وضـعت يدها على مؤسسات فرنسية في الجزائر ، صودرت عقب حصول الجزائر على الاستقلال) .

ترى ، هل تجتمع أوروبا على المطالة بانعقاد المنظمة الدولية للتجارة (الغات سابقا) ، التـي تـنص مـن حيث المبدأ على التبادل الحر الشامل والقابل للتطبيق بين كل الدول الاعضاء التي تتمتع بحقوق متساوية ؟

أو حتى دعوة محكمة العدل الدولية ؟

سيكون ذلك في نطاق المنظمة لان الدول الخمسة عشرة ، قد وضعت قيد الدراسـة مـشروعا لمقاطعـة قانوني هلمز ـ بورتون وداماتو ـ كينيدي ، الذين يطالبان هذه الدول بتشديد الحصار على ليبيا وايران .

لا يقف عائقا في وجه هذا التحرك الاوروبي إلاّ الخلافات بين الشركاء فـي نوايـاهم لمقاومـة الهيمنـة الأمريكية ، البعض مثل المكسيك ، لان علاقات القوى ، مع الولايات المتحدة ، هي والى حد بعيد فـي غيـر صالحهم ، والبعض الاخر، مثل كندا ، لأن تبادلهم التجاري مع الولايات المتحدة ضـروري فـي تجـارتهم الخارجية ، فخضعوا للضغوط الأمريكية ، كما حدث في الزيارة التي قام بها ستورات ابزنـشتات المبعـوث الخاص للبيت الابيض في أيلول ١٩٩٦ ، مجددا إنذاره ، وهكذا تراجع الشركاء الاوربيون ، فتراجعت شـركة شل عن مشاريعها البترولية في إيران ، كما تراجعت اليابان التي أرخت بعد ذلك قبضتها .

لم يبق إلاّ ردود الفعل في بقية العالم مستنكرة الاملاءات الأمريكية ، وهو مـا يبـشر بـوعي قـادم أن الولايات المتحدة تشكل الخطر الرئيسي على استقلال الشعوب ، كما يبشر باتساع متزايد معـارض لأمريكـا العدو المشترك .

يعتمد حل مشكلاتنا المتمثلة بالجوع في الجنوب والبطالة والتسريح ، حتى في أوروبـا ، علـى اسـتعدادنا لتوحيد كل ضحايا الهيمنة الأمريكية ، بغية عزل قادتها ، باتحادنا فـي مـؤتمر جديـد ، بمـستوى مـؤتمر باوندونغ، لشعوب الجنوب التي ترفض الهيمنة الاستعمارية للولايات المتحدة التـي تمارسـها علـى اتباعهـا الحاليين . فأوروبا التي استفادت طويلا من سيطرتها الاستعمارية ، ترى نفسها اليوم أنها في طريقهـا لتـصبح هي نفسها مستعمرة .

إن البرنامج الواقعي لعملية التحرير المزدوجة هذه ، سيستطيع أن يعبر عن نفسه بإعلانين متضافرين :

ـ إعلان من الجنوب بالدعوة لباندونغ جديد .

ـ إعلان من أوروبا بالدعوة لوحدة عالمية منسجمة .

الهوامش

- أفلاطون (٤٢٧ ـ ٣٤٧ ق . م) ، الفيلسوف اليوناني الشهير تلميذ سـقراط ومعلـم أرسـطو . اسـاس فلسفته نظرية الافكار والمثل وأسمى هذه الافكار فكرة الخير . من أهم كتبـه " الجمهوريـة " و المحـاورات والشرائع " .
- مارتن هايدغر : فيلسوف ألماني ولد عام ١٨٩٩ ، من مؤسسي الفلسفة الوجودية .
- الغزالي : أبو حامد (ت ١١١١ م) لقب بحجة الإسلام . نشأ نشأة صوفية ، ثم انصرف لدراسـة الفقـه والكلام والفلسفة ، علم في بغداد ، وكتب " تهافت الفلسفة " و أحياء علوم الدين " و " المنقذ من الضلال " .
- ميشليه (١٧٨٩ ـ ١٨٧٤) ، مؤرخ فرنسي عرف بأفكاره الليبرالية والمعادية للكنيسة اتـصفت كتاباتـه بروح انسانية والتعلق بغوامض الطبيعة .
- رينان (١٨٢٣ ـ ١٨٩٢) ، أديب فرنسي كرس نفسه لدراسة اللغات السامية وتاريخ الـديانات ، أكـدت أعماله المتصلة بدراسة الكتاب المقدس وجهة نظره العنصرية .
- غوته (١٧٤٩ ـ ١٨٢٣) شاعر ألمـاني ، مـن أشـهر كتبـه " فاوسـت " ، وفرتـر " ، و " هرمـان ودوروتيه" .
- ماك آرثر (١٨٨٠ ـ ١٩٦٤) جنرال أمريكي ، قاد جيوش الحلفاء في المحيط الهادي ، وترأس القـوات التي احتلت اليابان ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥ .
- بول فاليري (١٨٧١ ـ ١٩٤٥) كاتب وشاعر فرنسي ، كتب في الموسيقى والرسم والعلوم .
- هيرودوت مؤرخ يوناني (٤٨٤ ـ ٤٢٠ ق . م) كتب تاريخا تضمن مـا هـو تـاريخي وأسـطوري ، وقارن بين الحضارة اليونانية وما سماه بعالم البرابرة (مصر ـ الفرس ـ ميديا) .
- بلوتارك (٥٠ ـ ١٢٥م) مؤرخ يوناني ، عاش في روما وجال في الشرق . فهو كتـاب عـن مـشاهير رجال اليونان والرومان .
- الاوكسيتاني : مجموعة أقاليم وسط فرنسا تتكلم بلغة OC ، وهي مجموعة من اللهجـات ذات اصـل لاتيني .
- ايزوقراط (٤٣٦ ـ ٣٣٨ ق . م) خطيب يوناني ، دعم اتحاد اليونان ومقدونيا ضد الفرس .
- لاسكو : كهف في مونتنياك (جنوب غرب فرنسا) ، اكتشفت فيه عـام ١٩٤٠ مجموعـة هامـة مـن المنحوتات والرسوم تعود إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد .
- دوستويفسكي (١٨٢١ ـ ١٨٨١) ، من أكبر كتاب الرواية الروس ، ترك أثـرا كبيـرا فـي الحركـة الفكرية الروسية المعاصرة .
- سرفانتس (١٥٤٧ ـ ١٦١٦) كاتب إسباني صاحب كتاب " دون كيشوت " . يتصف أسلوبه بالسخرية.
- هولدرلين شاعر ألماني ولد عام ١٨٣٤، تميز أسلوبه بالصوفية التي توحي بالرومانتلية .

ـ جان جينيه كاتب فرنسي ولد عام ١٩١٩ ، كتب في الرواية والشعر والمسرح ، تتضمن كتاباتـه نقـدا جارحا لرياء العالم المعاصر .

ـ رومان رولان (١٨٦٦ ـ ١٩٤٤) ، كاتب فرنسي حائز على جائزة نوبل .

ـ جورج برنانوس (١٨٨٨ ـ ١٩٤٨) كاتب فرنسي موزع بين الصوفية الكاثوليكية والثورة . انتقـد فـي رواياته الوسطية واللامبالاة .

ـ فرانسوا مورياك (١٨٨٥ ـ ١٩٧٠) كاتب فرنسي ، له عدد مـن الروايـات ، عـرض فيـه صـراع الإنسان بين إيمانه وحياته الخاصة ، نال جائزة نوبل للآداب عام ١٩٥٢ .

ـ جورج ماتيو رسام فرنسي ، ولد عام ١٩٢١، اهتم بالفنون التطبيقيـة . منظـر المدرسـة التجريديـة الغنائية .

الولايات المتحدة طليعة الانحطاط

الفصل التاسع

إعلان عالمي للواجبات

لا يمكن أن يكون القادة الرئيسيون لعملية التحرير من وحدانية السوق ، من نوع أولئـك الـ ذين ينتـسبون إلى إعلان " حقوق الإنسان " ، الذين لهم الفضل ، في أعقاب الثـورة الفرنـسية عـام ١٧٨٩ بوضـع نهايـة للسلالات الحاكمة ، وأصحاب امتيازات الدم ، لأنهم أوجدوا بدلا منها سلالات حاكمة أخـرى ، وامتيـازات اخرى هي امتيازات المال .

لقد سجنوا الفرد داخل أنانيته ، وممتلكاته ، بعد أن ألغو النظام القديم ، نظام النبلاء والـسلالات الملكيـة الحاكمة ، كي يتركوا لمن يملكون كامل الحرية لاستخدام واستغلال الجماهير المحرومة.

المطلوب اليوم ، شيء آخر غير هذا الرفض البسيط للماضي القريب .

المطلوب رفض كل اشكال الهيمنة ، ومزاعم الاستثناء الغربي ، وإيجاد تيار رئيـسي وعـالمي لانـسنة الإنسان ، انطلاقا من إعلان للواجبات ، يدعو كل إنسان ، وكل البشر إلى تحمل مسؤلياتهم ، مذكرا ، انطلاقـا من الطبيعة ، بفطرية إنسانية الإنسان .

وهذا هو المخطط الأولي الذي نقترحه لإعلان عالمي للواجبات :

ينطلق إعلان الواجبات من التفريق بين الإنسان والكائنات الاخرى ، إذ هناك فارق أساسي بـين التطـور البيولوجي ، والتاريخ الإنساني . فالانسان لم يصنع الأول ، أما الثاني فهو من عمله .

لهذا لا يملك الإنسان طبيعة فقط ، بل يملك أيضاً تاريخا . وهو مسكون ، واعيا لذلك أو غير واع ، بكـل أعمال الخلق السابقة في الثقافة الإنسانية . لانه يستفيد من هذا التراث ، فهو عنه ، وعليـه واجـب المـشاركة الخلاقة لاغنائه ، لمتابعة أنسنة الإنسان .

ومن هذا الواجب الاساسي تنبثق كل الواجبات الاخرى .

١ ـ ترتب علينا أنسنة الإنسان ، التي هي نتاج ثقافات كـل عـائلات الأرض ، واجبـات لخدمـة هـذه العالمية .

ولا تستطيع كل الافعال ، وكل الافكار أن تمتلك قيمة إنسانية ، إذا لم تعط كل طفل ، وكل امرأة ، وكـل رجل ، كائنة ما تكون ثقافتهم الاصلية ، أو إيمانهم أو مـوطن ولادتهـم ، الوسـائل الاقتـصادية والـسياسية والثقافية والروحية ، لتطوير إمكانياتهم الإنسانية الخلاقة التي يحملها كل منهم بين جنبيه.

ولا يمكن لأي تنظيم اجتماعي أن يكون إنسانيا إذا كان له هدف آخر غير هذا .

ويستدعى ذلك إلغاء إدعاء كائن من يكون أنه " شعب مختار " لما يتضمنه هذا الادعاء من رفـض قبلـي للوحدة الإنسانية .

٢ ـ تترتب كل سلطة يتمتع بها أي إنسان بواقع وجوده في موقع إدارة أو منظمة في المجتمع الـذي هـو عضو فيه : كنيسة ، أمة مشروع إنتاجي ، مشروع خدمي ، منصب مهني ، أو أية مصلحة أخـرى للمجتمـع مسؤولية واجبات إضافية في أن يسهر من خلال ممارسة سلطته ، على مصلحة مجتمعـه الخـاص ، دون أن يؤدي العمل الخارجي لهذا المجتمع إلى الاضرار بالمجتمعات الاخرى في العالم كله .

مثلا : لو تمتع هذا الإنسان بسلطة دينية ، فيجب أن لاتصل هذه السلطة إلى درجة الـضغط أو عـزل أي فئة أخرى سواء كانت دينية أو لا دينية .

وتفرض عليه السلطة التي يمارسها كائنا ما يكون مستواها ، إنما بشكل خاص ممارس الـسلطات العليـا ، واجب السهر على مصالح شعبه الخاصة دون انشاء امتيازات خاصة به ، وعلى الاقل عـدم الهيمنـة علـى شعب آخر .

٣ـ تتضمن الملكية واجب استثمارها في خدمة الإنسانية جمعاء ، لأن هذا الغنى إنما هو من عمل العلـم والتقنية اللذين أبدعهما الإنسان . وتعود ملكية هذه الثروة ومنذ آلاف السنين ، إلى الاجيـال المتعاقبـة التـي ابتدعت أنواع الزراعات الجديدة ، وتقنيات الصناعة والتبادل ، وكذلك العلـوم والفنـون التـي خلقتهـا هـذه الاجيال أو طورتها .

وما كان منها ـ في زمن ما ـ مشاعا أو ملكا خاصا ، أو جماعيا ، فهو منها بمثابة الوكيـل المـسؤول . فإن لم ينجز واجباته ، توجب على المجتمع الذي هو عضو فيه ، أن يجـرده مـن هـذا التكليـف ، ويعطيـه شخصاً آخر أو جماعة تكون واعية لهذه الالتزامات .

٤ـ الواجبات تجاه الطبيعة " إنها حالة خاصة من الواجبات تجاه الملكية . لا يجوز لفـرد أو جماعـة ، أن تدعي لنفسها امتيازا لإنهاك الطبيعة أو تشويهها ، أو تدمير ثرواتها من أجل متعته أو متعتها الخاصة .

وقد ورثنا طبيعة ـ بالشكل الذي هي عليه اليوم ـ عملت الاجيال العديدة المتعاقبة علـى أنـسنة القـسم الاعظم منها .

لذلك لا يجب أن نعتبرها مستودعا للثروات لا حدود له ، لارضا شهواتنا الحاضرة ، ولا مجمـع قمامـة لنفاياتنا . إنها لا تعود فقط لمليارات البشر الاموات الذين أخصبوها . بل أيضاً إلى مليارات من البـشر الـذين لم يولدوا بعد . وعلينا واجب أن نجعلها أكثر خصبا واكثر جمالا مما تلقيناهـا مـن الاسـلاف ، دون ربـط للمستقبل بها .

٥ ـ تعني الحرية أن لا يكون المرء أسير مصالحه الشخصية ، أو اسير أهداف خاصة بالجماعـة التـي ينتمي إليها ، وأن يتحرك فقط من هدف تشجيع كل أعضاء المجموعة الإنسانية .

إنها ليست صفة لفرد منعزل (وباليونانية ذرة ، بمعنى أنه جزء منفصل عن بقية الاجزاء بفـروغ) . أمـا الفرد في الغرب فهو مركز ومقياس كل الاشياء ، ومنفصل عن كل الاخرين بحاجز حقوق مرسـوم بدقـة . وبالعكس نحن نرى أن الكائن البشري يعي واجباته ، أي أنه مسؤول تضامنيا عن مصير الاخرين .

٦ ـ وينبثق مفهوم الامن ومقاومة كل اشكال الاضطهاد، التي لا تقع إلا من فـرد أو جماعـة تنكـرت لواجباتها الإنسانية ، ينبثق من هذه الروح التضامنية التي يتصف بها من يعون واجباتهم .

ولن تستطيع أية قوة مادية أن تنتصر طويلا على جماعة موحـدة بـالوعي الجمـاعي لهـذه الواجبـات الإنسانية . وأعطانا التاريخ أمثلة كثيرة عن التفكك النهائي لكل الامبراطوريات .

٧ ـ يتوجب على كل رجل وكل امرأة في موقع ما من القدرة الاقتصادية أو الـسياسية أو الثقافيـة ، أو الروحية ، أن يسأل نفسه عن الغايات الكبرى ، أي معنى عمله وهدفه ، وفيما إذا كان هذا العمل يخدم ازدهـار الإنسان ، كل إنسان ، أو يؤدي إلى انحطاطه ودماره ، مثل :

ـ إقامة المشاريع الانتاجية ذات النفع المادي الاكبر مثل التسليح والمخدرات .

ـ إقامة أجهزة تستفيد من سلطة الكبر للتلاعب بالافكار والتلاعب بها عن طريق وسائل الاعـلام والنـشر والتربية والدين والفنون .

٨ ـ تنبثق حقوق الإنسان من هذه الواجبات ويمكن اجمالها في حق واحد: أن لا يواجـه أحـد عقبـات أو حدودا مثل التمييز الاقتصادي أو السياسي أو الثقافي أو الروحي أو تمنعه مـن أداء واجباتـه تجـاه البـشرية جمعاء .

٩ـ ويمكن إرجاع كل هذه الواجبات ، إلى واجب واحد برز من خلال واحدة من أقدم الروحانيـات فـي تاريخنا ، عندما امتلك الإنسان وعيا كاملا لإنـسانيته ، أي خـصوصيته بالنـسبة لكـل الانـواع الحيوانيـة . فالطبيعة لا تستبعد الصراعات حتى الموت بين الانواع المختلفة ، ولا هلاك مليارات الكائنات ، وهي بالتـالي لا تستطيع أن تزودنا بقوانين تتعلق بالعمل الانساني خاصة . إن واجبنا الفرد الذي تتولد منه كـل الواجبـات ، يأخذ صيغته الاساسية الواعية والانسانية أبدا : أن أكون " واحدا " مع " الكل " .

الولايات المتحدة طليعة الانحطاط

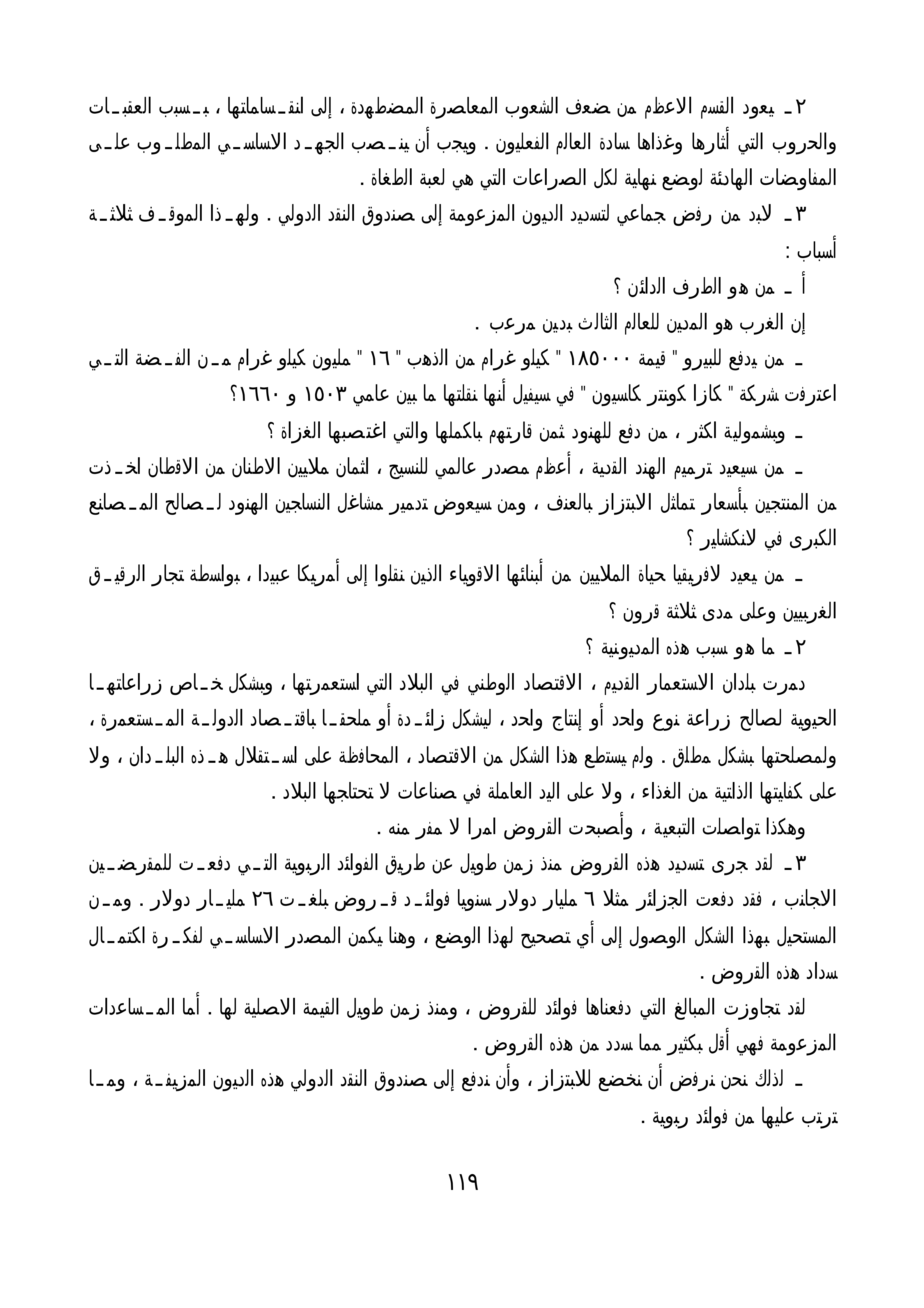
الفصل العاشر

برنامج عملي

أولا : مؤتمر باندونغ جديد .. للعالم الثالث .

هذا هو البديل الذي نقترحه ، كي يتمكن القرن الحادي والعشرون أن يرسم نهاية لحيوانيـة الإنـسان فـي عصور ما قبل التاريخ . إن غنى أقلية صغيرة ، في عالم مقهور ، يقود إلى التبعيـة والاسـتغلال ، أو مـوت القسم الاعظم من الإنسانية .

١ ـ لا يمكن لإحياء الوحدة الإنسانية أن يتحقق يتحقق بالطريقة التي تمزقت بها : بالعف والـسلاح ، إنمـا بواسطة تضافر كل القوى الإنسانية ، وبشكل خاص قوى الاقتصاد والثقافة والايمان .



٢ ـ يعود القسم الاعظم من ضعف الشعوب المعاصرة المضطهدة ، إلى انقساماتها ، بسبب العقبات والحروب التي أثارها وغذاها سادة العالم الفعليون . ويجب أن ينصب الجهد الاساسي المطلوب على المفاوضات الهادئة لوضع نهاية لكل الصراعات التي هي لعبة الطغاة .

٣ ـ لابد من رفض جماعي لتسديد الديون المزعومة إلى صندوق النقد الدولي . ولهذا الموقف ثلاثة أسباب :

أ ـ من هو الطرف الدائن ؟

إن الغرب هو المدين للعالم الثالث بدين مرعب .

ـ من يدفع للبيرو " قيمة ١٨٥٠٠٠ " كيلو غرام من الذهب " ١٦ " مليون كيلو غرام من الفضة التي اعترفت شركة " كازا كونتر كاسيون " في سيفيل أنها نقلتها ما بين عامي ١٥٠٣ و ١٦٦٠؟

ـ وبشمولية اكثر ، من دفع للهنود ثمن قارتهم باكملها والتي اغتصبها الغزاة ؟

ـ من سيعيد ترميم الهند القدية ، أعظم مصدر عالمي للنسيج ، اثمان ملايين الاطنان من الاقطان المأخوذة من المنتجين بأسعار تماثل الابتزاز بالعنف ، ومن سيعوض تدمير مشاغل النساجين الهنود لصالح المصانع الكبرى في لانكشاير ؟

ـ من يعيد لافريقيا حياة الملايين من أبنائها الاقوياء الذين نقلوا إلى أمريكا عبيدا ، بواسطة تجار الرقيق الغربيين وعلى مدى ثلاثة قرون ؟

٢ ـ ما هو سبب هذه المديونية ؟

دمرت بلدان الاستعمار القديم ، الاقتصاد الوطني في البلاد التي استعمرتها ، وبشكل خاص زراعاتها الحيوية لصالح زراعة نوع واحد أو إنتاج واحد ، ليشكل زائدة أو ملحقا باقتصاد الدولة المستعمرة ، ولمصلحتها بشكل مطلق . ولم يستطع هذا الشكل من الاقتصاد ، المحافظة على استقلال هذه البلدان ، ولا على كفايتها الذاتية من الغذاء ، ولا على اليد العاملة في صناعات لا تحتاجها البلاد .

وهكذا تواصلت التبعية ، وأصبحت القروض امرا لا مفر منه .

٣ ـ لقد جرى تسديد هذه القروض منذ زمن طويل عن طريق الفوائد الربوية التي دفعت للمقرضين الاجانب ، فقد دفعت الجزائر مثلا ٦ مليار دولار سنويا فوائد قروض بلغت ٢٦ مليار دولار . ومن المستحيل بهذا الشكل الوصول إلى أي تصحيح لهذا الوضع ، وهنا يكمن المصدر الاساسي لفكرة اكتمال سداد هذه القروض .

لقد تجاوزت المبالغ التي دفعناها فوائد للقروض ، ومنذ زمن طويل القيمة الاصلية لها . أما المساعدات المزعومة فهي أقل بكثير مما سدد من هذه القروض .

ـ لذلك نحن نرفض أن نخضع للابتزاز ، وأن ندفع إلى صندوق النقد الدولي هذه الديون المزيفة ، وما ترتب عليها من فوائد ربوية .

- كما نرفض المساعدات الزهيدة ، والهادفة لتمويه هذا الظلم المميت عبر مئات السنين .

- وسوف نؤسس مع إلغاء الديون وفوائدها ، صندوق تضامن ودعـم ، يعوضـنا بـشكل واسـع عـن (المساعدات) المزعومة التي يقدمها مستغلونا .

٤ - نحن نعارض كل أشكال المقاطعة المفروضة بشكل تعسفي من قبل سادة العـالم المـؤقتين ، علـى البلدان التي ترفض هيمنتهم .

ولن نقيم لها بعد اليوم وزنا ، وسنبدأ التعامل بحرية مع إخوة لنا تأثروا بهذه المقاطعة .

٥ - ونقرر ، وبشكل أكثر شمولية ، ايجاد سوق مشتركة لـشعوبنا ، ومـضاعفة التبـادل بـين الجنـوب والجنوب ، والذي تحتفظ بلدانه بـ ٨٠ % من المصادر الطبيعية في العالم .

وسوف نتعامل في ميدان التبادل ، على قاعدة المقايضة كي نتجنب تماما النقد الشمالي ، وبـشكل خـاص الدولار ، ساهرين على ذلك ، كي نضع بشكل تدريجي نهاية للمضاربات ، إذ لا مكـان لهـا فـي بلـداننا ، وبانتظار أن نوجد نحن عملة مشتركة .

٦ - ويتطلب هذا الموقف مقاطعة منهجية للولايات المتحدة وأتباعها ، وبشكل خاصة إسـرائيل ، الدولـة المرتزقة لدى الغرب ، والتي يستخدمها ضد ثقافاتنا وضد السلام .

فنحن نريد أن نضع حدا للسيطرة الاقتصادية ونها ية للعدوان الثقافي .

وسنناضل أيضاً ضد " اللاثقافة " التي تعززها مسلسلات الديناصورات الطفاة ، و" قتلة " هوليـود وكـذلك لعبهم الفارغة ، وكل الظواهر الاخلاقية والمادية لانحطاطهم .

٧ - ويتطلب هذا الموقف ، سياسيا ، الانسحاب الجماعي من كل المنظمـات المزعـوم أنهـا عالميـة ، والتي اصبحت اداة بيد دولة واحدة مهيمنة ، لتغطية اعتداءاتها العـسكرية والاقتـصادية والثقافيـة : الأمـم المتحدة ، صندوق النقد الدولي ، البنك الدولي ، منظمة التجارة العالمية " الغات سابقا " ، وكـذلك الانـسحاب من المنظمات التي انبثقت عنها ، لانها أصبحت مثلها أداة تآمر لفرض الهيمنة على العالم ، وتحمـل مفـاهيم تحط من قدر الإنسان ، إذ تنظر إليه كمستهلك ومنتج فقط ، لا تحركه إلا مـصالحه الخاصـة ، وتـرفض أن تعطيه معنى آخر غير العمل كرقيق ، من أجل أن يستهلك اكثر ، عنـدما لا يكـون عـاطلا عـن العمـل أو مستعمرا ، أو معزولا .

٨ - سوف نقاوم معا أي اعتداء أو تهديد على أي منا . سنقاوم بكل الوسائل ، وبالمجتمع الدولي كله .

٩ - لا تطبق هذه الجماعة الإنسانية ، المتطلعة لانشاء عالم بوجه إنساني ، أي عزل دينـي ، أو سياسـي ، لانها تهدف اساسا إلى خلق وحدة غير استعمارية ، ولكنها منسجمة في انسانيتها . وسيحمل كل شعب ، وكـل جماعة إلى هذه الوحدة غناه الخاص في أرضه وثقافته وايمانه .

والباب مفتوح أمام الرسميين في الدول ، الذين يشاطروننا فكرتنا الإنسانية ، كما هو مفتوح أمام الاقليـات المضطهدة ، بشرط الاعتراف لكل بلد بوحدته على اساس مبادئنا العامة .

كان الهدف الرئيسي لمؤتمر باندونغ الأول ، رفض عـالم ثنـائي القطبـين ورفـض الانحيـاز لاحـد المعسكرين، وحماية استقلال كل بلد من بلدان عدم الانحياز وسيبقى هذا الهدف هدفنا .

ولكن الظروف التاريخية تبدلت ، فنحن اليوم نعيش عالما احادي القطب ، وعلينـا بـذلك أن نـدافع عـن هوياتنا وثقافاتنا واقتصادنا ضد التكاملية التي تتوطئ للطامعين بالهيمنة على العالم من خلال وحدانية الـسوق ، أي حرية الاقوى في التهام الاضعف ، ليجعلوا من الـسوق ، أي مـن المـال ، النـاظم الوحيـد للعلاقـات الاجتماعية .

نحن نرفض النظر إلى العالم بدون الإنسان ، والى الحياة بدون مشروع انساني وبـلا معنـى ، وسـوف نتوحد لنبني عالما من " الأمم المتحدة " غنيا بتنوعه ، مطمئنا لمستقبله ، من خلال امتزاج الـشعوب والثقافـات في ايمان واحد ، نغذيه بتجربة كل شعب وحضارته ، تتفتح فيه الحياة باستمرار وفق مـشروع شـامل يعطـي كل طفل وكل امرأة وكل رجل مهما كان أصله ، وتقاليده الخاصة ، كل الوسائل لتبـرز بـشكل كامـل كـل إمكانياته الإنسانية التي يحملها بين جنبيه .

* * *

ثانيا : وحدة عالمية متناغمة ومنسجمة ـ مشروع لأوروبا .

إن السياسة الوحيدة اليوم التي يمكن أن يكون لها مستقبل هي التي ستحل المشاكل الاساسـية المطروحـة أمامنا :

ـ البطالة .

ـ الهجرة .

ـ الجوع في العالم .

ـ مع كل التبعات الاخلاقية الناتجة عنها !

ـ ويجب ملاحظة :

ـ أن هذه المشكلات لا تعمل إلاّ متضافرة ، وكأنها مشكلة واحدة .

ـ أنهم لا يقدمون لنا إلاّ الحلول الخاطئة .

إن القولين الاكثر خداعا هما :

ـ قولهم أن هذه المشاكل ستحل عن طريق التنمية .

ـ قولهم أن هذه المشاكل ستحل عن طريق أوروبا .

إنها الاكاذيب الاشد قتلا .

١ ـ لن تحل التنمية أيا من مشاكلنا الحياتية :

فالولايات المتحدة ، والاحزاب السياسية في البلدان الغربية لا تلامس هذه المشكلات أبدا ، لانها مـأخوذة منذ خمسة قرون بأوهام التنمية ، أي تحقيق إنتاج أكبر واكبر ، وبسرعة أشد وأشد ، لاي شيء ، مفيـدا كـان أو غير مفيد بل أحيانا يكون مميتا " كالسلاح والمخدرات " .

وتقدم لنا هذه التنمية عبر وسائل الاعلام ودروب السياسة وكأنها الترياق من الازمـة ، ومـن البطالـة . لكن التنمية التي تحققت منذ عام ١٩٧٥، ومن خلال زيادة الانتاجية بفضل التطور العلمي والتقني ، لـم تخلـق فرص عمل جديدة ، وإنما فعلت العكس ، أي أنقصت فرص العمل عندما استبدلت عمل الإنسان بعمل الآلـة . لنذكر مثالا على ذلك : أنتجت بلجيكا عام ١٩٨٠ / ١٠ / مليون طن من الفولاذ، عمل فيهـا ٤٠٠٠٠ عامـل ، وأنتجت عام ١٩٩٢ ، ٥ ، ١٢ مليون طن بـ ٢٢٠٠٠ عامل فقط .

لقد دفعت التنمية إلى الامام بسبب زيادة الانتاجية ، بفضل العلم والتنمية الذين سمحا باستبدال قـسم كبيـر من العمل الانساني بالآلة . والآن ، سيستبدل قسم آخر ، وربما أكبر عن طريق تطور المعلوماتيـة والانـسان الآلي " الروبوت " .

مثلا : لقد زادت الانتاجية بسبب هذين الاكتشافين ٨٩ % وهي فرصة للانسان لتـوفير الجهـود الاكثـر تكرارا . ولكن ما بقي سيئا أن ساعات العمل لم تنخفض وتضاعفت البطالة عشر مرات .

وهذا يدل أن التنمية الانتاجية لم تخدم مجموع البشرية ، وإنما خدمت فقط مالكي وسائل الانتاج .

إذن ، ولكي تكون هذه التنمية مفيدة للجميع ، لابد من ربط ساعات العمل تطور الانتاج .

وسيكون عملا خيرا ، إذا لم نربط الزيادة في أوقات الفراغ ، " بسوق أوقات الفراغ " ، الذي يحول وقـت الفراغ إلى وقت " فارغ " ، فارغ من الإنسانية من خلال ألهيات يقدمونها لنا ، لا تؤدي إلى ازدهار ثقـافي أو مادي .

وبدلا من أن يساعد هذا الحيز من الحياة الإنسان كي يكون إنسانا أي مبدعا وخلاقا، يتجه - بفضل نظـام السوق - لجعله عاطلا عن العمل ، وفي أحسن الحالات مستهلكا .

ليس هناك صلة بين التنمية والبطالة .

ففي فرنسا مثلا :

العام	معدل النمو	عدد العمال العاطلين عن العمل	نسبتهم إلى القوة العاملة
١٩٩١	٠ ، ٧ %	٢٣٤٨٠٠٠	٤ ، ٩ %
١٩٩٢	٤ ، ١%	٢٥٠٠٠٠٠	٤ ، ١٠ %
١٩٩٣	١ %	٢٩٠٠٠٠٠	٦ ، ١١ %
١٩٩٤	حتى نيسان	٣٢٠٠٠٠٠	-

وهي أرقام صادرة عن جهات رسمية .

ولا يفهم من ذلك ، أننا معادون للتنمية ، أو لتقدم العلوم والتقنيات ، مادامت تعمل على تخفيض جهد الرجال والنساء ولا تقود إلى عبوديتهم أو انحرافهم، مثلما حدث في " الاعلام السريع " الذي يسخر للتلاعب بالرأي العام خدمة للهيمنة الأمريكية .

ولكن التنمية ، وزيادة الانتاج ، حتى مع التدابير التي نقترحها لن تحل مشاكل البطالة . حتى ولو حاولنا أن نوفق فيما بينها ، عن طريق ضغط الاجور ونفقات الضمان الاجتماعي ، كما تريد الحكومة وأصحاب العمل ، فقد نستطيع - على الاكثر - أن نكسب بعض أجزاء السوق من خلال المنافسة الاوربية والامريكية واليابانية . ومع ذلك سيبقى هناك ذرائع أخرى تدعو للسخرية .

٢- الكذبة الاخرى - بعد ترياق التنمية ترياق أوروبا .

لن تحل أي من المشاكل الحيوية في إطار اوروبا .

لقد وعدونا أنه مع " أوروبا " سيكون لدينا سوق تلبي حاجات ٣٠٠ مليون زبون ، وتناسوا القول أن ذلك سيستدعي وجود ٣٠٠ مليون متنافس في " سوق " العمالة ، لأن الاقتصاديات الاوروبية ليست متكاملة وإنما متنافسة ، إلى جانب منافسة الاقتصادين الأمريكي والياباني .

أيعني هذا أن البديل الوحيد لأوروبا ، هو الانكفاء الوطني ، لفرنسا مثلا ، لتغلق على نفسها أسوار الحماية ؟

والعكس ، لأن ذلك سيكون الاختناق بعينه .

إن الحل الوحيد المحتمل ، هو الانفتاح على العالم في شموليته . لقد مضي ٥٠٠ عام على الاستعمار وخمسون عاما من تأسيس صندوق النقد الدولي ، والبنك الدولي ومازال العالم ينوء كثيرا تحت عبء اقتصاد مشوه ، بعد أن نهب الغرب ثروات ثلثي سكان العالم ، فتركهم في فقر مدقع ، وسيبقون متاخمين لحدود المجاعة والبطالة . وبين الاثنين ستبقى الهجرة طريق العالم من المجاعة إلى البطالة . حتى لو قسنا الامور بمعايير السوق فقط ، فكيف نأمل أن نوفر العمل لأفراد بينما ملايين البشر لا يملكون الحد الأدنى لشراء غذائهم .

إن الحل الوحيد الممكن للاستجابة لجوع البعض ، وبطالة الآخر ، والرد على هجرة الجياع في بحثهم الخادع عن عمل ، يكمن في التغيير الجذري في علاقاتنا مع العالم الثالث ووضعنا نهاية لسيطرة الغرب ، وتبعية الجنوب ، لأن هذه التبعية هي التي تولد التخلف .

نحن نعيش في عالم مجزأ ، بين الشمال والجنوب ، وبين الذين يملكون والذين لا يملكون في الشمال نفسه، وكذلك في الجنوب . ويسيطر ٣٠ % من سكان الأرض على ٨٠ % من المصادر الطبيعية في هذا الكوكب ، ويستولون على ٨٣ % من عائدات العالم . أما ٢٠ % من سكان العالم الاكثر فقرا فلا يتجاوز نصيبهم من العائدات ٤ ، ١ % فقط .

ويموت بسبب هذا الانقسام ، ٤٠ ألف إنسان يوميا ، نتيجة سوء التغذية أو الجوع . ويكلف نمـط التنميـة الغربي العالم من الاموات ، كل يومين ، ما يعادل ضحايا قنبلة هيروشيما .

وتتسع الهوة يوما بعد يوم ، إذ ارتفعت نسبة التباعد بين الدول الغنية والدول الفقيرة ، خلال ثلاثين عامـا، من واحد إلى ثلاثين ، لتصبح واحدا إلى مئة وخمسين .

وبعد أن تمكن الاستعمار خلال ٥٠٠ عام ، ونظام بويتون وودز خلال ٥٠ عاما ، مـن خلـق هـوات لا قرار لها من عدم المساواة بين الشعوب ، أصبح نظام التبادل كافيا لتعميق الهيمنات والتبعيات .

كيف نقلب الانحرافات الحالية ؟

أولا : عن طريق تحطيم الاسطورة التي تعمد " ديمقراطية " حرية الـسوق ، لأن الـسوق الحـرة تقتـل الديمقراطية بسبب تراكم الثروة في قطب واحد ، والبؤس في قطب آخر .

ويتطلب هذا الأمر مجموعة من القرارات السياسية الهادفة إلى التحرر من خدعة عولمة الاقتـصاد ، أي من الادارة الأمريكية التي تعمل على جعل فرنسا ، وكذلك أوروبا ، وكذلك بقيـة العـالم ، مـستعمرة تفـتح الطرق للاقتصاد الأمريكي في كل القطاعات : من الزراعة الغذائية إلى الملاحة الجوية ، ومن الاعـلام إلـى السينما .

وفي كل يوم تزداد وضوحا حقيقة أن معاهدة مايستريخ هي سبب رئيسي للشرور ، ليس فقط للمـزارعين " إذ تطالب المعاهدة بترك مساحات غير مزروعة " ، وإنما لكل العاملين ، فتشجع بذلك تحت زعـم المنافـسة الاوروبية ، على الوصول إلى تسوية عن طريق تعديل شروط العمل ، باسم المرونة . وهـي تريـد بـذلك أن تلغي كل صناعاتنا ، من الطيران إلى المعلوماتية ، وأن تهين ثقافتنا بغزو تقوده السينما الأمريكية والتلفزيـون الأمريكي .

كما تريد أن تجعل من جيشنا ملحقا بجيشها يشاركه التدخل في البلدان الاخـرى . وتـدعي معاهـدة مـا يستريخ في ثلاثة مواضع من نصوصها ، أن أوروبا لا تـستطيع إلاّ أن يكـون " الركيـزة الاوربيـة لحلـف الاطلسي ".

أما ما يتعلق بالاقتصاد فقد نصت المادة ٣٠١ من القانون الأمريكي على حق أمريكـا بحمايـة منتجاتهـا الوطنية ، بينما تفرض اتفاقية الجات (المسماة فيما بعد بالمنظمة العالمية للتجارة) ، التبادل الحـر علـى كـل البلدان الاخرى ، والذي يفسح المجال لكل المنتجات الأمريكية .

وجاء قانون هلمز ـ بورتون ١٩٩٦ ، وقانون أماتو ـ كنيدي الذين أقرهما نفس الكونغرس الأمريكـي ، طمعا في منع كل المجتمع الدولي من المتاجرة مع بلدان يحـددها الكـونغرس وحـده . ووحـدها أصـبحت الولايات المتحدة تشرع للعالم كله .

ولا بد من بروز مقاومة جديدة ، لا للتخلي عن ماستريخ فقط ، ولكن للانسحاب أيضاً من صندوق النقـد الدولي ، والبنك الدولي ، وكل المنظمات الاخرى التي تستخدم أداة في يد الارادة الأمريكية في الهيمنة علـى العالم .

وانطلاقا من ذلك كله ، لا بد من استعادة حريتنا لبناء علاقات جديدة كـل الجـدة مـع العـالم الثالـث ، بالاضافة إلى هدف محدد وهو تشجيع الشعوب الاوربية الاخرى لسلوك نفس الطريق .

ويتطلب بناء العلاقة الجديدة :

١ ـ إلغاء تام للقروض ، إذ ليست واقعية ولا مبررة .

٢ ـ إلغاء كل المساعدات المالية لحكومات العالم الثالث .

مثلا :

يبلغ حجم ميزانية التنمية / ٤٠ / مليار فرنك فرنسي ، وهو حجم ميزانية المساعدة العامـة فـي فرنـسا ، الهادفة رسميا إلى دعم البلدان الاكثر فقرا في العالم . والواقع أن ٩٥ % من هذا المبلـغ الـضخم لا يـشكل مساعدة فعلية لهذه البلدان ، ولا يحقق تنمية فيها، ولكنه في أحسن أحواله ، يفرغ جيوب المكلفـين الفرنـسيين بالضريبة ، ليملأ جيوب بضعة من المستفيدين الحكوميين (في الشمال وفي الجنوب) . والأسوأ مـن ذلـك أن توجه هذه المساعدات للقتل .

ونورد هنا أمثلة حديثة عن الكيفية التي تستخدم بها المساعدات :

ـ رواندا : جرى تمويل حكومة القتلة هناك إلى الحد الذي مكنها من الاستمرار ، ثم تـم تمويـل عمليـة توركواز ، لتسهيل وصول القتلة إلى زائير في محاولة لتحضير عمليتهم الثأرية .

ـ الجزائر : قدم لحكومة الجزائر التي نصبت نفسها وألغت الانتخابـات بـشكل غيـر شـرعي ، سـتة مليارات فرنك فرنسي . وقد بيع للحكومة نفسها طائرات هيلو كوبتر (وهي السلاح الأمـضى ضـد حـرب الغوار) .

٣ـ لهذا يجب أن لا تقدم القروض الحكومية والخاصة ، إلى الحكومـات ، وإنمـا مباشـرة للمنظمـات القاعدية (مثل الاتحادات التعاونية ، النقابات ، والمجموعـات الانتاجيـة ، وأحيانـا تأسيـسها) ، ولمـشاريع محددة وذات نفع عام ، مع تفضيل الاقاليم الزراعية لتحقيق الاكتفاء الغذائي الذاتي (أجهزة زراعيـة ، حفـر آبار ، بناء طرق ومستشفيات ومدارس ... الخ) .

٤ ـ قبول سداد القروض بالعملة المحلية لتشجيع إعادة الاستثمار في البلد نفسه ، بدلا من عـودة رؤوس الاموال المستثمرة إلى الوطن .

5 ـ العمل على تحقيق مقايسة شريفة بين أسعار المنتجات المباعـة مـن دول الجنـوب ، مـع أسـعار المنتجات المباعة إليها من دول الشمال .

٦ ـ الوقوف في وجه عملقة المشاريع ، التي تسعى إليها الـشركات الكبـرى . ثـم احتـرام التـاريخ ، وثقافات كل الشعوب ، والاستخدام الاوسع للتقنيات الوطنية التي غالبا ما تكون فاعلة لملاءمتهـا للاحتياجـات المحلية . سيكون التطور بهذه الشكل داخليا بدل أن يكون تصفحا من الخارج لا صلة لـه بالبلـد أو حاجاتـه الحقيقية ، أو أن يكون على النمط الغربي اتت به الشركات الاجنبية الكبرى خدمة لمصالحها .

وقد يؤدي هذا التكيف الضروري في الصناعة استجابة للحاجات الحقيقية للجنوب ، إلـى تحقيـق تكييـف لعقلياتنا نحن أيضاً ، استجابة لمصالحنا الحقيقية ، لا للسلاح أو ألهيات قتل الفراغ بلا جدوى .

٧ ـ أما ما يتعلق بمصادر الطاقة فيجب أن نعطي الافضلية دوما (إلا فـي حالـة الاسـتحالة المطلقـة) لمصادر الطاقة المتجددة كالطاقة الشمسية وغيرها .

أنستطيع أن نتحدث عن السوق العالمية ، وأمامنا ثلاثة مليارات من اصل خمسة مليارات ، لا يـستطيعون تأمين قوتهم اليومي.

أيمكننا ، نتحدث عن سوق عالمية تلبي فقط لاحتياجات الغرب ، وتنسجم مع ثقافته ، الغرب الذي لا يفعـل سوى أن يصدر فائض منتجاته إلى العالم الثالث ؟

هل علينا أن نقبل بحتمية استمرار عدم التوازن في علاقات العالم باعتباره واقعا لا يمكن تجاوزه ، واقعـا يؤدي إلى مظاهر العنف ، والتعصب القومي والاصولية ، دون أن نتساءل عـن المـسببات الحقيقيـة لهـذه الفوضى العالمية ؟ .

١ ـ علينا أن نعمل على خلق عولمة حقيقية بدلا من العولمة الاقتصادية الكائنة التي ليست إلاّ إرثا خلفتـه الهيمنة الاستعمارية بقيادة الولايات المتحدة .

٢ ـ وضد أوهام التنمية العمياء التي تنبثق من اقتصاد السوق الذي يتحكم بكل العلاقات الاجتماعية ، لابـد من العمل بالتصحيح الضروري الذي يسمح لنا بالوصول إلى الاشتراكية كما عرفها ماركس : إعطـاء كـل الأطفال ، كل النساء ، كل الرجال الوسائل الاقتصادية والسياسية والثقافية لتحقيق تنميـة حقيقيـة ، وبـشكل كامل ، لكل الغنى يحملونه بين حناياهم .

الولايات المتحدة طليعة الانحطاط

الخاتمة

تهدف هذه الافكارالمبعثرة إلى التحضير للقرن الحادي والعشرين كي يمكن العيش فيه حتى النهايـة ، إذ لو تابعنا العيش حسب الانحرافات القائمة ، نكون قد بدأنا تدمير البشر : مليارات من الناس ستموت جوعا فـي جنوب الكوكب ، حيث يكلفنا نمط التنمية الغربية كل يومين ما يعادل ضحايا هيروشيما .

وفي بلادنا ـ أوروبا ـ سنشاهد أحياء بلا هدف ، وحياة بلا أفق ، إذا لم نضع حدا لهذا الانفـصام الـذي يشهده العالم بسبب تزايد البطالة والتسريح ، والعنف والمخدرات .

ويعتبر هذا الكتاب دعوة لمقاومة اللامعنى، ولبناء عالم من الأمم المتحدة ، مبنيا علـى مبـادئ أخـرى ، غير المبادئ التي قادت الغرب بكامله إلى الانحطاط ، وقادت العالم إلى المعاناة .

في النصف الثاني من هذا القرن ماتت الآمال ، بعد حربين قتلتا ٨٠ مليون إنسان ، وبعـد فـشل ثـورة ، أعطت ، فوق خرائب الحرب الأولى ، بوادر أمل للبشر ، وقدمت خلال الحرب الثانيـة اكبـر نـصيب مـن البطولة والتضحية بغية قهر الوحش النازي . ولكنها خانت الاشتراكية عن طريق تقليـد نمـط التنميـة فـي الغرب ، ومركزية بيروقراطية جنونية.

والوهم المئوي " بحلم أمريكي " ، قد تحول إلى " كابوس أمريكي " بسبب رغبة القـادة الأمـريكيين فـي الهيمنة على العالم ، والافراط البربري في إنتاج السلاح وامتلاكـه ، وخبـث مبـدأ الليبراليـة الاقتـصادية المفروضة على كل الشعوب .

وكذلك بإسباغ صفة الشيطانية على ما أسموه " امبراطوريات الشر" المتتابعة ، كي يبـرروا تحـت زعـم الصراع ضد الارهاب ، إرهاب الخاص ، وجرائمهم ضد الإنسانية : بحق الهنـود ، والافارقـة ، وفيتنـام ، وكذلك الحصار المفروض على كوبا وليبيا وايران والعراق ، العراق الذي تحمل وفـاة ٢٥٠ ألـف طفـل ، حسب أرقام الصليب الاحمر الدولي .

وفي الولايات المتحدة ، يموت طفل من كل ثمانية ، جوعا لأنه لا يجد ما يأكله . هؤلاء المـدافعون عـن حقوق الإنسان ، بالاضافة إلى الجرائم ضد البشرية في الخارج ، يحتفظون لانفسهم بـاكثر الارقـام العالميـة مدعاة للحزن في استهلاك المخدرات ، وانتحار المراهقين ، والجريمة ، والفساد . أما السينما لـديهم فتتـستر على كل ذلك ، فتقدم لنا في ظل ديكور حالم ، ضراوة أسماك القرش في مسلسلات دالاس وواقع العنف لـدى الديناصورات ، والترمنيتور الماحق .

أما وسائل الاعلام ، والتلفزيون والاعلام السريع ، فهي شعاع الموت الذي يدمر على مـستوى العـالم ، الفكر النقدي ، وثقافة الايمان ، والامل والحب لدى خمسة مليارات انسان .

ويقصد هذا الكتاب إلى التدليل على أن نهضة الإنسانية أو على الاقل استمرارها يتطلـب بنـاء المـستقبل على أسس أخرى .

يجب أن لا يتضمن كشف الحساب كشف حساب هذا القرن ، فشلا لماركس الذي خانوا اشـتراكيته ، إنمـا فشل آدم سميث الذي تهددنا ليبراليته التي دفعت إلى أقصى مدى لها ، تهددنا بانتحار كوني.

كيف نستطيع فتح أفق جديد ، مستقبل جديد بوجه انساني من خلال ساحات الدمار الـذي أنتجتـه حيوانيـة ما قبل التاريخ مع نهاية هذا القرن ؟

لابد لنا من البحث عن الخطأ في توجه عقارب التاريخ .

وكان الانفصال الأول للغرب ، مع سقراط (الذي ابتدأ معه الانحطـاط كمـا يقـول نيتـشه) ، وتلميذيـه أفلاطون وارسطو . الذين أفسدوا ، خلال ألفين وخمسمائة عام التاريخ الثقافي للغـرب مـن خـلال " فلـسفة الكائن " أساس كل الهيمنات .

وقد جربنا أن نستعيد مسيرة فلسفة " الفعل " ، وهي مسيرة باقي الإنسانية برمتها منـذ اكتـشاف الادوات الاولى ، ومنذ حفر القبر الأول ، ومنذ الحلم الأول بحياة خلاقة متحدة .

وكان الانفصال الثاني للغرب ، أيام الصليبين ، وفتوحاتهم المتكررة ومحاكم التفتيش ضد كل حكمة الشرق .

وكان الانفصال الثالث ، بدءا مما سمي بعصر النهضة ، حيث استخدموا الاكتشافات العلمية والتقنية التـي حققها الشرق (مثل البوصلة ، والدفة المحورية في السفن ، والبارود والطباعة) ، وجعلوا منها أدوات لغـزو الشعوب والنفوس . وابتدأ عام ١٤٩٢ ، بعد الاستبعاد الاخير لثقافات الشرق ، بالاسـتيلاء علـى غرناطـة ، وغزو وتدمير ثقافات أمريكا الهندية ، تعطشا للذهب بدءا من كريستوف كولومبوس .

هذه هي مسيرة ٢٥٠٠ سنة من فلسفة الهيمنة التي تدعونا لأن نطرح مسألة فتح آفـاق جديـدة للانـسان ، ونقترح بديلا للوحدة الاستعمارية للعالم : وحدة متناسقة ، داعين حكمة العالم الثالث وثقافته لوضـع الإنـسانية من جديد في الدرب الواسع للاخصاب المتبادل بين كل الثقافات، وللانتهاء من الاهـداف القاتلـة للمركزيـة الاثنية الاوروبية ، ومن الهيمنة .

استدعى ذلك أن نجد معايير أخرى للتقدم غير القوة التقنية ، وقوة الثروة ، والناتج الـوطني الاجمـالي ، لنتمكن أن نحدد من خلال هذه التعابير، لا من خلال النمو الاقتصادي ، وإنما من خلال ازدهار الإنسان .

كما استدعى الأمر ، في المستوى اللاهوتي ، أن نعيد للانسان بعده الاساسي : التعالي ، منظـورا إليـه ، كالظاهر من إله ملك ، يدير من الخارج ومن الاعلى مصير البشر والامبراطوريات ، إنمـا كانبثـاق جديـد جذريا ، بفعل خالق الإنسان ، مع الوعي (ونستخدم إلها . ويجب أن نتوقف عن الاحكام المسبقة التـي تقـول بأن التاريخ المقدس ، هو تاريخ قبيلة واحدة ، بينما يكشف هذا التاريخ عن جذوره لدى كل عـائلات الأرض ، وفي كل الثقافات والحضارات من أمريكا الهندية إلى أفريقيا إلى آسيا .

وعلى المستوى الاخلاقي افترضنا ضرورة ، إجراء قلب عميق ، في دراستنا للعمل الانـساني الخـلاق . لم نقصد أن نقلل من جمال النمط الغربي لانجازات اليونان أو عصر النهضة في القرن السادس عشر، وإنمـا اردنا أن نخرج من متاحف الاجناس ، أقنعة البولونيز وأفريقيا ، والاعمال النحتية والفـن المعمـاري لهنـود أمريكا ، وأن نتعرف من جديد على الابعاد النبوية للوحات الصيد في عهد سونغ ، والنداءات الداخليـة لبـوذا أو بوديساتغلس في جنوب آسيا .

هكذا فقط تستطيع الفنون أن تخرج من " أخاديد المحاكاة " التي وضعها فيها أرسطو، والتي لم تقـيم مـن خلال معايير المنظور والتشريح منذ عصر النهضة (ولا الحذلقة التي تعاقبت لدى الاساتذة خلال ثلاثة قـرون)

. وكذلك الخروج من الاخدود الآخر وهو الرفض لمجرد الرفض والتمرد اللذين قادا إلى انحطاط فن وصفوه " بالمعاصر" ، وهو فن ظنوا أنه يكون حديثا بقدر ما يكون جاهلا بالماضي. وقد وصل بهم الأمـر أن يطلقـوا اسم لوحة أو منحوتة على ما يشبه أرضا بور تلقى فيها القمامة، وأن يستبدلوا تـاريخ الموسـيقى بالـضجيج ، والرقص بحركات هستيرية فارغة من كل دلالة انسانية .

قال جوان جري ، وهو أحد الرسامين الاكثر تجديدا في عصرنا ، ورائد من رواد المدرسة التكعيبيـة : " تعتمد عظمة الفنان على قوة الماضي الذي يحمله في داخله : ليس بغرض محاكاة القدماء ، وحفظ تقاليـدهم ، بل كي تستمر الشعلة النبوية التي حملها العظماء منهم لانارة الامكانيات المتجددة دائما في إنسانية الإنسان " .

ويستدعى ذلك أيضاً ، في المستويين الاقتصادي والسياسي ، تحطيم أصنام زعم أنها " علـوم إنـسانية " ، التي نسخ أسلوبها عن أسلوب علوم الطبيعة ، فنتج عن ذلك مفهوم مهين للانسان: " الإنسان كـائن اقتـصادي ". فهو بذلك لن يكون إلا منتجا أو مستهلكا ، تحركه مصالحه الخاصة . إنها مـسألة قاتلـة ، شـأنها شـأن " الاقتصاديين " الذين يحاولون من خلال حاشية أو تعليق رياضي خداع وعويص ، إعطاء المظهـر العلمـي ، لايديولوجيا مهمتها استمرار النظام القائم .

ويعني قلب المنظور ، إعادة البحث ، كي نتعلم من كل المفاهيم الاخرى للانـسان ، التـي ولـدت فـي أحضان الثقافات الاخرى ، الوسائل كيف نخلق شروطا تقنية واقتصادية وسياسية وروحيـة ، تلائـم الجميـع ، وتسمح لكل كائن إنساني (رجل أو امرأة) أن يصبح اكثر انسانية ، أي " شاعرا " ، بأعمق معاني الكلمـة ، أي خلاقا لإمكانيات جديدة للمستقبل .

هذه هو الهدف الذي سعينا لتثبيته ، وهو يتجاوز بهذا الشكل امكانياتنا ، لأنه ليس حتى الآن إلا اقتراحـات متناثرة ، ليس لها من طموح إلا المساهمة في نشر نظرتنا إلى العالم ، إلى أن تتمكن نفـوس أرحـب مـدى ، وتعمل من خلال تفاعل الحبث والايمان ، على بناء عالم إنساني .

في نهاية كشف الحساب هذا ، وفي نهاية هذه الدراسة التي تجمع بين العرض والاقتراحـات المـستقبلية ، وصية لحياة ، حاولت أن تتماثل مع حياة القرن الآول، من خلال " فلسفة الفعل " التي قادتني البحـث فيهـا لأن اشق طريقي عبر " الفعل " المسيحي عند موريس بلوندل ، والجهد الجبار لمـاركس ، والرؤيـة الديناميكيـة للعالم في القرآن الكريم ، وما يسيطر على من الاحساس باقتراب حياتي الشخصية من النهاية هو أقـل بكثيـر من شعوري بالسعادة التي تغمرني لأني استشف الملامح الأولى لحياة جديدة للقرن الذي سيولد والـذي ربمـا لن أراه .

٣٠ ـ آب ـ ١٩٩٦

روجيه غارودي

ملاحظة

ليس هذا الكتاب خطاب تأبين ورثاء ، ولا صلاة جنائزية بسيطة على حضارة قـضت نحبهـا ، حـضارة الغرب الذي يوحي اسمه ، ببلاد تغرب فيها الشمس ، بلاد الغسق الآفلة .

وفي الشرق ، في البلاد التي تشرق فيها الشمس ، بلاد الفجر التي بدأ النهار فيها يبزغ . إنه الـسابع مـن أيار ١٩٩٦ في بكين . وسصف المجلد الثاني من هذه السلسلة venre du large ، ورشة العمل التـي افتتحـت منذ ثلاث سنوات ، من أجل هذا الامل بوحدة متناسقة للعالم ، انطلاقا من طريق الحرير الجديـد الممتـد مـن شنغهاي إلى نوتردام ، انطلاقا من حضارة استوائية نلمسها في الامازون ، ومن " الصحراء " التي كانت قبـل عشرة الاف عام غابات ومراع ، والتي يمكن أن ترتدي حلة خضراء في عشر سنوات .

لم يخصص سطر واحد في صحفنا ومجلاتنا ، واذاعاتنا ، ومحطاتنا التلفزيونية ، لهـذه الـولادة ، ولادة " عالم جديد " حقيقي .

وسيكون الكتاب الثاني من مجموعتنا عمل جمـاعي وضـعه (صـينيون وايرانيـون واتـراك ، وهنـود وماليزيون وغيرهم) وسيكون عنوانه :

لقد بدأ المستقبل

الهوامش

ـ قانون هلمز ـ بورتون :

ـ يجيز قانون هلمز ـ بورتون الذي فرض الحصار والمقاطعة على كوبا ، يجيز لكل الأمريكيين ، والكوبيين المتجنسين ، والذي صودرت ممتلكاتهم من قبل الحكومة الكوبية ، أن يقاضوها أم القضاء ، وكذلك يحق لهم مقاضاة أي أو مؤسسة أو شخص كائنا ما كان ، يتعامل مع المشاريع المصادرة أو أن يشارك فيها .

ـ قانون أمادو ـ كينيدي : يحرم القانون الشركات التي تستثمر أكثر من أربعين مليون دولار من كل ضمانة مصرفية في ميداني الاستيراد والتصدير ومن إجازات استيراد بضائع للشركة المعاقبة ، ومن كل قروض أو اعتمادات تزيد عن عشرة ملايين دولار ، تفتح لدى المؤسسات المصرفية الأمريكية ، ومن كل احتمالات اجراء عقود مع الحكومة الأمريكية ومن كل استيراد إلى الولايات المتحدة ... الخ .

ـ أثار تطبيق هذا القانون مؤخرا أزمة بين الولايات المتحدة وفرنسا ، وذلك عندما قامت شركة توتال بتوقيع عقد شراكه مع إيران .

ـ وأكدت وزارة الخارجية الأمريكية أن موقف فرنسا في القضية غير مفهوم ، وأعربت عن خيبة أملها لرؤية شركاء الولايات المتحدة يرفضون فسادتها في الجهود التي تبذلها ضد إيران ، مشيرة أن ضخ أموال في إيران إجراء لا يساعد الولايات المتحدة . واعلنت أو لبرايت وزيرة الخارجية الأمريكية عن خيبة أملها إزاء قدرة الولايات المتحدة في إقناع الدول الاخرى لصحة وجهة نظارها بشأن (الدول الخارجية عن القانون).

ـ وكان هذا العقد قد اعتبر انتصار لإيران واوروبا وضربه للهيمنة الأمريكية .

الدولار والإنسان

بقلم أناتول فرانس

في بداية هذا القرن ، وبالتحديد عام ١٩٠٨ ، كشف أناتول فرانس في كتابـه " جزيـرة البطريـق" عـن الروح التي تقاس فيها السياسة الأمريكية واصفها اياها أنها بلا روح . يصور المقطـع التـالي البروفيـسور أوبنوبيل الذي يزور الولايات المتحدة ويحضر جلسة للكونغرس الأمريكي ويقدم لنا التحليل التالي :

رئيس الجلسة ـ : انتهت الحرب التي أشعلت لفتح اسواق زيلاند الثالثة ، بشكل يرضي الولايات المتحـدة . وأقترح عليكم أن نرسل الحساب إلى مفوض الادارة المالية .

ـ هل من معارض ؟

حسن ، فاز الاقتراح .

ـ وسأل البروفيسور اوبنوبيل مترجمه المرافق له :

هل سمعت جيدا ؟ ماذا ! أنتم الشعب الصناعي تشغلون أنفسكم بكل هذه الحروب .

ـ أجاب المترجم :

بلا شك . فهذه الحروب ، حروب صناعية ، والشعوب التي لا تمتلك صـناعة ولا تجـارة غيـر ملزمـة بخوض الحرب . أما الشعوب التي لديها أعمال . فهي مرغمة على سياسة الغزو ، ولهذا ارتفـع بالـضرورة عدد الحروب التي اشعلناها ، مع ازدياد نشاطنا الانتاجي . عندما تجد صناعة من صناعاتنا أنهـا لـن تـستطيع تصريف منتجاتها ، فلا بد من اشعال حرب ما كي نفتح سوقا جديدة . وهذا ما فعلناه هذا العـام فـي حـرب الكربون وحرب النحاس ، وحرب زيلاندا الثالثة ، قتلنا ثلثي السكان لنجبر الثلث الباقي على شـراء المظـلات والقمصان الداخلية .

وفي هذه اللحظة صعد إلى المنصة رجل ضخم كان يجلس على كرسي في وسط المجتمعين وقال:

أطالب بإعلان الحرب على حكومة جمهورية ايميرود ، التي تنازع خنازيرنا بوقاحـة ، الـسيطرة علـى تجارة الجامبون والسحق في كل اسواق العالم .

ـ فسأل الدكتور أو بنوبيل :

من هو هذا المشرع ؟

ـ فأجاب المترجم :

إنه تاجر خنازير .

ـ قال رئيس الجلسة :

هل من معارض ؟ ... إذن اطرح هذا الاقتراح على التصويت .

وهكذا جرى التصويت برفع الايدي على اشهار حرب ضد جمهورية ايميرود وفاز الاقتـراح بالاغلبيـة الساحقة .

ـ قال أوبنوبيل :

ولكن كيف ؟ ابهذه السرعة واللامبالاة تقرون أشعال الحرب ؟

ـ أجاب المترجم :

أوه ! إنها حرب لا أهمية لها ، إذ لن تكلف اكثر من ٨ مليون دولار .

ـ والرجال ؟

ـ الرجال ؟ إنهم ضمن ال ٨ مليون دولار .

أناتول فرانس " جزيرة البطريق " ١٩٠٨

* أناتول فرانس (١٨٤٤ ـ ١٩٢٤) كاتب وروائي فرنسي منح جائزة نوبل للآداب عام ١٩٢١.

رمز طاحونة الشيطان

سنحاور أن نشرح هذا النظام الذي يختلط فيه التطورالاقتصادي مع تطور الإنسان ، من خلال أمثولة يوحي بها كتاب ميشان ، بعنوان " ثمن التنمية " أما نحن فندعوه :

" أمثولة طاحونة الشيطان "

أقرت حكومة بلد ما ، متطور جدا ، حق الافراد في حمل السلاح ، استنادا إلى الحرية الفرديـة . وهكـذا شهدت صناعة السلاح ازدهارا لا سابقة له . وتبارى المنتجون المتنافسون ، بما لـديهم مـن قـوة مخيلـة ، وانتشار ، في اغراق السوق الحرة بانواع مختلفة وبلا حدود ، مـن المـسدسات والقنابـل المنمنمـةِ. وقـد تراوحت الاشكال والانواع بين الممتاز جدا المعقود إلى سلسلة ، وبين النوع المتواضع جدا لصالح الاسـتخدام اليومي ، ومن المروع كاتم الصوت المكفول في اصابة الهدف إلى السلاح الذي قيل أنه لاثارة الرعب فقـط ، إذ تستمر اصوات انفجاراته المروعة لابعاد المعتدي المحتمل دون التصويب فـي مـسار خـاص . وحريـة الاختيار عند المستهلك مؤكدة بشكل تام .

ورواج السوق من الناحية العملية ، لا يحده حد ، بسبب العصبية التي تخلقها نزاعات العمـل ، وازدحـام السير في المدينة ، والتراع المستمر على القيم " الاكثر قدسية " ، والاثارة الجنسية ، والنزاعات المالية . كـل ذلك يجعل المرء ، حتى الاكثر هدوءا ، أو المرأة الاقل جاذبية واغراء ، لا يخاطران في السير في الـشارع ، دون أن يحمل أي منهما مسدسا أو مسدسين ، وبعض الذخيرة.

ومن جهة أخرى ، يساعد مستوى المعيشة المرتفع جدا ، والذي تحقـق بفـضل التوسـع فـي النـشاط الاقتصادي ، يساعد فرد على شراء العديد من الأسلحة . إن زمن القحط والبؤس الإنساني قد ولـى . وولـدت صناعات جديدة ، برهنت على ديناميكية استثنائية ، منها صناعة السترات الواقية من الرصـاص ، والخـوذات ، والاحذية ذات المشابك المعدنية ، والاقنعة الكاتمة ، والمركبات المـصفحة ، وزجـاج العربـات المـضاد للرصاص ، ومصاريع فولاذية للبيوت . ويبرهن ازدهار صناعة الحديد على الوضع الصحي لاقتصاد الـبلاد

، وروح المبادرة لدى الصناعيين ، وفضائل المؤسسة الحرة ، والفكر الثاقب للحكومات. وفي إطـار البهجـة التي خلقها هذا الازدهار ، غابت كل مظاهر الكآبة .

وفي الحقيقة ، تتلقى كل قطاعات النشاط الوطني دعما منشاطا . إنه العـصر الـذهبي لاشـكال التـامين المختلفة ، والعيادات الخاصة ، والمخابر الدوائية التي تستجيب بشكل محموم ، وبلا انقطاع للحاجة المتزايـدة للمهدئات . أما الاستخدام بدوام كامل فهو مضمون تماما ، فطرق العمل مفتوحة للشباب بلا حـدود ، وحتـى العمال غير المؤهلين ، فهم مطمئنون أنهم سيجدون اعمالا تثيبهم بشرف ، ولا تتطلب إلاّ تأهيلا سريعا ، مثـل حمل نقالات الاسعاف لالتقاط الجرحى أو الموتى .

وقد جرت مناقشة الميزانية ، على ضوء التوسع الكامل للاقتصاد الوطني ، وأبرزت - وهي محقـة فـي ذلك - أن العلم قد استفاد من نتائج السماح بصناعات السلاح ، وبالتـسلح الشخـصي ، والمتمثلـة بالانهـاك السريع لمصادر الثروة المعدنية . وقد قادت الابحاث إلى اكتشاف مواد تركيبية اكثر مقاومة لاستخدامها فـي الدروع ، وسيؤدي ذلك إلى تحقيق تقدم مماثل في صناعة القذائف ، وكما قـال واحـد مـن أبلـغ خطبائنـا البرلمانيين في هذا المجال : " إن ابواب التقدم قد انفتح نحو اللانهاية " .

أوجدت الجراحة ، والطب ، والطب النفسي ، منافذ مذهلة في شفاء امراض غير معهـودة . لقـد جـدد ارتداء الدروع المحكمة ، المفاهيم حول الايضية ، كما قاد حمل الأسلحة إلى اكتشافات تتعلق بالقلق والكـرب ، والعدوانية ، هذه المواضيع التي تربك مستقبل علم النفس .

أي تجديد تشهده البلاد في ميدان الثقافة ، وخاصة في ميدان العلوم الإنـسانية ! لقـد انفـتح أمـام علـم الاجتماع الوضعي افق بلا نهاية ، كي يستطيع تطبيق أساليبه . ويلعب هذا العلم دورا رياديـا لقيامـه بأبحـاث مشتركة مع علوم أخرى حول علم " المسدسات " . وعمل رجال الاحصاء علـى بلـوغ تقنيـات التقـديرات الاستقرائية مبلغ الكمال ، لحساب دقيق ومتوازن للعام الذي سيصبح فيه حجم ووزن الأسلحة معـادلا لحجـم الأرض ووزنها ، وقد استطاع فيها أحد الاسلاف اللامعين أن يحدد في أي عام ، لن يترك فيه النمو الـسكاني في كرتنا الأرضية إلا مترا مربعا واحدا لكل فرد . ومن جهة أخرى قلب علم السكان الاتجاه ، بالتخلص مـن القانون اللوغاريتمي للابادة ، مفسحا المجال لامكانية التنبؤ باليوم الذي سيقوم فيه آخر رجل ، بتوجيـه طلقـة خلاص الاخيرة إلى جاره الذي يقف أمام ناظره .

وتصبح المستقبلية الوضعية ، من هذا المنظور العلمي ملكة العلوم متمتعـة بـنفس المـستوى النظـري كالفيزياء أو العلوم اللغوية . ويلعب اتحاد " الرند " " اسم شركة كبرى " ومنافسوه الذين امتلكوا خبـرة كبيـرة في " نظرية الالعاب " الاستراتيجية ، دورا مدهشا كمستشارين وأنبياء امام مديرين كبار في صناعة المـوت ، وقد اقترح باحث ، وربما كان واحدا من أعظم العبقريات في قرننا هذا معتمدين في هذا التقييم علـى تنبؤاتـه على المدى الطويل ، طرازا جديدا في الهندسة المعمارية وهندسة المدن ، وللفـن بـشكل عـام ، يـستجيب لحاجات العصر " المسدساتي " ، فالشوارع منحنية للحد من سير القذائف ، وانطلاقا من هذا الطـراز الجديـد

فقد تحققت ثورة في عالم الاشكال ، تلبية لهذه الحاجة . واستنادا إلى التماسك الداخلي لهـذا النظـام ، وهـي الخاصة التي تتصف بها كل الحضارات العظيمة ، عندما تصل ذروتها ، فإن البلاد تشهد ازدهار ثقافة جديـدة ، وكلاسيكية جديدة .

وفي كل مرة تسترجع الحكومة بفخر مشروع الامكانيات ، تبرز نتائج التوسع الذي حققته : معـدل تنميـة أعلى من كل المعدلات السابقة ، مع كل ما يحمله من نتائج : عملة صعبة ، فرص اسـتخدم كاملـة ، ميـزان مدفوعات لمصلحة البلاد ، غزو لا ينقطع لاسواق جديدة لتصدير السلاح ، لأن الحجم الـداخلي لانتاجنـا مـن المسدسات ، قد أعطى اسعارنا وضعا تنافسيا للغاية .

وقد تضاعف الانتاج الوطني الاجمالي ، في عشر سنوات ، واجتمعت لدينا كل علائم الاقتـصاد الـصحي والقومي ، كما اكتملت كل أحلام اقتصاد التنمية .

ومن العدالة ، والحالة هذه ، أن نأمل بالهيمنة على العالم ، ليس فقط بسبب غنانا وقوتنا بل بـسبب حكمتنـا أيضاً .

ما وراء حملة كلينتون

ضد الارهاب

في ٥ أب ١٩٩٦ ، وقع الرئيس كلينتون ، قانون أماتو - كينيدي معلنا استثناء إيران وليبيا مـن القـانون الدولي . وكان حريصا أن يقف أمام عدسات التلفزيون ، محيطا نفسه بطريقة تبـدو طبيعيـة بأسـر وأقربـاء ضحايا لوكربي ، في العملية التي جرت ضد طائرة عائدة لشركة البان أمريكان في ٢٠ كـانون الأول ١٩٨٨ ، حيث حملت الحكومة الأمريكية ليبيا مسؤولية العملية ، على الرغم من التحقيقات المتوازية التي كذبت هـذه الرواية .

كان الاحتفال الرمزي ، ذو دلالة كبيرة على السياسة التي تنوي واشـنطن وضـعها موضـع التنفيـذ : الارهاب هو العدو الاكبر . وقد جرى تعبئة الرأي العام حول هذا الموضوع ، واعتبرت البلدان المعنية أعداء للولايات المتحدة . وكبدلية ، ستكون العقوبات الاقتصادية هي السلاح الذي اشهر في وجه هذه البلـدان ، وإن أمكن الحصار الاقتصادي .

وتتضمن قرارات واشنطن ، والتي اتخذتها منفردة انتهاكا صريحا للمبادئ الاساسـية لمنظمـة التجـارة العالمية ، وتشكل تنكرا من الولايات المتحدة لالتزاماتها الدولية . وتعتبر المعركة ضد ما يسمى بالارهـاب ، احد المحاور الرئيسية في السياسة الخارجية لرئيس الولايات المتحـدة ، وسـيكون هـذا الموضـوع جـاهزا باستمرار ، لاثارته كلما احتاجته الدبلوماسية الأمريكية .

اهو اختيار انتخابي ، حدث على ضوء التصويت للرئاسة في نوفمبر ١٩٩٦ ؟

نعم بالتأكيد . فقانون هلمز - بورتون الذي صدر في ١٢ آذار ١٩٩٦ ، والذي يشدد الحصار على كوبـا ، استطاع أن يخلق صدى كبيرا بين ٤٠٠ ألف امريكي من اصل كـوبي ، سـيدلون باصـواتهم فـي ولايـة

فلوريدا . ولكن يفوت روبرت دول ، المرشح الجمهوري للرئاسة الفرصة على كلينتون ، زاود على مواقـف خصمه من الارهاب . واصفا " بالهش " مسلك الادارة الديمقراطية تجاه كوبا وايران .

وتعطي الحكومة الأمريكية اليوم لقهر الارهاب واهدافه بغية القضاء عليه ، حضورا عالميـا منهجيـا ، ولكنه بسيط بشكل مذهل ومتعمد . " سيكون الارهاب اكثر التهديدات خطورة ، والمواجهة ضـد أمتنـا فـي القرن الحادي والعشرين " .

هذا ما قاله كلينتون عشية الاجتماع الذي عقده في ٣٠ تموز ١٩٩٦ وزراء خارجية الدول السبع ، الـذين كرسوا مقولة كلينتون . وطور الأمر مرحليا في تقرير نشرته وزارة الخارجيـة ، عـددت فيـه النـشاطات الارهابية في العالم ، وحددت معالم السياسةالامريكية بهذا الخصوص .

وتبرز من قراءة هذا التقرير ثلاث نقاط :

- لا نرى في الارهابيين إلا مجرمين ، وبالتالي لا يجوز أن يعقد معهم أي اتفاق من أي نـوع . وتجـب ملاحقتهم ، بغية الحصول على ادانات ملموسة اكثر .

- يجب ممارسة ضغط كبير ومستمر على الدول التي تتعامل معهم وتمدهم بالسلاح ، والمعونات الماليـة ، وتستخدمهم .

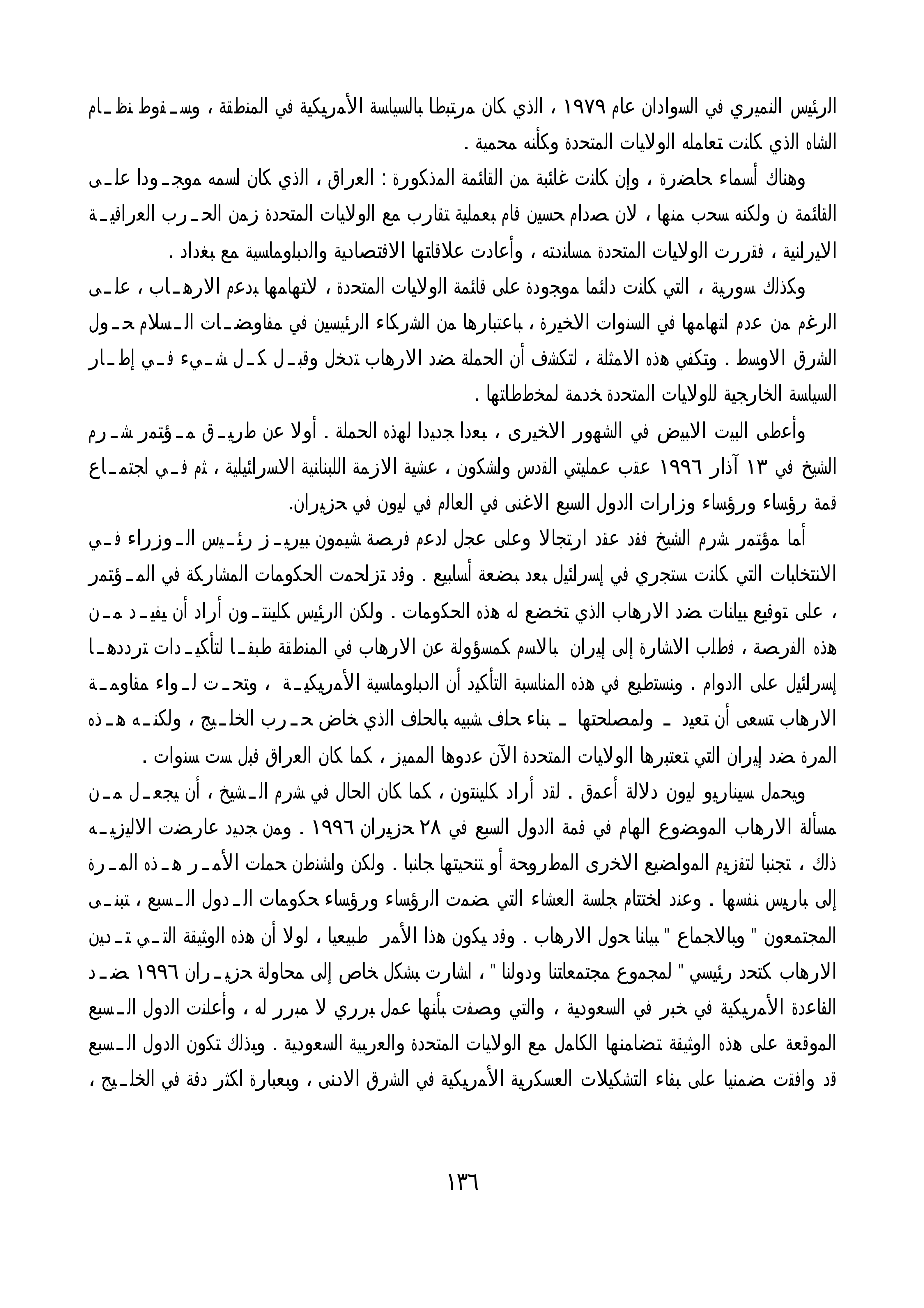
سيكون الضغط باتخاذ اجراءات سياسية دبلوماسية واقتصادية فعالة . واذا فشلت هذه الاجراءات ، اتخـاذ اجراءات أخرى .

لم يتضمن هذا التوجه الحاسم ، أي مضمون سياسي أو قومي أو اقليمي أو حتى سياسي وعسكري ، ولـم يأخذ بالحسبان أي جواب تطرحه هذه المسألة التي طرحتها مجلة الايكونوميـست فـي آذار ١٩٩٦ ، فقالـت : ليس الارهاب ظاهرة بسيطة ومحسومة ، وليس عمل عصبة من الشبان الاشقياء ، كما نحب نحن أن نـدعوهم . من هو الارهابي ؟ هل هو حامل القنبلة الانتحاري ؟ أم الثوري المتمرد هل هو جبهة التحريـر ، أم القـوى المسلحة في الدولة ؟

على كل حال ، هذا هو المفهوم الذي تريد الولايات المتحدة ، أن ترجحه وتعتبره موضوعيا .

وتقدم الولايات المتحدة الارهاب كوجه جديد لصراع الخير ضد الشر فهي تريد أن تعبئ العالم وتحت أي اسم ، حول سياستها وتحليلاتها . وليتهم استوحوا ببساطة من اهتماماتهم الانتخابية الاهداف الحقيقيـة ، لكـانوا قد توقفوا بعد انتهائها عن متابعة هذه النظرة المثالية عن الخير، وليس من دلالة اكبر بهـذا الخـصوص مـن قائمة الدول التي حددوها كمذنبة في دعم الارهاب : إيران وليبيا والسودان .

ومهما كان رأي المرء بأنظمة هذه البلدان ، أو نشاطاتها الخارجية وهي انشطة مختلفة في البلدان الثلاثـة ، فإن المطلوب وبشكل واضح أي بلد تناولت التغييرات السياسية فيه ، بـشكل أو بـآخر النفـوذ الأمريكـي : ثورة ١٩٦٩ في ليبيا التي طالبت بجلاء القواعد العسكرية الانجلوا - امريكية عن اراضـيها ، وقلـب نظـام



الرئيس النميري في السوادان عام ١٩٧٩ ، الذي كان مرتبطا بالسياسة الأمريكية في المنطقة ، وسقوط نظام الشاه الذي كانت تعامله الولايات المتحدة وكأنه محمية .

وهناك أسماء حاضرة ، وإن كانت غائبة من القائمة المذكورة : العراق ، الذي كان اسمه موجودا على القائمة ن ولكنه سحب منها ، لان صدام حسين قام بعملية تقارب مع الولايات المتحدة زمن الحرب العراقية الايرانية ، فقررت الولايات المتحدة مساندته ، وأعادت علاقاتها الاقتصادية والدبلوماسية مع بغداد .

وكذلك سورية ، التي كانت دائما موجودة على قائمة الولايات المتحدة ، لاتهامها بدعم الارهاب ، على الرغم من عدم اتهامها في السنوات الاخيرة ، باعتبارها من الشركاء الرئيسين في مفاوضات السلام حول الشرق الاوسط . وتكفي هذه الامثلة ، لتكشف أن الحملة ضد الارهاب تدخل وقبل كل شيء في إطار السياسة الخارجية للولايات المتحدة خدمة لمخططاتها .

وأعطى البيت الابيض في الشهور الاخيرى ، بعدا جديدا لهذه الحملة . أولا عن طريق مؤتمر شرم الشيخ في ١٣ آذار ١٩٩٦ عقب عمليتي القدس واشكون ، عشية الازمة اللبنانية الاسرائيلية ، ثم في اجتماع قمة رؤساء ورؤساء وزارات الدول السبع الاغنى في العالم في ليون في حزيران.

أما مؤتمر شرم الشيخ فقد عقد ارتجالا وعلى عجل لدعم فرصة شيمون بيريز رئيس الوزراء في الانتخابات التي كانت ستجري في إسرائيل بعد بضعة أسابيع . وقد تزاحمت الحكومات المشاركة في المؤتمر ، على توقيع بيانات ضد الارهاب الذي تخضع له هذه الحكومات . ولكن الرئيس كلينتون أراد أن يفيد من هذه الفرصة ، فطلب الاشارة إلى إيران بالاسم كمسؤولة عن الارهاب في المنطقة طبقا لتأكيدات ترددها إسرائيل على الدوام . ونستطيع في هذه المناسبة التأكيد أن الدبلوماسية الأمريكية ، وتحت لواء مقاومة الارهاب تسعى أن تعيد ـ ولمصلحتها ـ بناء حلف شبيه بالحلف الذي خاض حرب الخليج ، ولكنه هذه المرة ضد إيران التي تعتبرها الولايات المتحدة الآن عدوها المميز ، كما كان العراق قبل ست سنوات .

ويحمل سيناريو ليون دلالة أعمق . لقد أراد كلينتون ، كما كان الحال في شرم الشيخ ، أن يجعل من مسألة الارهاب الموضوع الهام في قمة الدول السبع في ٢٨ حزيران ١٩٩٦ . ومن جديد عارضت الاليزيه ذلك ، تجنبا لتقزيم المواضيع الاخرى المطروحة أو تنحيتها جانبا . ولكن واشنطن حملت الأمر هذه المرة إلى باريس نفسها . وعند اختتام جلسة العشاء التي ضمت الرؤساء ورؤساء حكومات الدول السبع ، تبنى المجتمعون " وبالاجماع " بيانا حول الارهاب . وقد يكون هذا الأمر طبيعيا ، لولا أن هذه الوثيقة التي تدين الارهاب كتحد رئيسي " لمجموع مجتمعاتنا ودولنا " ، اشارت بشكل خاص إلى محاولة حزيران ١٩٩٦ ضد القاعدة الأمريكية في خبر في السعودية ، والتي وصفت بأنها عمل بربري لا مبرر له ، وأعلنت الدول السبع الموقعة على هذه الوثيقة تضامنها الكامل مع الولايات المتحدة والعربية السعودية . وبذلك تكون الدول السبع قد وافقت ضمنيا على بقاء التشكيلات العسكرية الأمريكية في الشرق الادنى ، وبعبارة اكثر دقة في الخليج ،

وهو أمر تقاومه بشدة كل القوى الاجتماعية والسياسية التي رفضت هذا القرار لأنه يتعـارض مـع اسـتقلال بلدانهم .

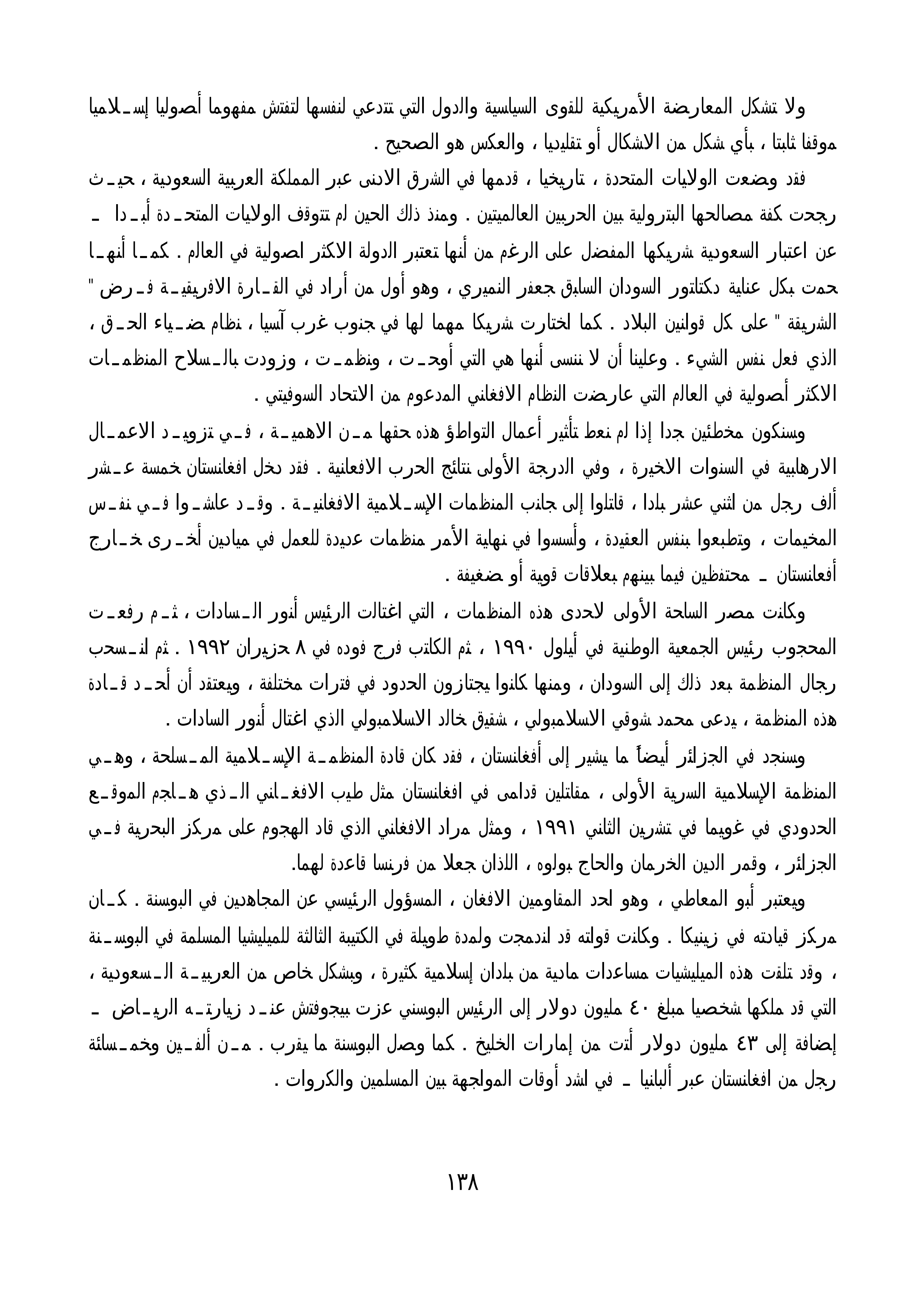
لقد كشف هذا الحدث أيضاً - كما في شرم الشيخ - عن المخططات الاستراتيجية للحملة ضد الارهـاب ، التي تقودها الولايات المتحدة ، والتي تسعى دائما للحصول على تأييد شركائها لها . ومهما كان الأمر، فقـد أوحى غياب الادانة الكاملة الواضحة وبالاسم ، إلى وجود تحفظات على ضوء العداء الذي تثيـره الولايـات المتحدة في البلدان التي تعتبرها مذنبة بجريمة الارهاب . وقد رفضت الحكومات الاوروبية ، وكذلك كندا بعـد ذلك ، أن تستجيب لقانون أمادو - كينيدي ، وأن تجبر المؤسسات الخضوع لاحكام قانون هلمـز - بورتـون المتعلق بكوبا ، ولكن علينا أن لا نعطي هذا الرفض قيمة أكبر من حقيقته ، فأوروبـا لـم تتخـذ أي إجـراء معاكس عملي . وكان الاتجاه تخفيف الخلافات الأمريكية - الاوروبية ، وتجنب كل مـا يمكـن أن يظهـر وكأنه سلسلة من أعمال الثأر المالي والتجاري .

بعد بضعة ساعات من توقيع كلينتون على قانون أمادو - كينيدي ، طرح الناطق الرسمي فـي الخارجيـة الأمريكية نيكولاس بومز مسألة المصالح الفرنسية في إيران . أوضح الناطق الرسـمي أن شـركة توتـال ، ستأخذ بالضرورة مكان للشركة كونوكو الأمريكية ، وحصلت على عقد كان سيكون مجزيـا جـدا للـشركة الأمريكية . نحن نريد أن نعاقب المؤسسات التي سيكون لديها مثل هذه التوجه في المستقبل .

ونشك بمثل هذا الارهاب ، أن تمد الشركات الاوروبية في المستقبل مشاريعها الاسـتثمارية إلـى إيـران وليبيا اللتين تزودان الاتحاد الاوروبي بـ ٢٠ % من الهيدروكاربور ، حتى لو طالبـت أن لا يكـون للقـانون المذكور وتعليمات الحكومات أثر رجعي . وسيكون أقل فاعلية أن تستجيب لمثل هذه القانون دول كالـصين ، أو دول الشرق الاقصى .

وترسم الحملة الارهابية ضد " الارهاب " ، غالبا ، عـدوا رئيـسيا : الحركـات الإسـلامية المتطرفـة والرافضة والثورية في آن واحد والتي ترى في إيران المنبع والمثال . ووضع المسألة بهذا الشكل بما يحملـه من عموميه ، لا يتصل مع ذلك بتباين الاعمال الارهابية نفسها . وليس من شـيء إيرانـي فـي اعتـداء ١٩ نيسان ١٩٩٥ في أوكلاهوما ستي والذي نفذته مجموعة يمينية متطرفـة ، ولا فـي اعتـداء ٩ تـشرين الأول ١٩٩٥ على قطار ميامي - لوس أنجلوس الذي أعلنت مسؤوليتها عنه مجموعة تحمل اسم " أبنـاء الجوسـتابو " ولا اعتداء ٣ نيسان ١٩٩٦ ، الذي نفذه أستاذ رياضيات يدعى تيودور كازانسكي ، الذي أختبأ خلـف اسـم " أونا برمبر " والذي لجأ إلى عملية الطرود الملفوفة ، ولا حتى قضية " الرجال الاحرار " الذين قـاوموا فـي ربيع ١٩٩٦ الشرطة واحدا وثمانين يوما في مزرعتهم في مونتانا .

ومع كل هذه الوقائع لابد ، من وجهة نظر أمريكا - من وجود حركة إسلامية مـا تكـون هـي الملهـم الرئيسي والمنفذ للارهاب .



ولا تشكل المعارضة الأمريكية للقوى السياسية والدول التي تتدعي لنفسها لتفتش مفهوما أصوليا إسـلاميا موقفا ثابتا ، بأي شكل من الاشكال أو تقليديا ، والعكس هو الصحيح .

فقد وضعت الولايات المتحدة ، تاريخيا ، قدمها في الشرق الادنى عبر المملكة العربية السعودية ، حيـث رجحت كفة مصالحها البترولية بين الحربين العالميتين . ومنذ ذلك الحين لم تتوقف الولايات المتحـدة أبـدا ـ عن اعتبار السعودية شريكها المفضل على الرغم من أنها تعتبر الدولة الاكثر اصولية في العالم . كمـا أنهـا حمت بكل عناية دكتاتور السودان السابق جعفر النميري ، وهو أول من أراد في القـارة الافريقيـة فـرض " الشريعة " على كل قوانين البلاد . كما اختارت شريكا مهما لها في جنوب غرب آسيا ، نظام ضـياء الحـق ، الذي فعل نفس الشيء . وعلينا أن لا ننسى أنها هي التي أوجـت ، ونظمـت ، وزودت بالـسلاح المنظمـات الاكثر أصولية في العالم التي عارضت النظام الافغاني المدعوم من الاتحاد السوفيتي .

وسنكون مخطئين جدا إذا لم نعط تأثير أعمال التواطؤ هذه حقها مـن الاهميـة ، فـي تزويـد الاعمـال الارهابية في السنوات الاخيرة ، وفي الدرجة الأولى نتائج الحرب الافغانية . فقد دخل افغانستان خمسة عـشر ألف رجل من اثني عشر بلدا ، قاتلوا إلى جانب المنظمات الإسـلامية الافغانيـة . وقـد عاشـوا فـي نفـس المخيمات ، وتطبعوا بنفس العقيدة ، وأسسوا في نهاية الأمر منظمات عديدة للعمل في ميادين أخـرى خـارج أفغانستان ـ محتفظين فيما بينهم بعلاقات قوية أو ضعيفة .

وكانت مصر الساحة الأولى لاحدى هذه المنظمات ، التي اغتالت الرئيس أنور الـسادات ، ثـم رفعـت المحجوب رئيس الجمعية الوطنية في أيلول ١٩٩٠ ، ثم الكاتب فرج فوده في ٨ حزيران ١٩٩٢ . ثم انـسحب رجال المنظمة بعد ذلك إلى السودان ، ومنها كانوا يجتازون الحدود في فترات مختلفة ، ويعتقد أن أحـد قـادة هذه المنظمة ، يدعى محمد شوقي الاسلامبولي ، شقيق خالد الاسلامبولي الذي اغتال أنور السادات .

وسنجد في الجزائر أيضاً ما يشير إلى أفغانستان ، فقد كان قادة المنظمـة الإسـلامية المـسلحة ، وهـي المنظمة الإسلامية السرية الأولى ، مقاتلين قدامى في افغانستان مثل طيب الافغـاني الـذي هـاجم الموقـع الحدودي في غويما في تشرين الثاني ١٩٩١ ، ومثل مراد الافغاني الذي قاد الهجوم على مركز البحرية فـي الجزائر ، وقمر الدين الخرمان والحاج بولوه ، اللذان جعلا من فرنسا قاعدة لهما.

ويعتبر أبو المعاطي ، وهو احد المقاومين الافغان ، المسؤول الرئيسي عن المجاهدين في البوسنة . كـان مركز قيادته في زينيكا . وكانت قواته قد اندمجت ولمدة طويلة في الكتيبة الثالثة للميليشيا المسلمة في البوسـنة ، وقد تلقت هذه الميليشيات مساعدات مادية من بلدان إسلامية كثيرة ، وبشكل خاص من العربيـة الـسعودية ، التي قد ملكها شخصيا مبلغ ٤٠ مليون دولار إلى الرئيس البوسني عزت بيجوفتش عنـد زيارتـه الريـاض ـ إضافة إلى ٤٣ مليون دولار أتت من إمارات الخليج . كما وصل البوسنة ما يقرب . مـن ألفـين وخمـسمائة رجل من افغانستان عبر ألبانيا ـ في اشد أوقات المواجهة بين المسلمين والكروات .

وقد أثار وجود المجموعات الإسلامية في البوسنة ، كثيرا من الصعوبات لأن رحيلها كان أحـد التـدابير الواجب اتخاذها طبقا لإتفاقية دايتون ولن تبقى هذه المجموعات ، على الاقل في البوسـنة ، حيـث يحتفظـون باحتياطي جيد من المال .

وانطلاقا من هذه الاحداث ، التي تدلنا على الطبيعة المشكوك فيها والمبهمة للسياسة الأمريكية فيما يتعلـق بظاهرة الارهاب ، نستنتج أن هناك اعتبارات سياسية واستراتيجية أصبحت معروفة جيدا ، هـي التـي توجـه عدوانية الولايات المتحدة ضد الحركات الإسلامية : الرغبة في قهر ، أو على الاقل إضعاف النظام الإيرانـي ، ومجابهة حركة حماس الفلسطينية ، وحزب ا اللبناني ، اللذين يخوضان معركتين متوازيتين ضد إسـرائيل .

مقاطع من مقال بقلم بول ماري دولاغورس .

في اللوموند ديبلوماستيك ـ شباط ١٩٩٧

تعقيب :

نشر دوم هيلدر كامارا أسقف أوليندا وريسف في البرازيل كتابا بعنوان " لولب العنف " باسم القارة التـي كانت اكثر من عانى ـ وقبل كل الاخرين ـ من الاضطهاد الاستعماري .

وقد أوضح في هذا الكتاب وبطريقة قاطعة ، جوانب هذه المشكلة مميزا بين ثلاثة اشكال للعنف:

١ ـ العنف المؤسسات : وهو عنف الظلم الذي يفرض على الجماهير من خلال شروط عيش إنسانية .

٢ ـ العنف الثوري : الذي يتوجه ضد العنف السابق .

٣ ـ العنف القمعي : الذي يقوم بسحق العنف الثوري لمصلحة العنف المؤسساتي .

لكن الخداع ، لا يسمى عنفا ، إلا العنف الثوري .

لقد عرفت الشعوب المستعمرة لأكثر من خمسة قرون ، وأوروبا التي عانت مـن الـسيطرة الهتلريـة ، التضليل الذي يخلط بين " الارهاب " ، و " المقاومة " ، مقاومة الاضطهاد وجرائم النهب . ويـستخدم القـادة الأمريكيون والمتآمرون معهم نفس اللغة ، بغية فرض سيطرتهم على العالم .

لاهوت السيطرة الأمريكية

أعلن الرئيس تافت عام ١٩١٢ :

" إن من واجبي أن أحمي شعبنا ، وممتلكاته في المكسيك إلى أن تفهم الحكومة المكسيكية أن هنـاك ربـا في إسرائيل ، ومن الواجب إطاعته " .

ويظهر هذا التعبير ، وغالبا بصيغة " إسرائيل الرب الجديدة " ، كثيرا في التاريخ الأمريكـي منـذ مـاى فلاور ، وتأسيس مستعمرة بلايموث عام ١٦٢٠ .

يالها من قصة جملية ومؤثرة : شعب منفىٌ ، شعب صغير ، يفر إلى هيمنة تحميـه ، باحثـا عـن بدايـة جديدة .

وعقد حاف فوق جبل سيناء ، فقد أعطى يهوه اليهود المنفيين الوعد الخاص بأن يكونـوا الأمـة الأكثـر تفضيلا . وأصبح اليهود " شعب ا   المختار " ، " مع أرض ميعاد " ، وعهد اليهم على هذه الشاكلة بدور هـام جدا في قيادة باقي الشعوب .

والآباء المؤسسون للولايات المتحدة ، البيوريتانيون ، هم أيضاً " شعب مختار " منذ قـرون ، لا يقـرأ إلاّ التوارة ، ويعتبر نفسه شعبا مختارا ، إن لم يكن عن طريق يهوه ، فعلى الاقل عن طريق الرب المسيحي .

لماذا لا تصبح هذه الأرض ، إذن ، أرض الميعاد ، ولماذا لا يصبح شـعبها النـور والهـادي والقائـد للشعوب الاخرى، ما دام شعبا مختارا من ا   ؟

ولكن أرض الميعاد ليست صحراء .

والفكرة الاساسية ، هي أن الرب يساعد الشعب المختار ، وأن نجاح هذا الـشعب ، لا يـشير فقـط إلـى استقامته وصوابيته في نظر الرب ، ولكنه أيضاً يدل أن الوسائل التي استخدمت لتحقيـق الظفـر هـي أيـضاً مبررة ومسوغة .

وكما زود العهد القديم ، الأمريكيين الأوائل ، بوهم ملائم لعلاقتهم مع السكان الاصـليين للـبلاد ، قـام البيوريتانيون بدورهم بتزويد الاسرائيلين بوهم ملائم لعلاقتهم مع الفلسطينيين والنتيجـة المـسلم بهـا ، إنـشاء جبهة مشتركة ضد الإسلام .

اعتقاد اليهود بأنهم شعب مختار ، يتماشى تماما مع اعتقاد الولايات المتحدة بأنها الامة الاكثر قربـا مـن ا   ، من أي أمة أخرى ، معبرة عن هذا الاعتقاد في الشعار المطبوع على الدولار " نحن نثق با   " .

و " البلاد الاكثر قربا من ا   " هي أيضا ممثل ا   على الأرض ، الذي يحمل معه ثلاثة من صـفات ا   : العليم بكل شيء ، القدرة الكلية ، والاحسان . وذلك يعني واقعيا المراقبة الالكترونية في العالم كلـه ، لكـل أولئك الذين يشك بانهم حملة الشر ، ويعود للولايات المتحدة وحدها تقرير من الذي يدخل في طبقـة الاشـرار هذه . ولا حاجة لأن يكون هناك محكمة استئناف طالما أن الولايات المتحدة تحتكر اصدار الاحكـام . وهكـذا فهي تمارس سلطة ثقافية ، وسلطة اقتصادية ، وسلطة عسكرية تحت اشراف البنتاغون والمخابرات المركزيـة .

وتستحق امبراطورية الشر، أن تمطر بالقنابل ، حتى تعود إلى العصر الحجري .. وهذا واجب.

وأية ديانة يمكن أن تكون أسمى من اليهودية المسيحية عقيدة يمكـن أن تكـون أسـمى مـن الليبراليـة المحافظة بصيغتها الرأسمالية ؟

ولا يجوز لأية مؤسسة دولية أن تكون فوق الولايات المتحدة . وينطبق هذا الأمر على الأمـم المتحـدة ، على الاقل لأن هذه المنظمة هي وسيلة الولايات المتحدة لممارسة نفوذها المسيطر على العالم كلـه . وفيمـا يتعلق بتراتبية الأمم ، تقع الولايات المتحدة في القمة ، يحيط بها الذين يمثلون مركز العـالم : الحلفـاء الـذين يتصفون على الاقل باثنتين من الخصائص الثلاثة التالية :

ـ اقتصاد حرية السوق .

ـ الايمان بالرب اليهودي والمسيحي .

ـ الانتخابات الحرة .

وفي الطرف الثاني من هذا العالم ، المقسوم بين الخير والشر ، تتكون امبراطورية الشر من البلدان التـي لا تؤمن باقتصاد حرية السوق ، ولا بالايمان اليهودي ـ المسيحي ، ولا بالديمقراطية علـى غـرار النظـام الأمريكي .

الولايات المتحدة المتحدة متحالفة مع ا ، والبلدان الاخرى متحالفة مع الولايات المتحدة ، ويتصف هـذا التحالف بعلاقات خضوع المحيط للمركز ، وخضوع دول الغرب للولايات المتحـدة ، وخـضوع الولايـات المتحدة . هذا هو اللاهوت الغامض للسياسة الدولية للولايات المتحدة .

جوهان جالتونغ من

كتاب " السياسة الخارجية للولايات المتحدة في مظهرها اللاهوتي ".